ت / فاكس : ٥٢٥٤٠٣٨ (٠٣) - اسكندريه

الفتوة فى المفهوم الإسلامى

دراسة فى الأخلاق الإسلامية

د. عبد العزيز محمد
الفتوة فى المفهوم الإسلامى
"دراسة فى الأخلاق الإسلامية"
كمبيوتر : دار الوفـــاء (علا علاء)
الطباعة : دار الوفاء لدنيا للطباعة والنشر
العنوان : ش ملك حفنى ، قبلى السكة الحديد
بجوار مساكن دربالة أمام بلوك ٣
ص.ب. ٢١٤١١ فيكتوريا ــ اسكندرية
رقم الإيـــــداع : ١٩٩٨/١٣٤٤٧
الترقيم الدولى :6- 19 - 5904 - 977

الفتنة فى المفهوم الإسلامى

دراسة فى الأخلاق الإسلامية

دكتور / عبد العزيز محمد

الناشر
دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع
ت : ٥٣٥٤٤٣٨ ـ الإسكندرية

المقدمة

الفتوة فى اللغة من الفتاء وهو الشباب، والفتى فى الأصل الشاب وقد يراد به الكامل من الشباب، فالفتوة هى القوة لأن الشباب مصدرها عادة.

ويذكر صاحب التعريفات أن الفتوة فى اللغة : السخاء والكـــرم، وفى إصطلاح أهل الحقيقة : هى أن تؤثر الخلق على نفســـك بالدنيـــا والآخرة.

وهنا نجد معنى آخر للفتوة يقترب كثيراً من المعنى المعنوى إذ أن الفتوة فى هذا التعريف لا تقتصر على الشباب والقوة فقـــط وإنمـــا تعدت ذلك إلى معانى أخرى أسمى وأعلى، كالسخاء والكـــــرم، حتـــى وصلت إلى حد الإيثار عند الصوفية.

إلا أن المفهوم الشائع للفتوة أخـــذ معـــانى المشاغبـــة والغلبـــة والشقاوة.. واضمحلت معانى الفتوة التى تدل علـــى النبـــل والســـماحة والسخاء والكرم وإيواء الضيف، وكظم الغيـــظ ومســـاعدة الضعيـــف، والعفو عند المقدرة، والإيثار....

ومن خلال الصفحات القادمـــة نحـــاول أن نوضـــح الســـمات الأخلاقية والمعنوية للفتوة فى المفهوم الإسلامى غـــير غـــافلين عـــن السمات المادية، ولكن بداية كان علينا أن نجيب فى الفصل الأول عـــن السؤال التالى : هل عرف المجتمع الجاهلى قبل الإسلام نظام الفتوة؟

وهنا لابد أن نقرر أن كثيراً من مزايا العرب قبل الإســـلام قـــد دخلت ضمن سمات الفتوة ـــ ولكن مع إختلاف الغاية ـــ ومـــن جهـــة

أخرى وجدت بعض السمات الغير محمودة والتى نهى عنـــها الإســـلام وحرمها مثل شرب الخمر، والجلوس فى الحانات، وحضور مجـــالس اللهو والمجون.....

وفى الفصل الثانى نعرض لمفهوم الفتوة فى الإســـــلام، وفـــى البداية نعرض لمعانى الفتوة كما وردت فى كتاب الله عـــز وجـــل، إذ وجدنا أن لفظ "فتى" قد ذكر فى القرآن الكريم فى أكثر مـــن موضـــع وبأكثر من معنى، كما أتى وصفاً لبعض الأنبياء.

أما عن سمات الفتوة كما أوضحها الإسلام فوجدنا أنها مجموعة من الخصال الحميدة والصفات الرشيدة، التى تكون فى مجموعها شجرة الأخلاق بفروعها وأغصانها وثمارها، والتى عـــبرت عنـــها الشريعـــة الغراء "بمكارم الأخلاق".

وقد تجسدت هذه الأخلاق الكريمة فى شخصية سيد الفتيان على مر العصور والأزمان، رسول الله صلى الله عليه وسلم، والذى كان له أكبر الأثر على الصحابة لأنه القدوة والأسوة الحسنة، ولهذا أردنـــا أن نعرض فى الفصل الثالث لنماذج من فتيان المسلمين أصحاب رســـول الله صلى الله عليه وسلم، فوجدنا أن هؤلاء الصحابة نماذج فـــذة فـــى مكارم الأخلاق.

وإذا كان الصوفية قد استحسنوا كلمة الفتوة، وماتدل عليه مـــن معانى النبل والسماحة، وما تسعى إليه من التحلى بمكـــارم الأخـــلاق، لذلك شاع استخدامها بينهم وأدخلت ضمن مصطلحاتهم.

ولما كان من الصعب تتبع وحصر سمات الفتوة عند الصوفية ـــ بصورة عامة ـــ فقد اقتصرنا البحث فى الفصل الرابع على بعض مـــن

مدارس الصوفية وهى البصرة ، والكوفة، والشام، وخراسان،. ومـــن خلال البحث استطعنا الإجابة على بعض التساؤلات ومنها :

ـــ ما هو المصدر الذى استقت منه الصوفية مبادئ فتوتها؟

ـــ ما هى سمات الفتوة التى تتحلى بها الصوفية؟

ـــ ما هى الغاية التى تهدف إليها الصوفية من وراء فتوتها؟

واستكمالاً لعناصر البحث كان لابد أن نعرض للصلة بين الفتوة الإسلامية والفروسية الغربية، لكى نتعرف إلى أى مدى تـــأثرت هـــذه الفروسية بسمات وخصال الفتوة.

وبمناقشة هذا الموضوع فى الفصل الخامس وجدنا أن الفروسية الغربية لم تستطع أن تتحلى بما عرف من خصال حميدة يتحلـــى بـــها فتيان المسلمين، يشهد بذلك إحتكاكهم بالعرب فى المعاملات عن طريق الأندلس، وميادين القتال خلال الحروب الصليبية.

وعلى الله قصد السبيل

د. عبد العزيز محمد

الفصل الأول
مفهوم الفتوة قبل الاسلام

مفهوم الفتوة قبل الاسلام

بعد أن تعرفنا على معنى الفتوة فى اللغة، واستعرضنا الفـــرق بينها وبين المروءة،يجدر بنا أن نعرض لمفهوم الفتوة عند العرب قبـــل الاسلام.

وهنا نجد إن الكلمة خاضعة للقبائل المختلفة، فتلبسها كل قبيلة ما تراه المثل الأعلى للفتى، فطرفة بن العبد ــ مثلا ــ يرسم لنا صـــورة للفتى كما يتصورها هو وقبيلته فيقول:

إذا القوم قالوا من فتى خلت إنني

دعيت فلم اكسل ولم أتبـــــــلد

وهذا القول لطرفة يذكرنا بقول بشامة بن حزن النهشلى:

لو كان فى الألف واحد فدعوا

من فارس؟ خالهم إياه يعنـــونا

فهم يدعون الفارس فى الملمات والشدائد، كما يدون الفتـى، فكأن الفتـــى هو الفارس الشجاع، وإن كان الفتى أعم معنى، ويتضح ذلك من حديث طرفه عن نفسه فى وصف الفتى وعدد سجاياه فى قوله:

ولست بحلال التلاع مخافـــة

ولكن متى يسترفد القوم أرفد

فهو كريم يرفد كل من طلب رفده، وهو واسع الرحـــب قـرى الضيف كما هو واسع النجدة فى قتال الأعداء.

وإن تبغني في حلقة القوم تلقني

وإن تقتنصني في الحوانيت تصطد

وهنا نجد طرفة يصف الفتى بأنه جاد هازل، أى أنه مـــن ذوى الرأي والمشـــورة يدلى برأيه بين عظماء القوم عندما يجد الجد. كمـــا أنه يطلب اللذة والاستمتاع بشرب الخمر فى الحوانيـــت،ليســـقي فـــيره كرما(١).

فالفتوة هنا فى نظر طرفه ــ وامثاله ــ شجاعة وكـــرم وهـــذه الصفـــات وإن كانت محمودة. فقد اقترنت بصفات أخرى غير محمودة كاللهو واللذة والإستمتاع بشرب الخمر فى الحوانيت، معتقداً أن الحيـــاة هى هذه الحياة ولاشئ وراءها. فليلتذ ما أمكن، وليس هذا من الإســـلام فى شئ.

كذلك كان من دواعي فخر العرب فى الجاهلية أن يكون الفتـــى كريما وكثيرا مالا مهم نساؤهم على إسرافهم فى الكرم، وبيتـــهم فـــى حاجة الى ما يبذلونه للضيوف ولقد أفصح هؤلاء الأسخياء عن الغايـــة من وراء هذا الكرم بأن هلاك المال فى سبيل الضيـــف ــ وإن هلـــك العيـــال ــ مفخرة تخلد الأسان . أما البخل والشح فعار أى عار، وليس المال بمخلد صاحبه إذا هو شح به :

ألا بكرت مي على تلومنـــــي

تقول: ألا أهلكت من أنت عائله

ذريني فان البخل لا يخلد الفـــتى

ولا يهلك المعروف من هو فاعله (٢)

وإذا ما انتقلنا الى مفهوم أخر من مفاهيم الفتوة عند العرب قبل الاسلام لوجدنا أن العرب قوم رحل ليس لهم حكومة منظمة، ولا قوانين مرسومة،ولا قوة منفـذة ولا محاكم للفصل بين المنازعـات. ولذلـك كانت كلمة الشرف. والوعد الصادق هي القانون الـذى يقدسـه كـل عربي ويحرص على احترامه والخضوع له، حرصا علـى مصلحتـه الخاصة، وعلى العدالة العامة فى المجتمع،وفى ذلك يقـول هـيرودت: ليس ثمة قوم يحافظون على أيمانهم مثل العرب(٣).

وأحيانا تبلغ كلمة الشرف، والوعد الصادق الذى يلزم به المرء نفسه الى ذروة الوفاء. وفى هذا الصدد يقول السموأل ــ الذى يضرب به المثل فى الوفاء :

وفيت بأدرع الكنـــدي آني

اذا ما ذم أقوام وفيـــت(٤)

ومن مفاهيم الفتوة قبل الاسلام نجد الصدق وحفظ السر، ويتضح ذلك فى قول مسكين ألد ارمى

وفتيان صدق لست مطلع بعضهم

على سر بعض غير أنى جماعهـــا

لكل أمري شعب من القلب فارغ

وموضع نجوى لا يرام إطلاعـــها

يظلون شتى فى البلاد وســـرهم

الى صخرة أعياد الرجال إنصداعهـا(٥)

مما سبق نجد أن مفهوم الفتوة قبل الإسلام يختلف باختلاف نظر الأشخـاص, فبعضهم يراه فى الشجاعة والكرم، وبعضهم يـــراه فـــى

التـــلذذ بالحياة ما أسعفته،وبعضهم يراه فى الوفـــاء بـــالوعد،والبعـــض الآخر يراه فى الصـــدق وحفـــظ الســـر.وكأننـــا أمـــام جماعـــة مـــن السوفسطائيين كل منهم يرى فى نفسه المثل الأعلى فى تصرفه.

ولذلك لا نستطيع أن ندعى أنه فى باديء الأمر كان فى الجاهلية جماعة يسمون الفتيان واحدهم فتى، إنما كل ماقى الأمر أن الكلمة تطلق على بعض الأفراد فى كل قبيلة جمعوا مع الشاب والقـــوة والشجاعـــة صفة بينه من الصفات قد تكون الكرم،أو النجدة،وقد تكون الوفاء بالوعد والالتزام بالعهد ، وقد تكون الصدق وحفظ السر ... أو غير ذلـــك من الفضائل والصفات المحمودة .وربما تكون بعض هذه الصفات والسمات غبر محمودة ــ فألغاها الاسلام نهى عنها كشرب الخمـــر، وحضـــور مجالس اللهو والانغماس فى اللذات.

ويخيل الى أنه كان فى الجاهلية طبقتان مختلفتان،وان تلاقا فـــى بعض الخصال، الفتيان وهم أولاد الأغنياء من الشبان، والذين يبغـــون من وراء فتوتهم السؤدد والرياسة. ويقابلـــهم أولاد الفقـــراء ويســـمون الصعاليك.فالصعلكة كما وردت فى كتب اللغة تســـاوى الفقـــر. ففـــي القامـــوس المحيط صعلكه ..أفقره ..والصعلوك الفقـــير، وتصعلكـــت الإبل خرجت أوبارها وعروة الصعاليك هو إبن الورد لانه كان يجمـــع الفقراء (الصعاليك)فى حظيرة فيرزقهم مما يغنمه(٦).

وفى هذا نرى أن المعنى المباشر للصعلكة هو الفقر، وأنها فـــى استعمالاتها الأخرى تدور أيضا حول الفقـــر، بمعنـــاه المبـــاشر وهـــو التجرد، فان الفقر فى الإنسان هو التجرد من الغنى، وكذلك التصعلـــك

فى الإبل بالتجرد من أوبارها. وفى لسان العرب الصعلوك الفقير الذى لا مال له، وزاد الأزهري ولااعتماد، وتصعلك الرجل اذا كان كذلك.

وفى هذا التعريف للصعلكة نجد أن صاحب اللسان تقـــدم عـــن المعنى اللغوي للصعلكة خطوة نحو المعنى العرفي لـــها بقولـــه: وزاد الأزهري واعتماد فان قوله ولا اعتماد، يعبر عن معنى دقيق فى مفهوم الصعلكه بالمعنى المعروف لها،وإذا كان الفقر من أهم الدوافـــع الـــى الصعلكة فان ما يميز الصعاليك عن غيرهم من الفقراء، إنهم رفضـــوا أن يعيشوا عالة على غيرهم أو أن يجعلوا أحدا من الناس عمادا لـــهم، فى حين رضى بعض الفقراء لا نفسهم الذل والاستكانه(٧).

وإذا ما تساءلنا عن وسيلة عيش هؤلاء الصعاليك لوجدنا أنـــهم كانوا يعيشون وينفقون من الإغارة علـــى الأغنيـــاء والســـطو علـــى أموالهم،وحجتهم فى ذلك أنهم يغيرون على الأغنياء البخلاء الأشحاء أما الأغنياء الكرام فيتركوهم وشأنهم بل ويحافظوا على أموالهم(٨). ويعبر أحد الصعاليك ــ وهو بكر بن النطاح عن هذا المعنى فيقول :

ومن يفتقر منا يعيش بحسامـــــه

ومن يفتقر من سائر الناس يسأل(٩)

وجدير بالذكر أن هذا الخلق يتعارض مـــع ســـمات الفتـــوة ــ وخصة الاسلامية ــ إذ أن الفتوة تقوم على مجموعـــة مـــن الخصـــال الحميدة ولا تقوم على السلب والنهب واللصوصية. وهنا يمكن القـــول أن كلمة صعلوك إذا كانت تعنى فى مدلولها اللغوى الفقير فقد وجدنـــا أنها تعنى فى مدلولها العرفى اللص، وذلك لأن هذا الفقـــير الصعلـــوك يعتمد فى معيشته على السطو والإغارة واللصوصية.

وهنا نجد سؤالاً يطرح نفسه، هل إقتصـــرت الصعلكـــة علـــى أساليب اللصوصية وحدها، وما تتطلبه من سرعة العدو والقوة والمنعة والفتك بالأعداء.... أم تعدت ذلك إلي صفات أخرى أرفع وأسمى؟

حقيقة الأمر أنه لكى نجيب على هذا السؤال لابد لنا أن نتعرف على شخصية من شخصيات الصعاليك حتى نرى ما كان يتحلى به من صفات وخصال. ولتكن هذه الشخصية عروة بن الورد العبسى، الملقب بعروة الصعاليك.

فقد إمتاز عروة بأنه أضفى على الصعلكة كثيراً من الاحـــترام والتقدير، وذلك راجع إلى ما تحلى به، عروة من خلق فريد فى السخاء، والعطف الشديد على الفقراء ويتضح ذلك فى قوله (١٠).

اقسم جسمى فى جسوم كثيـــرة

واحسوا قراح الماء والماء بارد

ومعنى تفريق أو تقسيم جسمه فى جسوم كثيرة، إنه يقسم غذاءه الذى يكون جسمه على أجسام كثيرة ليكونهم بينما يكتفى هو بالماء.

ولذلك لقب "بعروة الصعاليك" ويقصدون بالصعاليك هنا الفقراء والسبب فى هذا اللقب أن عروة كان كثيراً ما يجمع الفقـــراء ليعولـــهم ويعطف عليهم(١١).

وهكذا يمكن القول أن الصعلكة تلتقى مع الفتـــوة فـــى بعـــض الخصال، فهى لم تقف عند حد اللصوصية وإلا غارة على الاغنياء، بل تعدت ذلك إلى بعض الخصال الحميدة التى إشتهر بها المجتمع العربى الجاهلى مثل، العطف والكرم والنجدة... وقد أجمع أبى المثلم كثيراً من هذه الخصال فى رثاء صخر الغى إذا يقول :

أبى الهضيمة آت بالعظيمـــــة متـــ

ـــلاف الكريمة لا سقط ولا وانـــــى

حامى الحقيقة نسال الوديقـــــة معـــ

تاق الوسيقة جلد غير ثنيـــــــــــان

هياط أودية شهاد أنديـــــــــــــة

حمال ألوية سرحان فتيـــــــــــان

يحمى الصحاب إذا جد الضراب ويكـــ

فى القائلين إذا ما كبل العانـــــــــى

يعطيك مالا تكاد النفس تسلمـــــــــه

من التلاد وهوب غير منـــــــــــان(١٢)

وإذا ما أردنا أن نتعرف على تلك العلاقة بين الصعلكة والفتوة، يمكن القول أنهما وإن إشتركا معاً فى بعـــض الخصـــال أو الصفـــات كالشجاعة والاقدام الكرم وإيواء الضيف... إلا أنـــه يمكـــن القـــول ان شجاعة الصعاليك كان يشوبها كثيراً من الحـــذر واليقظـــة نظـــراً لأن حياتهم يسودها الرهبة والقسوة والخطورة فليست فى حياتهم ساعة تخلو من الخطورة أو الخوف أو توقع المكروه.

ويوضح الشنفرى سبب هذه اليقظة والحذر، فهو بالإضافة إلـــى أنه طالب صيد به فهو أيضاً طريد جنايات كثيرة جناهـــا، جعلـــت لـــه أعداء كثيرين يتربصون به، إن نام هو، فعيونهم يقظى متعجلة الظفـــر به. فيقول :

طريد جنايات تياسرن لحمه

عقيرته لأيهاحـــــــم أول

تنام إذا ما نام يقظى عيونها

حثاثا إلى مكروهه تتعجـــل(١٣)

فهذه الحياة التى كان يحياها الصعاليك تختلف عن تلـــك الحيـــاة التى عرفها الفتيان فى الجاهلية من لهو وإستمتاع. ويحدثنا قيـــس بـــن الحدادية، والذى كان يعتبر قبل خلعه مـــن فتيـــان قومـــه والفرســـان المعدودين، فيقول عن إنتقاله من حياة الدعة والهدوء ــ أى حياة الفتيان الفوارس. إلى صراع الحروب ــ أى حياة الصعاليك والخلعاء

وأصبحت بعد الأنس لابس جبة

أساقى الكماة الدارعين العواليا(١٤)

بالإضافة إلى ما سبق نجد فرقاً آخر بين الصعلكة والفتوة، وهو أن الفتيان يعطون ما يعطون وهم مترفعون، بينما الصعاليك يعطون ما يعطون وهم يعتقدون أنهم مع زملائهم الفقراء متساوون. وإن شئـــت قلت : أن الفتيان يعطون ما يعطون عطفاً وتفضلاً والصعاليك يعطـــون أداء لما يرونه واجباً.

وهكذا يتضح لنا أن هناك خلافاً حول مفهوم الفتوة قبل الاسلام، وذلك راجع إلى ما تضفيه البيئة على معنى الكلمة وإلى فهم كل شخص أو بالأحرى كل فتى لمعنى الفتوة، فتارة تعنى الشجاعة والكرم... إلـــى جانب باقى الخصال الحميدة وتارة أخرى تعنى اللهو والمجون وشرب الخمر... إلى غير ذلك من الخصال الغير محمودة وبيقـــى أمامنـــا الأن التعرف على بعض مظاهر الفتوة قبل الاسلام ومن خلالها نصل إلـــى الغاية التى يسعى إليها الفتيان.

القوى المادية للفتوة

الشجاعة

إذا ما نظرنا إلى الشجاعة عند فتيان العرب لوجدنـــا أن الفتـــى العربى لا يهاب الموت ويجود بالنفس فى سبيل ما يدافع عنه :

نجود بالنفس إن ضنى البخيل بها

والجود بالنفس أقصى غاية الجود.(١٥)

ومما هو جدير بالذكر أن العرب قد إعتبروا القـــوة والبطـــش ملازمة للشجاعة إذ أن دواعى الخلاف بين القبائل كثـــيراً مـــا تنتـــهى بالاحتكام للسيف، وهذا الأمر يقتضى يداً قوية وجسماً مفتولاً لا مترهلاً ولا هزيلاً. لذلك أصبح من دواعى فخارهم أن يكون الفتى (١٦)

فتى قد قد السيف لا متضائـــــل

ولا رهل لباته وأباجلـــــــه

إذا جد عند الجد أرضاك جـــــده

وذو باطل إن شئت أرضاك باطلـــه

يسرك مظلوما ويرضيك ظالمـــا

وكل الذى حملته فهو فاعلـــــــه

والشجاعة تقتضى من الفتى أن يفضل الموت على العيشة الذليلة والرضا بالضيم. بل أدى الأمر ببعض الفتيان إلـــى حـــد الاســـتهانة بالمـــوت مقارنة بموقف آخر أسوأ من الموت ذاتـــه كالمقارنـــة بيـــن الفرار فى الحرب والموت. حين يرى الفتى إن الموت خير من عـــار الفرار أحياناً، وكالمقارنة بين الموت وعار التخلى عـــن الـــزود عـــن

العرض والشرف، وحين يرى الزائد حينئذ أن الموت خير له من ذلك العار(١٧).

فها هو قيس بن منقذ (المعروف بابن الحدادية) يفضل الموت عن الوقوع فى الأسر من ذل وهوان. إذ حاصره جمع المغيرين للغنيمة فطلبوا من قيس أن يستأسر ليتخذوه غنيمة، فأبى قائلا : نفسى أكرم على من الأسر، وأثر أن يقاتلهم حتى قتل وهو يرتجز مستهيناً بالموت :

أنا إذا الموت ينال غاليه

مختلط أسفله بعاليه

قد يعلم الفتيان أنى صاله

إذا الحديد رفعت عواليه(١٨)

ومما هو جدير بالذكر أن الاستهانة بالموت وإقتحام المهالك كان يصاحبها دائماً الحيطه والحذر، فالفتى الشجاع فى ميدان القتال مهما بلغ من البساله والإقدام والحرص على مواجهة الموت لا يغنيه ذلك عن أن يتخذ لنفسه كل حيطه وحذر. وهذا الحذر جعل الفتى ــ فى ميدان القتال ــ لا يستسلم لسلطان الغفلة، حتى إنه إذا نام ظل قلبه حارساً يقظاً محاذر ينبهه إلى أى خطر يحيط به :

إذا خاطر عينيه كرى النوم لم يزل

له كالئ من قلب شيحان فاتك

ويجعل عينيه ربيئه قلبه

إلى سلة من جد أخضر باتك(١٩)

وهذا دليل على أن الفتى مهما أوتى من شجاعة، يجب أن يأخذ كل حيطة وحذر حتى لا يؤخذ على غرة.

ومراتب الشجاعة والشجعان كما يراها إبن القيم هى :

أولاً الهمام : وسمى بذلك لهمته وعزمه. وجاء على بناء فعال كشجاع.

ثانياً المقدام : وسمى بذلك من الإقدام وهو ضد الاحجام. وجاء على أوزان المبالغة، كمعطاء، كثير العطاء.

ثالثاً الباسل : وهو اسم الفاعل من بسل يبسل، كشرف يشرف والبسالة الشجاعة والشدة.

رابعاً البطل : وجمعه أبطال، وهو بمعنى فاعل لفظاً ومعنى، لأنه الذى يبطل شجاعة غيره فيجعلها بمنزلة العدم، فهو بطل بمعنى مبطل.

خامسا الصنديد : بكسر الصاد، والعامة تلحن فيقولون صنديد بفتحها والصنديد الذى لا يقوم له شئ(٢٠)

ولما كانت الشجاعة خلقاً كريماً يتحلى بها الفتيان، فأنها تتطلب الاقدام فى موضع الاقدام، والاحجام فى موضع الاحجام، والثبات فى موضع الثبات، والزوال فى موضع الزوال.

وضد ذلك مخل بالشجاعة وهو إما جبن وإما تهور، وإما خفة، وطيش. وعلى هذا يمكن القول أن الشجاعة وسطاً بين الجبن والتهور، وإن كانت إلى التهور أقرب منها إلى الجبن، فالفتى الشجاع لا يعرف الجبن أو التخاذل إلى قلبه سبيلاً، وإنما تراه مقداماً يخوض فى قوة وبسالة.

وإذا ما تساءلنا عن العوامل التى ساعدت على إظهار شجاعـــة فتيان العرب لأمكن القول : ان الحياة البدوية التى يعيشونها فى صحراء شبه شحيحة مجدبة وتوحشهم فى الضواحى، وبعدهـــم عـــن الحاميـــة، وانتباذهم،عن الأسوار والأبواب قائمون بالمدافعة عن أنفسهم، لا يكلونها إلى سواهم، ولا يثقون فيها بغيرهم(٢١).

هذه الحياة البدوية فضلاً عن طبيعة الصحراء وما تكسبه للجسم من القوة البدنية، جعلت فتيان العرب دائماً يحملون السلاح بيـــد قويـــة وقلب ثابت لا تعرف جنوبهم الراحة والدعة، ينفردون فـــى الصحـــراء مدلين ببأسهم، واثقين بأنفسهم، حتى صار لهم البأس خلقـــاً والشجاعـــة سجية يرجعون إليها متى دعاهم داع أو إستفزهم صارخ(٢٢).

والآن نريد أن نتسائل ما هى الغاية التى يســـعى إليـــها فتيـــان العرب الشجعان؟ إننا إذا ما نظرنا إلى الغاية من الشجاعة عند فتيـــان العرب نجد أن الفتى العربى كان يقتحم الخطوب والمعارك بقلب ثـــابت ويد قوية وشجاعة بالغة المدى، واثقاً من شجاعته وبأسه وحنكتـــه فـــى ساحات القتال. وذلك لأنه يبغى من إقتحام المكاره الحمـــد والصيـــت، والبقاء فى عزة وحرية له ولقبيلته فيخشى بأسها الأعداء، ولا يطمعون فيها. ولا عجب إذا سمعنا شاعرهم يقول :

ما تعترينى من خطوب ملمة

إلا تشرفنى وتعظم شـــــانى(٢٣)

من هذا يتضح لنا أن شجاعة الفتى تلبسه المجد والشرف وتعظم من شأنه فى القبيلة وتوصله إلى أعلى مراتب السيادة والرئاسة. وهذا هو غاية ما يطمح إليه الفتى العربى.

بالإضافة إلى ما سبق نجد أن كثرة الشجعان بين العرب، نتيجة إمتداح الرأى العام للشجاع القوى الذى يلبى النداء إذا دعى للنجـــدة، أو كانت قبيلته أو عشيرته أو حلفاؤه فى محنة. ولا جدال أن للرأى العام فى نفوس البعض سلطان قوى يتأثر به الفرد، وتتـــأثر بـــه الجماعـــة، والعرب كانوا يمتدحون القوى الشجاع، ويهزءون بالجبان الهيابة الـذى يفر من ساحات القتال ولا يلبى النداء.

الخيل والإبل

لقد إعتنى فتيان العرب بأجســـامهم، فـــاكتملت قوتـــهم وعظـــم إحتمالهم للخطوب والشدائد وتعودوا خوض المعارك والمحن، واستهانوا بالموت.

كل هذا جعل الشجاعة سمة مميزة لفتيان العرب، مما أدى بـــهم إلى أن يعنوا عناية خاصة بأدوات الظفر والقتال، وأول هذه الأدوات ــ بعد القوة الجسمية ــ جواد أصيل، مدرب على أن يكون هادئـــاً وســـط المعركة، يكر بصاحبه، ولا يفر أو يرتد عن المعركة إلا إذا كان هناك ضرورة لذلك.

ولا جدال أن المطايا من لوازم العربى ــ بصفة عامة ــ فـــى حياته البدوية لأن معاشه غير مستقر، ومورد رزقه غير ثابت كما يألف أهل المدن أو أصحاب المهن الزراعية، وإنما هو شخص متنقـــل دائـــم السعى وراء موارد الماء بحثاً عن الكلأ. ولذلك لم يكن الشخص الذى يمـــلك ناقة، أو فرساً يعـــد غنيـــاً أو خارجـــاً عـــن نطـــاق الفقـــراء والمحتـــاجين، لأن الناقة الواحدة أو الفـــرس ليســـت ثـــروة بـــالمعنى

المفهوم، وإنما هى أداة تنقل وسعى للرزق، وكأنها جزء من حياته فـــى المجتمع العربى القديم.(٢٤)

ولما كانت الابل تستخدم في التنقل والترحال، فإن الخيل كـــثر إستخدامها فى الحروب والمعارك، لذلك نجد أن فتيان العرب إعـــتزوا بالخيل وعرفوا لها منزلتها، وعدوها بمنزلة أولادهـــم، وكـــان يـــهنئ بعضهم بعضا إذا ولدت فرس ويحتفلون بمقدم المهر المولود إحتفـــالا يدل على عظيم مكانتها فى قلوبهم.

ليس هذا فحسب بل فضلها بعضهم على أولاده، يجوعـــون ولا تجوع ولا بدع فهى التى تحمى الأسرة، وتجلب الرزق، وبها يدافع رب الأسرة عن عياله.(٢٥)

لهذا نجد الشعر العربى زاخرا بوصف الخيل، ومدحها، والتغنى بقوتها وسرعتها فى العدو والجرى، سواء أكان هذا الأمر أثناء الصيـــد أو فى ساحة القتال. وفى هذا الصدد يقول شاعرهم :

رمنا الصيد فرادينا بـــــــــه

أو أبد الوحش فأجرى وإكتســـب

مجزم الجرب يبـــــــارى ظله

ويعرق الاحقب فى شوط الخيب

إذا تظنينا به صدقنـــــــــــــا

وإن تظنى فوته العير كـــــذب

لا يبلغ الجهـــد به راكبـــــــــــه

ويبلغ الريح به حيث طلـــــــب (٢٦)

وكان فتيان العرب ــ كما ذكرنا ــ يؤثرون الخيل لعدة أغراض أهمها : الغنم بها إذ تستخدم فى الصيد والقنص، ومجابهة المخاطر فى الحروب والمعارك.

فهذا مالك بن حريم يذكر أن فرسه من جودتها حين تعثر إحدى قوائمها لاتكبو وإنما تعاونها الثلاث الأخرى من قوائمها فيستقيم سيرها فيقول :

إذا وقعت إحدى يديها بثبرة

تجاوب أثناء الثلاث بدعدعا

ثم مقربة أدنينها وأفتليتهـا

لتشهد غنما أو لتدفع مدفعا(٢٧)

وعندما أشرف "مالك بن الريب" على الموت وجد نفسه غريبـــا منفردا يلتمس زوجه وفيه، أو أما رؤوما، أو بنية عاطفة تبكـــى ميتـــة الفتى الشجاع، فالتفت فلم يجد حوله سوى سيفه ورمحه وفرسه، إذ ليس للفتى من إنتماء بعد وطنه وآله سوى عدة فروسيته :

تذكرت من يبكى على فلم أجـــد

سوى السيف والرمح الرذينى باكيا

وأشقر خنديذ يجر عنـــــــانه

إلى الماء فلم يترك له الدهر ساقيا(٢٨)

فى هذه الصورة الفنية البديعة يصور لنا مالك أن الذى يبكـــى عليه بعد موته سيفه ورمحه. وأن فرسه الأشقر الفخم الأصيل،قد لحقته المحنه بفقد صاحبه، فيمشى كئيبا إلى الماء، بل أنه ليجر جسده المثقـــل وأقدامه المقيدة وكأنه يمشى فى جنازة.

وأبو خراش الهزلى مع ما عرف به من سرعة العدو، حتى قيل عنه أنه أسرع من الخيل، إذ تراهن مع الوليد بن المغيرة على فرسين كان الوليد يعدهما للسباق، فسبقهما ــ أبو خراش ــ وفاز بهما(٢٩). نجده على الرغم من ذلك يصف خيلاً مغيرة، وصفا قلما يتاح لشاعر، وذلك فى قصة رجل من قومه بنى هزيل ــ قتل جاراً له من بنى تميم، فأنكر أبو خراش ذلك إنكاراً شديداً.

فصور أبو خراش فى هذا الشعر أن الغلام التميمى حين أحس الغدر والموت دعا قومه، ولكن بينه وبين قومه وديااناً وأنهاراً، ولو سمعوا دعاءه لأقبلوا إليه على خيلهم فى أقص عجلة وسرعة متصورة، يلهبون خيلهم بالسياط والركل بالاقدام. وفى هذا السياق يصف أبو خراش الخيل بوصفين يصوران أقصى ما يتاح لشاعر أن يصوره من خيل فى مثل تلك الحالة وهما : إن الناظر إلى الخيل حينئذ يراها فاغرة أفواهها، ويرى أحداق أعينها فى وضع غير عادى كأنه الحول فيقول :

دعا قومه لما إستحل حرامه

ومن دونهم عرض الاعقة فالرمل

ولو سمعوا منهم دعاء يروعهم

إذا لأتته الخيل أعينها قبل

شواحى يمريهن بالقوم والقنا

قروع السياط والأعنة والركل(٣٠)

وهكذا يتضح لنا أن ركوب الخيل يعد من أفضل وأهم خصال الفتوة بمعناها المادى، وذلك لعدة أسباب نذكر منها :

أولا: أن ركوب الخيل أصل الفتوة ــ المادية ــ وقاعدتها

ثانيا : أن ركوب الخيل يعلم الكر، والفر، والظفر بالخصم

ثالثا : ان الحاجة إلى المبارزة بالسيف، أو الرمى بالرمح والقوس يحتاجها الفتى فى ساعة، وأما ركوب الخيل فالحاجة إليه من أول ما يخرج الفتى إلى القتال إلى أن يرجع(٣١)

وإذا كانت الخيل هى المطية التى تستخدم فى ساحات المعارك والقتال بالإضافة إلى استخدامها ــ أيضا ــ فى القنص والصيد. فإن الابل هى الاداة الطبيعية للسير فى الصحراء بما هيأها الله لذلك. ولهذا كثر إستخدامها فى التنقل والترحال وسفر القوافل التجارية من بلد إلى آخر.

ولذلك وصفت الابل بالسرعة، والقوة، والصبر، فتجد، عبدة بن الطيب يصف ناقته بأن طرف خفها يترك فى الأرض أثرا كأنه الازميل يقطع الجلد وهذا دليل على القوة، والضخامة، وأنها مع سرعتها تجد لها تقدما وترجيعا كأنه الدلال، وأن الحصى يتطاير حول خفيها كأنها غربالان ينقيان الوغل الردئ. يقول :

عيهمة ينتحى فى الأرض منسمها

كما إنتحى فى أديم الصرف أزميل

تخذى به قدما طورا وترجعه

فحده من ولاف القبض مفلول

ترى الحصى مشفترا عن مناسمها

كما تجلجل بالوغل الغرابيل(٣٢)

ولأهمية الابل ومكانتها فى حياة العرب لا نستطيع أن نغفل موقف عبد المطلب جد الرسول صلى الله عليه وسلم، عندما إستولى أبرهة على مائتى بعير له، وهو فى طريقه إلى مكة عندما سولت له نفسه محاولة هدم الكعبة، فرفض عبد المطلب أن يترك الأبل فى حوزة أبرهة، وذهب إلى مقابلته لاستردادها. ولما وصل عبد المطلب إلى معسكر أبرهة، أكرمه وسأله عن حاجته. فقال : حاجتى أن ترد على مائتى بعير أصبتها لى. فقال أبرهة : أتكلمنى عن مائتى بعير أصبتها لك، وتترك بيتا هو دينك ودين أبائك، قد جئت لهدمه، لا تكلمنى فيه؟ قال له عبد المطلب : إنى أنا رب الابل، وان للبيت ربا سيمنعه ويحميه، فرد أبرهه على عبد المطلب الابل(٣٣).

وهكذا نكون قد ألقينا بصيصا من الضوء على أهمية الخيل والابل فى حياة فتيان العرب، بصفة خاصة، والمجتمع العربى بصفة عامة.

وقد رأينا مدى الأهمية والمكانة التى تحتلها هذه المطايا فى نفس العربى، إذ هى وسيلته إلى الحياة وطلب الرزق، وذلك إذا ما استخدمت فى الصيد والقنص، أو إستخدمت فى التنقل والترحال وحمل تجارة القوافل.

كذلك هى وسيلة فتيان العرب إلى المجد والبطولة، والوصول إلى مراتب السيادة والشرف فى القبيلة، إذا ما إستخدمت فى ساحات القتال ونجدة الملهوف ومعاونة المحتاج. إلا أن الخيل أو الأبل وحدها لا تكفى لخوض الحروب والمعارك، إنما لابد من السلاح الذى يستخدم فى القتال.

السلاح

إذا كان حمل السلاح شيمة العربى، يرى سلاحه جزءا منـــه لا يفارقه فى سلم أو غيره، فهو ملازم له فى كل أوقاته. فمن باب أولـــى أن يعتنى فتيانهم بحمل السلاح، الذى يعتبر عدة الغلبـــة والظفـــر بعـــد شجاعته وقوته الجسمية ومرانه على إحتمال الشدائـــد، وبعـــد جـــواده الأصيل المدرب على خوض المعارك.

ويحدثنا زهير بن جناب عن الأسلحة التى يستخدمها الفتى فى المعركة. يقول :

سيوف وارماح بأيدى اعزة

وموضونة مما أفاد محـــرق(٣٤)

وإذا كان زهير بن جناب جعل سلاحه وعـــدة الحـــرب التـــى يستخدمها تتمثل فى السيوف والرماح تقبض عليها أيد قوية لا تضعـــف ولا تلين. فإن الشنفرى قد زاد إلى ذلك القوس والسهم. إذ يقول :

وأبيض من ماء الحديد مهنـــد

مجذ لأطراف السواعد مقطـــف

وصفراء من نبع أبى ظهيـــــرة

ترن كارنان الشجى وتهتـــــــف

إذا طال فيها النزع تأبى بعجسها

وترمى بذرويها بهـــــن فتقذف

كأن حفيف النبل من فوق عجسها

عوازب نحل اخطأ الغار مطنـــف(٣٥)

وفى حديث الشنفرى عن القوس نجد معنيين سيطرا على حديثه أحدهما : اللون، فنجد أنه يصفها بصفرة اللون، وهو اللون الأصيل فى القوس والمعنى الآخر : الصوت الذى تحدثه القوس حين ينطلق عنـــها السهم، أو صوتها مع صوت السهم فى إنطلاقه وإندفاعه الشديـــد فـــى الفضاء(٣٦)

والشنفرى حينما أراد أن يصور لنا هذه الصورة شبه الصـــوت الذى تحدثه القوس بصوت النحل حين يخطئ غارة وخلاياه فتنتابه نوبة من الدوى القوى العميق.

أما صخر الغى فيرى لقوسه رنينا خاصا مغردا فى بحة ودوى كأنه صوت العدائين حين يطلبون شيئا فيتجاوب صدى تناديهم. يقول :

وسمحة من قس زارة صفراء

هتوف عدادها فـــــــرد

كأن أرناتها إذا ردمـــــت

هزم بغاة فى أثر ما فقـــدوا(٣٧)

وإذا كان السيف والقوس من عدة القتال فإن الرمح ــ أيضـــا ــ يعد من الأسلحة التى يغلب استخدامها فى الحروب، يقول تأبط شرا :

فقلدت سوار بن عمرو بن مالك

بأسمر جسر القذتين طميـــل

فخر كأن الفيل القى جرانـــــه

عليه بريان القواء أسيـــــــل(٣٨)

أى أنه القى على سوار بن عمرو، رمحا ضخما عريض النصل فأوقعه لا حراك فيه، كأن الفيل انحى عليه بعنقـــه فـــوق الأرض، وإن

هذه الأرض فقراء ملساء مخضلة بالماء، وكل هذه الصفات مما يزيـــد التصاقه بالأرض، بل غوصه فيها نتيجة قوة الضربـــة بـــهذا الرمـــح الأسمر الضخم العريض.

بالإضافة إلى إستخدام الرمح فى الحروب فإنه يستعمل أيضا فى القنص والصيد، وجدير بالذكر أن الصيد من الضروريات فـــى حيـــاة العرب لطعامهم ومعاشهم، ولذلك نجد صخر الغى يصف الرمـــح فـــى سباق صيد حمارى وحشى فيقول :

فشامت فى صد ورهما رماحا

من الخطى أشربت السمامـــا(٣٩)

وإذا كان الفتى العربى يحتاج إلى السلاح فإنه بالتالى محتـــاج إلى وسائل الحماية والوقاية فى الحرب، ويعتبر الدرع من أهـــم هـــذه الوسائل.

فاستلاموا وتلببوا

إن التلبب للمغير(٤٠)

أى أن الفتيان لبسوا اللامات وهى الدروع، وتحزموا وإســـتعدوا للإغارة على أعدائهم. والدروع تعطى الحماية والوقايـــة للفتـــى مـــن ضربات السيوف أثناء المعركة وكان فتيان العـــرب يفضلونـــها عـــن الترس، وذلك لأن الدروع تجعل الفتى أسرع حركة فى ميدان القتال.

وهكذا نجد أن العرب عامة، وفتيانهم خاصة، يعنون بالســـلاح ويحبون اقتناءه، ولا عجب فإنهم فى بيئة تقدر السلاح ومنفعته فضـــلا عن أنه عدتهم فى الحروب، فإنه جد ضرورى لهم فى الصيد.

وللصيد فى جزيرة العرب منزلته. فكثيرا ما يحتـــاجون إليــه لغذائهم، بل أن منهم من يعتمد عليه فى معيشته، يصطـــادون الظبـــاء وحمر الوحش، والوعول البرية وبقر الوحش وغيرها.

ولكن جمهرة فتيان العرب يؤثرون السيوف على مـــا ســواها، ويعدونها أفضل أسلحتهم، بل منهم من يجعل السيف هو كل ما يملك :

وكيف ينام الليل من جل مالـــــه

حسام كلون الملح أبيض صـــارم

صموت إذا عض الكريهة لا يدع

لها طمعا طوع اليمين مـــــلازم

فقدت به ألفا وسامحت دونـــــه

على النقد إذ لا تستطاع الدراهم(٤١)

وهنا نجد أن الفتى يذكر أن كل ما يملك من حطام الدنيا ما هـــو إلا سيفه الابيض الصارم، وإن هذا السيف صامتا لا يتكلـــم، وعندمـــا يخوض به الحروب والمعارك يجده طوع يمينه ملازما له. ويتفـــاخر الفتى بأنه دفع الف درهم ثمنا لهذا السيف عن سماحة نفس فـــى وقـــت قلت فيه الدراهم.

ومما يدل على محبة فتيان العرب للسيف كثرة الأسماء الدالـــة عليه حتى قاربت المائة إسم، وكانت هذه الأسماء صفـــات، والصفـــات تكثر للشئ حين تزيد العناية به، والتغنى بمحامده وآثاره(٤٢).

وإذا ما تحدثنا عن صفات السيف لوجدنا أنـــها تنحصـــر فـــى معنين: أحدهما اللون والمعنى الآخر، مدى فاعلية السيف عند الاستخدام فى الحروب والمعارك.

وفى هذا الصدد يقول الشنفرى :

وابيض من ماء الحديد مهنـــد

مجذ لأطراف السواعد مقطف(٤٣)

وفى موضع آخر يقول :

حسام كلون الملح صاف حديده

جراز من اقطار الحديد المنعت(٤٤)

وهنا يصف الشنفرى سيفه بأن لونه أبيض كلون الملح، وبأنـــه صنع من ذوب الحديد الصلب. وأن هذا السيف بتار يقطف به سواعد الأعداء إذا ما لزم الأمر عند القتال.

ولقد بالغ فتيان العرب فى إمتداح سيوفهم، فوصفوهـــا بـــالحدة، وقوة المضاء والقطع فقال النابغة :

فهم يتساقون المنية بينهـــــم

بأيديهم بيض رقاق المضارب

يطير فضاضا بينها كل قونس

ويتبعها منهم فراش الحواجب(٤٥)

فالسيوف فى حدتها وقوة ضرباتهم بها تطير العظـــام الرقيقـــة للجمجمة، وليس ذلك فحسب بل أنها تقطع الدروع المضاعفة النســـيج، لتنفذ من بدن العدو حتى تصل إلـــى الأرض فتقـــدح الشـــرور مـــن الحجارة.

ومن الغريب أن السيوف إذا لمعت وبرقت فى المعركة فإنـــها تذكرهم بابتسامة الحبيبة كما قال عنترة :

ولقد ذكرتك والرماح نواهـــــل

منى وبيض المهند تقطر من دمى

فوددت تقبيل السيوف لأنهـــــا

لمعت كبارق ثغرك المتبســـــم(٤٦)

وهكذا نكون قد إنتهينا إلى أن القوى المادية للفتوة عنـــد فتيـــان العرب، تمثلت فى الشجاعة بمعناها المادى المتمثل فى القـــوة البدنيـــة وسرعة البطش بالأعداء، وما تتطلب هذه الشجاعة من فـــرس أصيـــل مدرب على الكر والفر فى ساحات القتال، بالإضافة إلى عـــدة حربيـــة متمثلة فى سيف مهند بتار، ورمح أسمر طويل عريض النصل، وقوس بلونها الأصفر الاصيل تصدر صوتا محببا للفتى حيـــن ينطلـــق عنـــها السهم مندفعا بشدة فى الفضاء.

إلا أن الفتوة لم تقف عند حد المعنى المادى أو بالأحرى القـــوى المادية فحسب، وإنما للفتوة معنى آخر، وهو القوى المعنويـــــة للفتـــوة، الذى يتمثل فى الكرم، والنجدة، والوفاء، وإيواء الضيف.... إلى غـــير ذلك من الخصال الحميدة.

القوى المعنوية للفتوة

الكـــرم

إذا أردنا أن نعرف الكرم لأمكن القول : إن الكرم يعنى الإنفاق عن رضاء، فيما يعظم نفعه وخطره، أو بذل المال فى سبيل مـــن ســـبل الخير والبر(٤٧).

ولكن هل لنا أن نعتبر هذا التعريف للكرم جامعا شاملا ــ على حد قول المناطقة حقيقة الأمر إن هذا التعريف قد حصر الكـــرم فـــى معنى الانفاق، أو بذل المال إلا أنه قد غفل عن الدافع إلـــى الكـــرم، أو بالأحرى، لم يذكر التعريف، ما هى العوامل التى ســـاعدت علـــى أن يشتهر العرب بالكرم دون غيرهم؟ كذلك نريد أن نتسائل ما هى الغايـــة التى يسعى إليها الفتى العربى، وتجعله سخى كريم يجود بماله لمنفعـــة الآخرين؟

لا جدال على أن الكرم يعد من أبرز الصفات التى يتحلى بـــها الفتى، بل إن كثيرا ممن عرفوا الفتى عند العرب قالوا : إنـــه الشـــاب السخى الكريم، والفتوة هى الشباب والكرم(٤٨).

وإذا ما نظرنا إلى الدافع الذى دفع فتيان العـــرب إلـــى الجـــود والكرم، نجد أن هذا الدافع يتمثل فى طبيعة الحياة التى كـــان يحياهـــا العرب فى الصحراء. إذ أنهم كانوا يعيشون فى صحراء قاحلة لا زرع فيها ولا ماء ــ اللهم إلا ما ندر ــ وإزاء هذا كان العربى مضطر دوما إلى الارتحال من مكان إلى آخر بحثا عن منابع الماء ومصادر الكـــلأ، بسبب الجدب والجفاف، ليحفظوا حياتهم من الموت والهلاك، ومن هنـــا

كانت حياتهم ترحالا، وتجوالا فى هذه البادية الشحيحة المجدبة، وكـــان كل واحد منهم معرضا لأن ينفذ زاده وشرابه أثناء الترحال.

وهذا هو الذى ولد لديهم الشعور بالحاجة إلى واجب مقدس، هو واجب الضيافة والكرم، وكأن هذا الخلق شيئا عامـــا ولدتـــه الطبيعـــة. وصار الإخلال به فضيحة وعار ونوعا من الجريمة الاخلاقية، التـــى تتنافى مع الخلق العربى الأصيل(٤٩).

ويعتبر الكرم من الصفات التى ترشح صاحبها للسيادة والرئاسة وذلك لأن طبيعة الحياة فى الصحراء ــ كما ذكرنا ــ فيها قسوة بالغـــة على قاطنيها، فكثيرا ما تشح السماء، وتجدب الأرض، ويلـــوح شبـــح الفاقة والجوع فى بعض أنحاء الجزيرة العربية، فإن لم يتقدم من عنـــده فضل من غنى أو زاد لإنقاذ حياة سكان تلك البقـــاع المجدبـــة هلكـــوا جوعا. فكأن العرب بتعظيمهم الكريم وتقديمهم الاسخياء للرئاسة إنمـــا يعملون بذلك على حفظ حياتهم فى فناء محقق.

مما سبق يمكن القول إن الغاية من الكرم عند العرب إنما هـــى السيادة والرئاسة، وأن يكون الكريم محمود السيرة فى قومـــه ويذكـــر بذلك.

فقد قال عدى بن حاتم الطائى للنبى صلى الله عليه وســـلم : إن أبى كان يطعم المساكين، ويعتق الرقاب، ويصل الرحم فهل له من ذلك أجر"؟

قال رسول الله صلى الله عليه وســـلم : "أن أبـــاك رام أمـــراً فأدركه".(٥٠) [يعنى الذكر والشهرة والسيادة فى قومه].

وتأكيدا لهذه الغاية التى كان يسعى إليها كرام العرب، وفتيانهم، فقد ذكر إن أول ما ظهر من جود حاتم الطائى، أن أباه خلفه فى إبلـــه وهو غلام، فمر به جماعة فى طريقهم إلى النعمان، فقالوا لحاتم: هـــل من قرى؟ فقال :

تسألونى القرى وقد رأيتم الأبل، انزلـوا، فـنزلوا فنحـر لـهم وأطعمهم وأكرمهم وجاء أبوه فقال له : ما فعلت؟ قال : طوقتك مجـــد الدهر تطويق الحمامة،وأخبره بخبر ضيوفه وإكرامهم فقال أبوه : إذاً لا أبالى(٥١).

وهكذا يتضح لنا من هذا الموقف أن الغاية التى سعى إليها حاتم الطائي من إطعام ضيوفه، وإكرام وفادتهم، إنما مجـد أبـوه وشهرتـه ورياسته لقومه وهذا المجد يعود عليه هو الآخر، بل يعود على القبيلـة بأسرها إذ تفتخر القبائل بأن فيها فتيان كرام.

وإذا كان الكرم قد أصبح عادة تأصلت فى نفس العربى، فقد كان المحرك الأول، والدافع الأساسى لهذا الكرم، هو غريزة التغلب علـــى الحياة ومقاومة قسوتها، ومد يد العون للمحتاجين ومساعدتهم.

فها هى أم عتب بنت عفيف (أم حاتم الطائى) تمد يـــد العـون لأصحاب الحاجات فقد كانت موسرة ذات مال وثراء، لا تمسك شيئـــا، وكان أخواتها يمنعونها فتأبى فحجروا عليها سنة يطعمونها، لعلها تكف عما تصنع، ثم مكنوها من صرمة من إبلها. وقالوا : إسـتمتعى بـها. فأتتها إمرأة من هوازن فسألتها. فقالت : دونك الصرمة، فقد والله ذقت من الفقر ما أليت أن لا أمنع سائلا أبدا. وأنشدت تقول : (٥٢)

لعمرك قد ماعضنى الجوع عضة

فأليت ألا أمنع الدهر جائعـــــا

فقولا لهذا اللائمى اليوم أعفنـــــى

وإن أنت لم تفعل فعض الأصبعـــا

ثم إن الكرم دليل الحرية الخلقية، والحرية الخلقيـــة هـــى إرادة الفتى الذى يجود بماله فى سبيل إسعاد غيره من الناس، كما فعل النمر بن تولب، عندما ذهب إلى صديق له فى ناس من قومه يسألونه فى دية إحتملوها فلما رأهم قال : إن لى نفسا تـــأمرتى أن أعطيكـــم، ونفســا تأمرنى ألا أفعل فقال النمرين تولب :

أمال خليلى فأنى غير معجلـــه

حتى يؤامر نفسيه كما زعمـــا

نفس له من نفوس الناس صالحة

تعطى الجزيل ونفس ترضح الغنما

ثم قال ــ النمر ــ لأحابه ــ لا تســألوا أحــدا ، فالديـــة كلـــها على.(٥٣)

بالإضافة إلى هذا يذكر صاحب الأغانى مثلا من كرم النمر بن تولب، فيقول : خرج النمر بن تولب بعد ما كبر فى إبله، فسأله ســائل، فأعطاه فحل إبله، فلما رجعت الابل إذا فحلها ليس فيـــها، فـــهتفت بـــه إمرأته، ولا مته على ذلك فقال لها :

بكرت باللوم تلحانـــا

فى بعير ضل أو حانا

علقت لوا تكررهـــا

إن لوا ذلك أعيانـــا(٥٤)

ومن أمثلة الكرم النادرة فى الجاهلية الجود بالمال فى سبيل إنقاذ البنات من المرت. فها هو صعصعة* وكان يلقب بعصعصـــــة محـــى المؤودات.

وذلك لأنه مر برجل من قومه، وهو يحفر بئرا، وإمرأته تبكى ، فقل لها صعصعة : ما يبكيك؟ قالت : يريد أن يئد إبنتى هذه. فقال له : ما حملك على هذا؟ قال الرجل: الفقر. قال صعصعة : فأنى أشتريها منك بناقتين يتبعهما أولادهما يعيشون بألبانها، ولا تئد الصبية. قال : قد فعلت. فأعطاه صعصعة الناقتين، وجملا كان تحته فحلا، وقـــال فـــى نفسه : إن هذا لمكرمة ما سبقنى إليها أحد من العرب، فجعل على نفسه ألا يسمع بمؤودة إلا فداها(٥).

وقد فخر بذلك الفرزدق فى عدة قصائد منـــش عـــره، ومنـــها قصيدته التى أولها :

أبى أحد الغيثين صعصعة الـــذى

متى تخلف الجوزاء والدلو يمطر

أجار بنات الوائدتين ومن يجـــر

على الفقر يعلم أنه غير مخفـــر(٥٦)

وفى هذه الأبيات إشارة بكرم صعصعة، فيذكـــــر الفـــرزدق أن هناك غيثا فى السماء، وغيثا فى الأرض، فغيث السماء مطر، وغيـــث الأرض جده ــ أبوه ــ "صعصعة"، وأن جده خـــير الغيثيـــن، فأنـــه لا يخلف إذا خلفت بروج السماء، وأنه غير ناقض للعهد كريم اليد يفتـــدى بماله ــ على الرغم من قلته ــ المؤودات.

وهكذا نجد أن الكرم عند فتيان العرب لم يكن سفها، أو إسرافا، أو تبذيرا وإنما هو البذل والعطاء والجود فى الوقت الملائم، للشخص المحتاج إليه، فى الظرف المناسب(٥٧) بل يمكن القول أنه ليس المال فى ذاته غرضا يهدفون إليه إذا لم يعين صاحبه على الكرم، وإغاثة الملهوف، ومساعدة المحتاج وكسب الحمد والثناء، وإتقاء المذمه، وحماية للفتى من أن يصفه الناس بالبخل والشح. وفى هذا الصدد يقول زهير بن السكب مشيدا بالفتيان الكرام :

ونعم الحماة الكفاة العظيم

إذا غائظ الأمر لم يحلل

هم سبقوا يوم جرى الكرام

ذوى السبق فى الزمن الأول

وساقوا إلى المجد أهل الفعال

فطالوا بفعلهم الا طول(٥٨)

وبلغ من شده كرم فتيان العرب، ان بعضهم كان ينصب الجفان الواسعة فى عرض الطريق، ويملؤها طعاما طيبا ليأكل منها الناس، وكان عبد الله بن جدعان التيمى يفعل ذلك. وكان لعبد الله جفنة واسعة يأكل منها القائم والراكب لعظمها، بل كانت جفنته يأكل منها الراكب على البعير، وسقط فيها يوما صبى فغرق ومات.(٥٩)

ومما لا ريب فيه أنه يطول بنا المقام إذا ما أردنا الاستشهاد بكل الأمثلة الدالة على الكرم عند العرب ذلك لأن كتب الأدب زاخرة بالأخبار والأشعار التى تدل على الكرم والعطاء، رغم الحاجة الشديدة. فقصة حاتم الطائى وذبح فرسه رغم حاجته، وحاجة أولاده الجياع.

وكذلك موقف الحطيئة ـ وهو ما هو من الجفوة والقسوة ـ حينما هـم بذبح إبنه إكراما لضيوفه، وإمتثال الابن بل والاشارة على أبيه بذلك.

وعروة بن الورد الذى كان يضرب به المثل فى الجود والكـرم بكل ما عنده حتى أنه يفرق طعامه على الأخرين ويكتفى هو بالماء، كل هذا يدل على كرم العرب وفتوتهم.

ذلك الكرم الذى يعد بمثابة قانون فرضته عليهم طبيعة الصحراء القاسية المجدبة ولكنه أصبح فضيلة من الفضائل السامية التـى تصـل بأصحابها إلى الفتوة الكاملة. ولم لا وهذا الكرم ليس سفها أو إسرافا أو تبذيرا، وإنما هو بذل وعطاء فى الوقت الملائم، للشخص المحتاج إليه.

وقد كان هؤلاء المحتاجون يسجلون هـذا الكـرم الـذى يخلـد أصحابه ويرفعهم إلى مرتبة السيادة والرئاسة، ويعلى منزلتهم. كذلك لم يسلم البخيل من المذمة، لأنه خرج على القانون الفطـرى الـذى فيـه نجاتهم وحياتهم من قسوة الحياة، فإذا شح الأغنياء فمن يكون للفقراء من الأرامل واليتامى والمساكين الذين عضهم الدهر بأنيابه؟!

النجدة

إذا كان الكرم يعد سمة أساسية من سمات الفتوة عند العـرب، وهذا الكرم قد فرضته الحياة فـى الصحـراء بقسـوتها، ووحشتـها، وجدبها.

فإنه مما لا ريب فيه هناك سمات أخرى، وخصال حميدة تحلى بها فتيان العرب إلى جانب الكرم، أهمها النجدة، التى تتمثل فى إغاثـة الملهوف، وبذل العون، وحماية الضعيف وتلبية دعوة المكروبين. وإذا

بحثنا عن الدافع أو المحرك وراء هذه السمات أو الفضـــائل. لأمكـــن القول : أن غريزة للبقاء، ومقاومة قسوة الحياة الصحراويـــة بجدبـــها، ووحشتها هى العامل الأول والمحرك الأساسى وراء هذه الففضائل.

فالنجدة فضيلة تتطلب من الفتى أن يتصف بخصال أو صفـــات أخرى حميدة من صفات الفتوة الأخرى، كالشجاعة، والكرم، والوفاء.... والنجدة سمة ترقى بالإنسان إلى أعلى مراتب الإنسانية الحقة، والفتـــوة الكاملة.

ذلك لأن من يتعرض لنصرة المظلوم وإنصافه ضـــد الظـــالم، وإغاثة الملهوف والمكروب، والانتقام من القوى للضعيف، ومـــد يـــد المساعدة للحق المفترى عليه: ينصب نفسه، بطلا أو بالأحرى ترفعـــه نجدته ــ للغير ــ إلى منزلة البطولة وتجعله بطلا من أبطال الخير ضد الشر، وفى هذا كرم وسخاء دونه كل كرم، وكل سخاء ونكران للـــذات دونه كل نكران(٦٠)

وكثيرا ما شبت الحروب والمعارك بين القبائل لأن جار القبيلـــة قد أهين أو أعتدى عليه، وخير مثال أمامنا فى هـــذا الصـــدد، حـــرب البسوس.

فقد كان لجساس بن مرة بن ذهل، خالة من بنى ســـعد تســـمى البسوس جاورت بنى مرة، فنزلت على إبن أختها جساس، فصارت فى جواره وحمايته ومعها إبن لها، ولها ناقة. فدخلت الناقة ترعى مع إبل كليب الوائلى، الذى بغى وطغى وتجبر، وقد بلغ من سطوته وجبروتـــه ألا يجبـــر أحد من بكر وتغلب إلا بأذنه فلما رأى كليب الناقـــة وســـط إبلـــه، أنكرها، فسأل عنها فأخبروه بأنها للبسوس جارة جســـاس فقـــال

كليب : أوقد بلغ من أمر إبن السعدية أن يجبر على بغير إذنـــى وأمـــر بقتل الناقة.

فلما نظرت إليها البسوس ووجدتها قد قتلت صرخت ويدها على رأسها وهى تصيح"واذلاه". فلما سمع جساس الخبر ثار وغضـــب لأن جارته وخالته اذلت، وقتل كليبا وكان هذا الأمر سببا فى حرب طاحنـــة ظلت مشتعلة أمدا طويلا، وقتل فيها خلق كثير(٦١).

وقد أعز العرب حلفاءهم والداخلين فى جوارهم، وكـــان حلـــف الفضول أكرم حلف وأشرفه فى العرب، وإن أول من تكلم به ودعا إليه "الزبير بن عبد المطلب "وكان سبب هذا الحلف أن رجلا من زبيد قـــدم مكة ببضاعة، فاشتراها منه، "العاصى بن وائل"، وكان ذا قـــدر بمكـــة وشرف، فحبس عنه حقه فأستعدى عليه الزبيرى القبائل : عبد الـــدار، ومخزوما، وعدى بن كعب.... فأبوا أن يعينوه على العاصى بن وائـــل، وإنتهروه، فلما رأى الزبيرى الشر قد أحاط به، صعد على جبل "ابـــى قبيس" وقريش فى انديتهم حول الكعبة، فصاح بأعلى صوته:

يا آل فهر لمظلوم بضاعتـــــه

ببطن مكة نائى الدار والنفـــــر

ومحرم أشعث لم يقضى عمرته

ياللرجل وبين الحجر والحجـــر

إن الحرام لمن تمت كرامتـــــه

ولا حرام لثوب الفاجر الغـــــدر

فقام فى ذلك الزبير بن عبد المطلب، ودعا القبائل من قريش إلى حلف فأجتمعوا له فى دار عبد الله بن جدعان، فتعاقدوا وتعاهدوا، على

أن لا يجدوا بمكة مظلوما من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه، وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته، ثم مشـــوا إلى العاصى بن وائل، فأنتزعوا منه سلعة الزبيرى فدفعوها إليه.(٦٢)

وروى عن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أنه قال : "لقد شهدت فى دار ــ عبد الله بن جدعان حلفا لو دعيت فى الاسلام لأجبت، تحالفوا أن ترد الفضول على أهلها"(٦٣).

بالإضافة إلى ما سبق فقد بلغ من منزلة الجار الحليـــف لـــدى بعض القبائل أنه كان يعد من الأهل، وكانوا يذهبون بالجوار إلى ما بعد الموت. كما فعل عامر بن الطفيل مع الأعشى حين إستجار به، فقـــال له : أتجيرنى من الأنس والجن؟ قال : إن مت وأنت فى جوارى بعثت إلى أهلك الدية. قال : الآن علمت أنك قد أجرتنى من الموت(٦٤).

ومن مظاهر النجدة، وحماية الضعيف، وتلبية المكروبيـــن دون تردد أو سؤال، فكانوا إذا سمعوا الاستغاثة نهضوا للنجدة لساعتهم.

وما استحق عنترة هذه المكانة المرموقة التى وصل إليـــها، إلا بهذه الفضيلة "النجدة" فهو يلبى دعوة من يناديه فى الحـــرب، ويجيـــب صرخة المستغيث ويدفع عنه الأعداء برمحه الأسمر الطويل، وســـيفه الأبيض البتار.

ومكروب كشفت الكرب عنه

بضربه فيصل لما دعانـــى

فكأن إجابتى إياه أنـــــى

عطفت عليه خوار العنـــان

بأسمر من رماح الخطـر لان

وابيض صارم ذكر يمـــــان(٦٥)

ومن حماية الضعيف، فك العانى، الذى آسر فى الحرب، وقد يكون ذلك عن طريق المغامرة فى سبيل إنقاذه عنوة، أو عن طريق الفداء. فها هو أبو خراش الهزلى يترك إبنه رهينة فى سبيل إنقاذ أخاه عروة من الأسر.

فقد روى صاحب الأغانى أن عروة بن مرة، أخا أبى خراش وقع فى الأسر فلما دخلت الأشهر الحرم، مضى أبو خراش إلى القبيلة التى أسرت عروة، ومعه إبنه خراش، فنزل بسيد من ساداتهم، ولم يعرفه نفسه، ولكنه استضافه فأنزله وأحسن ضيافته وإكرامه.

فلما إطمئن إليه وأنس به، أخبره خبر أخيه، وسأله معاونته حتى يشتريه منهم، فوعده بذلك، وذهب إلى القوم مع ذلك السيد الكريم فسألهم فى الأسير فقال لهم : أشترية منكم. فقالوا : أما هذا فنعم. فلم يزل يساومهم حتى رضوا بما بذله لهم، فدفع أبو خراش إليهم إبنه خراشا رهينة وأطلق أخاه عروة ومضيا، حتى أخذا أبو خراش فكاك أخيه، وعاد به إلى القوم حتى أعطاهم إياه وأخذ ابنه(٦٦).

ومن مظاهر النجدة وحماية الضعيف، الدفاع عن المرأة، وهذا أول شروط الرجولة الحقة والفتوة التامة والدفاع عن المرأة ــ فضلا عن أنه دفاع عن مخلوق ضعيف ــ دفاع عن العرض والشرف، وهو أعظم ما يهتم به العربى.

إذ يروى أن من الأسباب التى أدت إلى حرب الفجار، أن شبابا من قريش وبنى كنانه، كانوا ذوى غرام، فرأوا إمرأة من بنى عامر، وهى جالسة بسوق عكاظ عليها برقع لها، وقد إلتف حولها شباب من العرب وهى تحدثهم فجاء الشباب من قريش وبنى كنانه، فأطافوا بها

وسألوها أن تسفر عن وجهها فأبت، فقام أحدهم، فجلس خلفـــها، وحـــل طرف ردائها وشده إلى فوق وهى لا تعلم... فلما قامت ســـــقط عنـــها ردائها، فضحكوا وسخروا منها... فنادت : يا آل عامر فثاروا وحملوا السلاح، وحملته كنانة، وإقتتلوا قتالا شديدا، ووقعت بينهم دماء، فتواسط حرب بن أمية وإحتمل دماء القوم، وأرض بنى عامر نتيجة لما حـــدث لصاحبتهم من سخرية وإستهزاء بها(٦٧)

وجدير بالذكر فى هذا الصدد أن الـــــذى يدافـــع عـــن النســـاء والأعراض يسمى"حامى الذمار" وحماية الذمار خير ما يفخر به الفتـــى العربى ليصون عرضه ويحمى عقيلته(٦٨) إلا أن الحمايـــــة الحقيقيـــة للمرأة، إنما تنبع من عفتها ومنعتها وفى هذا الصدد يقول علقمـــــة بـــن عبدة بن النعمان، يصور هذه الخصال العظيمة :

ممنعة ما يستطاع كلامهـــــــا

على بابها من أن تزار رقيـــب

إذا غاب عنها البعل لم تفش ســـره

وترض إياب البعل حين يئـــــوب(٦٩)

فهى إمرأة ممنعة عفيفة لا سبيل حتى إلى محادثتها، وليـــس ذلـــك لأن على بـــابها رقيب وإنما لأن العفة طبيعة فيها، وهـــى أيضـــا كريمـــة أصيلة لا تبوح بسر زوجها الغائب.

ولم تكن هذه أخلاق النساء دون الرجال، وإنما كـــان الرجـــال كذلـــك، صحيح أن العرب لم يكونوا كلهم على هذا النمـــــط، وإنمـــا الغالبيـــة العظمى أو بالأحرى الطبيعة العربية فى فتوتها كـــانت هكـــذا تتحلـــى بالطهر والنقاء وما عداها فشاذ.

وفى هذا الصدد يقول حاتم الطائى مفتخرا بعفته وإحترامـــه لحرمـــات جاره :

وما ضر جارا يا إبنة القوم قاعلمى

يجاورنى ألا يكون له ستـــــــــر

بعينى عن جارات قومى غفلـــــة

وفى السمع منى عن حديثهم وقـــر(٧٠)

وهى هذا المعنى يقول عنترة :

وأغض طرفى إن بدت لى جارتى

حتى يوارى جارتى مـــــأواها

وهكذا نجد أن العفة أكبر دليل على ما تتمتع به نفوس هـــؤلاء الفتيان من مناعة طبيعية، وقهر للنفس، وإخضـــاع الغرائـــز لحكمـــة العقل، وفى ذلك فتوة ما بعدها فتوة، لأن ذلك يتطلب من الفتى شجاعة، وصلابة وقوة إرادة، وتضحية بنزوات، ورغبات فيها لـــذات عاجلـــة وسمو بهذه الغرائز إلى المجد والسؤدد والشرف.

ويبقى أمامنا أن نذكر إن النجدة وحدها على الرغم من كونـــها صفة طيبة، وخصلة حميدة، يتحلى بها فتيان العرب إلا أنه لابـــد مـــن إكتمالها وذلك بالالتزام بالوعد والوفاء بالعهد.

الوفاء بالوعد

إذا كان الكرم والنجدة وإغاثة الملهوف، وتلبية نداء المحتـــاج... كل هذه وغيرها تعد من الصفات الحميدة للفتيان، فإنه من أجمـــل مـــا يتحلى به الفتى العربى من صفات الوفاء بالوعد ذلك لأن الوفاء بالوعد

ليس قائما بذاته إنما هو يتصل إتصالا وثيقا بصفات عديدة أخرى مثـــل الكرم، والشجاعة، والنجدة.... إلى غير ذلك مما سبق لنا أن أوضحناه من سمات الفتيان.

وكثيرا ما يكون فى الوفاء بالوعد ما يناقض مصلحـــــة المـــرء الخاصة، أو منفعته الشخصية، فليس من الفضيلة أن يفى المرء بشـــــئ فيـــه منفعة له، وفى إنجازه فائدة تعود عليه، بـــل أن الوفـــاء بـــالوعد يتطلب عـــادة أن يضحى المرء بوجهة نظره الخاصـــة، أو بمصلحتـــه الذاتية، فى سبيل ما سواه، بل قد يكلفه الوفاء بالوعد حياته نفسها.

ومن أغرب ما روى عن الإلتزام بكلمة الشرف، إلى حد يفـوق الوفاء بالوعد تلك القصة التى رويت عن المنذر بن ماء السماء" حينمـــا مر به رجل من طئ يسمى "حنظلة" يوم بؤسه فأراد قتلـــه، فاســـتشفعه الرجل أن يطلق سراحه فقال له : لابد من ذلك ــ أى القتل ــ فاســـأل حاجة اقضيها لك.

فقال : تؤجلنى سنة أرجع فيها إلى أهلى، وأحكم من أمرهم مـــا أريد، ثم أصير إليك، فأنفذ فى حكمك.

فقال المنذر : ومن يكفل بك حتى تعود؟ فنظر الرجل فى وجوه جلسائه فعرف منهم شريك بن عمرو، فأنشد يقول :

يا شريك يا بن عمـــرو

ما من الموت محالـــه

يا شريك يا بن عمـــرو

يا أخا من لا أخا لـــــه

يا أخا شيبان فك اليـــوم

رهنا قد أتى لـــــــه(٧١)

فوثب شريك بن عمرو وقال : أبيت اللعن،يدى بيده ودمى بدمه، إن لم يعد إلى أجله. : طلقه المنذر.... فلما كان من العام التالى جلـــس فى مجلسه يوم بؤسه ينتظر مجئ حنظلة، فأبطى عليه، فأمر بشريـــك بن عمرو فقرب ليقتله.

فلم يشعر إلا براكب قد طلع عليهم، فتأملوه، فإذا هو حنظلة، قد وفى بوعده وحضر إليهم، فلما رأه المنذر تعجب من وفائهما وكرمهما فأطلقهما وأبطل تلك العادة السيئة(٧٢)

وفى هذه القصة نتساءل من أكثر وفاء وإلتزاما بالوعد، هل هو شريك بن عمرو أم حنظلة الطائى؟

لا جدال أننا لا نستطيع أن نفاضل بينهما، إذ مـــن يســتطيع أن يتحمل دم شخص آخر ويطلق سراحه، وهو يعلم علم اليقين، أنه إذا لم يرجع سيلقى حتفه ويقتل بدلا منه.

ومن بعد أن يطلق سراحه، ويصبح حرا بعيـــدا عـــن الخطـــر والهلاك، يلتزم بوعده الذى قطعه على نفسه، ويوفى بوعـــده، ويعـــود ليقدم نفسه للقتل حتى لا يعرض من كفله للموت والهلاك.

إلا أننا نستخلص من هذه القصة درس مـــن الوفـــاء، وكلمـــة الشرف يجب علينا أن نلزم به أنفسنا فى زمان يتنصل فيه المرء مـــن ذويه، ولا يلتزم إلا بما يعود عليه بالمنفعة الشخصية والمصلحة الذاتية.

وإذا أعطى المرء وعدا، وكان رجلا جزلا كامل الرجولة، كما كان فتيان العرب فليس له أن يرجع فيه، أو يحيد عنه، أو يناقشه مـــرة أخرى، بل إن صح القول قانون الفتوة يحكـــم عليـــه أن يمضـــى فـــى إنجازه، ولو ناقض فائدته وعاد عليه بالضر(٧٣) كما هو الأمـــر فـــى

موقف عبد الله بن جدعان من أسلحة هوازن. والقصة كمـــا يرويـــها صاحب الأغانى تقول :

كانت العرب إذا قدمت عكاظ دفعت أسلحتها إلى ابن جدعـــان، حتى يفرغوا من سوقهم وحجهم، ثم يرد عليهم بعد ذلك. فجاء القـــوم وأخبروه خبر البراضى وقتله عروة الرجال الكلبى وأخبروا حرب بـــن أمية ــ إذ أن البراضى كان حليفا لحرب بن أمية وفى جواره ــ فذهب حرب إلى عبد الله بن جدعان وقال له :

إحتبس قبلك سلاح هوازن. فقال له إبن جدعان : أبـــا لغـــدر تأمرنى يا حرب؟ والله لو أعلم أنه لا يبقى منها سيف إلا ضربت بـــه ولا رمح إلا طعنت به ما أمسكت منها شيئا، ولكـــن لكـــم مائـــه درع، ومائة رمح، ومائة سيف فى مالى تستعينون بها، ثم نادى ابن جدعـــان فى الناس : من كان له قبلى سلاح فليـــأت، وليـــأخذه، فـــأخذ النـــاس أسلحتهم(٧٤).

وإذا كان هذا موقف إبن جدعان يأبى الغـــدر ويلـــتزم بـــالوعد ويوفى بالعهد، فأنه قد بلغ من كراهية العرب لهؤلاء الذيـــن يغـــدرون، وينتقضون المواثيق، ويوفون بالعهود أن يشهروا بهم. يقول الشاعر :

غدرت بأمر أنت كنت إجتذبتنـــا

عليه وشر الشيمة الغدر بالعهـــد

فقد يترك الغدر الفتى وطعامـــه

إذا هو أمسى حلبه من دم الغصـــر(٧٥)

وأحيانا تبلغ كلمة الشرف، والوعد الصادق الذى يلزم به المرء نفسه إلى ذروة الوفاء، مثلما حدث مع السموأل بن عريض بن عاديـــا،

الذى يضرب به المثل فى الوفاء وأمرئ القيس الكندى، الذى استودعه دروعا له ثم مات، فأراد ملك كنده أن سيتولى على هذه الأدرع ــ فأبى السموأل أن يسلمها إلا إلى ورثة أمرئ القيس، فغزاه الملك وحـــاصره فتحصن منه السموأل ولكن الملك استطاع أن يأسر إبن الســـموأل، ثـــم طلب الملك السموأل فأشرف عليه من الحصن. ثم قـــال للســـموأل : أتعرف هذا؟ قال : تعم، هذا إبنى. قال : أفتسلم ما قبلك أم أقتله؟ قال : شأنك به، فلست أخفر ذمتى ولا أسلم مال جارى، فضرب الملك وســـط الغلام، فقتله وإنصرف عنه، فقال السموأل فى ذلك :

وفيت بأدرع الكندى إنـــى

إذا ما ذم أقوام وفيـــــت

وأوصى عاديا يومـــــا بألا

تهدم يا سموأل ما بنـــيت

بنى لى عاديا حصنا حصينا

وماء كلما شئت استقـــــيت(٧٦)

وهكذا نصل إلى أن الفتوة قبل الإســـلام تمثلـــت فيـــها بعـــض الصفات الحميدة كالكرم والنجدة، والوفاء بالوعد... وســـائر الخصـــال الطيبة التى تعكس الرجولة العربية.

هذه الخصال أو الصفات التى كان مصدرها غريـــزة البقـــاء، ومقاومة قسوة الحياة الصحراوية بوحشتها وجدبها، فالعرب يعيشون فى صحراء قاحلة يندر فيها الزرع والماء وكل منهم معرض للـــهلاك إذا هو ضل الطريق فى سفر أو ترحال لذلك كان لابد من توافر مثل هـــذه الخصال.

وكان العرب يهدفون من وراء فتوتهم إلى أهواء ذاتية ومصالح شخصية كالسيادة والرياسة فى القبيلة، وقد تمتد هذه الغاية لتشمل القبيلة كلها إذ كثيرا ما يعود تصرف الفتى بالفخر والسيادة للقبيلة نفسها علـــى سائر القبائل.

هذا بالإضافة إلى أن الفتوة قبل الإسلام إلى جانب هذه الخصال الحميدة قد إحتوت على الكثير من الخصال الغير محمودة والتى ألغاها الإلام كشرب الخمر، وعقد مجالس اللهو والغناء.

ولهذا يجدر بنا أن نلقى نظرة على الفتوة فى الإسلام لنرى كيف هذب الإسلام هذه الفتوة الجاهلية وصبها فى قالب جديـــد يقـــوم علـــى الإيمان ومكارم الأخلاق، والإعراض عن اللهو والمجون والإقبال على الطاعة والزهد والإخلاص.

هوامش
الفصل الأول

(١) عمر الدسوقى : الفتوة عند العرب ص١٤،١٥

(٢) عمر الدسوقى : الفتوة عند العرب ص٦٣، ٦٤

(٣) المرجع السابق : ص١١٦

(٤) الاصفهانى : الأغانى جـ ٢٢ ص١١٩

(٥) أحمد أمين : الصعلكة والفتوة فى الإسلام ص١٤

(٦) القاموس المحيط (مادة صعلك).

(٧) د. عبد الحليم حنفى : شعر الصعاليك ص١٨

(٨) أحمد أمين : الصعلكة والفتوة فى الإسلام ص١٩

(٩) أبى تمام : ديوان الحماسة جـ٢ ص٩٣

(١٠) د. عبد الحليم حنفى : شعر الصعاليك ص١١٥

(١١) د. عبد الحليم حنفى : شعر الصعاليك ص١١٥، ١١٦

(١٢) الأصفهانى : الأغانى جـ ٢٢ ص٣٤٩

(١٣) د. عبد الحليم حنفى : شعر الصعاليك ص٢٧٦

(١٤) الأصفهانى : الأغانى جـ١٤ ص١٥٤

(١٥) ابن القيم الجوزية : الفروسية ص١٧٥ دار التراث العربى

(١٦) عمر الدسوقى : الفتوة عند العرب ص٢٩ دار نهضة مصر ٦٦

(١٧) د. عبد الحليم حنفى : شعر الصعاليك ص٢٦٧ الهيئة ١٩٨٧

(١٨) الاصفهانى : الأغانى جـ ١٤ ص١٤٤

(١٩) د. عبد الحليم حنفى : شعر الصعاليك ص٢٧٥ الهيئة ١٩٨٧

(٢٠) ابن القيم : الفروسية ص١٧٧، ١٧٨ دار التراث العربى

(٢١) ابن خلدون : المقدمة ص١١١ دار التحرير ١٩٦٦

(٢٢) المرجع السابق : ص١١٢

(٢٣) عمر الدسوقى : الفتوة عند العرب ص٣٦ دار النهضة ١٩٦٦

(٢٤) د. عبد الحليم حنفى : شعر الصعاليك ص٢٤٨ الهيئة ١٩٨٧

(٢٥) عمر الدسوقى : الفتوة عند العرب ص٤١ دار النهضة ٦٦

(٢٦) الاصفهانى : الأغانى جـ٢٠ ص١٧

(٢٧) د. عبد الحليم حنفى : شعر الصعاليك ص٢٥١ الهيئة سنة ١٩٨٧

(٢٨) مجلة كلية الأداب : ص٢٩ المجلد الخامس والثلاثون ١٩٨٧

(٢٩) الاصفهانى : الأغانى جـ ٢١ ص ٢٠٨

(٣٠) د. عبد الحليم حنفى : شعر الصعاليك ص٢٥٢ الهيئة ١٩٨٧

(٣١) ابن القيم : الفروسية ص١٧ دار التراث العربى

(٣٢) د. عبد الحليم حنفى : شعر الصعاليك ص٢٥٦ الهيئة ١٩٨٧

(٣٣) ابن هشام : السيرة النبوية جـ ١ ص٤٤

(٣٤) الاصفهانى : الأغانى جـ ١٩ ص٢٦

(٣٥) الاصفهانى : الأغانى جـ ٢١ ص١٩٠

(٣٦) د. عبد الحليم حنفى : شعر الصعاليك ص٢٢٦

(٣٧) الاصفهانى : الأغانى جـ ٢٢ ص٣٤٥

(٣٨) الاصفهانى : الاغانى جـ ٢١ ص١٥٤

(٣٩) د. عبد الحليم حنفى : شعر الصعاليك ص٢٢٨

(٤٠) الاصفهانى : الأغانى جـ ٢١ ص٦

(٤١) الاصفهانى : الاغانى جـ ٢١ ص١٧٥، ١٧٦

(٤٢) عمر الدسوقى : الفتوة عند العرب ص٥٠

(٤٣) الاصفهانى : الأغانى جـ ٢١ ص١٩٠

(٤٤) المرجع السابق ص١٨٨

(٤٥) عمر الدسوقى : الفتوة عند العرب ص٥٠

(٤٦) المرجع السابق ص٤٩

(٤٧) د. أحمد محمد الحوفى : من أخلاق النبى ص٩٥

(٤٨) عمر الدسوقى : الفتوة عند العرب ص٥٩

(٤٩) د. محمد محمد الكومى : المروءة فى الشعر الجاهلى ص٩٥

(٥٠) جمال الدين محمد بن نباته المصرى : سرح العيون شرح رسالة ابن زيدون ص٧٣

(٥١) المرجع السابق ص٧٣، ٧٤

(٥٢) ابن نباته المصرى : سرح العيون شرح رساله ابن زيدون ص٧٥

(٥٣) الأصفهانى : الأغانى ج، ٢٢ ص٢٨١، ٢٢٨

(٥٤) المرجع السابق ص٢٧٥

(٥٥) الأصفهانى : الأغانى جـ ٢١ ص٢٧٦، ٢٧٧

(٥٦) المرجع السابق ص٢٧٨

(٥٧) عمر الدسوقى : الفتوة عند العرب ص٦٢

(٥٨) الاصفهانى : الأغانى جـ ٢٢ ص٢٧١

(٥٩) الألوسى : بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب جـ١ ص٨٩ تحقيق محمد بهجت الأثيرى مطبعة مصر ١٣٤٢هـ

(٦٠) عمر الدسوقى : الفتوة عند العرب ص١٢٠، ١٢١

(٦١) ابن نباته المصرى : سرح العيون شرح رسالة ابن خلدون ص٥٩، ٦٠ الطبعة الرابعة سنة ١٣٢١هـ.

(٦٢) ابن هشام السيرة النبوية جـ ١ ص١٢٢، ١٢٣ مكتبة الكليات الأزهرية ١٩٧٤.

(٦٣) المرجع السابق ص١٢٢

(٦٤) عمر الدسوقى : الفتوة عند العرب ص١٢٤

(٦٥) محمد سيد كيلانى : مختار الشعر الجاهلى ص٤٠ مطبعة الباب الحلبى بمصر سنة ١٩٥٩

(٦٦) الاصفهانى : الأغانى جـ ٢١ ص٢١٢

(٦٧) الاصفهانى : الأغانى ص٢٢ ص٥٥، ٥٦

(٦٨) عمر الدسوقى : الفتوة عند العرب ص١٢٩

(٦٩) د. محمد محمد الكومى : المروءة فى الشعر الجاهلى ص١٢٨ طبعة ٨٣

(٧٠) عمر الدسوقى : الفتوة عند العرب ص١٣٠ دار النهضة ١٩٦٦

(٧١) الاصفهانى : الاغانى جـ ٢٢ ص٨٩، ٩٠

(٧٢) الاصفهانى : الأغانى جـ ٢٢ ص٩٠

(٧٣) عمر الدسوقى : الفتوة عند العرب ص١١٥ ـ دار النهضة ١٩٦٦

(٧٤) الاصفهانى : الأغانى جـ ٢٢ ص٥٩، ٦٠

(٧٥) المرجع السابق ص١٩٠

(٧٦) المرجع السابق ص١١٩

الفصل الثانى
الفتوة فى الإسلام

الفتوة فى كتاب الله

إذا ما تأملنا كتاب الله عز وجل، نجد أن لفظ الفتوة قد ورد فـــى أكثر من موضع كما أنه جاء وصفاً لبعض أنبياء الله. قـــال تعـــالى : "قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم"(١).

أى، قال الذين سمعوا إبراهيم ـــ عليه السلام ـــ يعيب الأصنـــام وعبادتها، ويدعو إلى الله الواحد الأحد : إنا سمعنا فتـــى يذكـــر ألـــهتنا بسوء، وإسم هذا الفتى إبراهيم، فلم يذكر أحد ألهتنا بسوء غـــيره، ولـــم يستهزئ بها وينكر الوهيتها سواه، فيغلب على ظننا أن يكون هو الـــذى فعل بها ما نرى من تحطيم وتكسير(٢).

وفى هذه الأية الكريمة نجد أن الحق تبارك وتعالى أطلق علـــى ألسنة عبدة الأصنام، فتوة إبراهيم، وتتجلى هذه الفتوة فى أن إبراهيم ـــ عليه السلام ـــ قام فى الله حق القيام، وأنه باع نفسه فى حـــق أحديـــة خالقة، لا فى حق خالقه لأن الشريك ما ينفى وجود الخالق، وإنما يتوجه إلى نفى الأحدية.(٣)

وإذا قلنا أن إيواء الضيف وإكرامه من سمات الفتوة، فقد كـــان خليل الله كريماً مضيافاً لا يتغدى ولا يتعش إلا مع ضيف، وربما مشى ميلين أو أكثر حتى يجد ضيفاً. وقد شهد له الحق تعالى بهذه الصفة ـــ الكرم ـــ فى قوله تعالى : "هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين، إذ

دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال سلام قوم منكرون، فراغ إلى أهله فجـــاء بعجل سمين".(٤)

ومعنى قوله : المكرمين، قيل لقيام إبراهيم ــ عليه الســـلام ــ بخدمتهم. وقيل : إكرام الضيف بطلاقة الوجه، والإستبشار بوفودهـــم. وقيل : لم ابراهيم لهم، وما إعتذر إليهم ــ وهذا هو إكرام الضيـــف ــ حتى لا تكون من المضيف عليه منة فيحتاج الضيـــف إلـــى تحملـــها. ويقال : سماهم المكرمين لأن غير المدعو عند الكرام كريـــم. ويقـــال ضيف الكرام لا يكون إلا كريماً.

ويقال : المكرمين عند الله.(٥)

ومعنى قوله : فراغ، كذلك يكون روغان الكرام، خفية حتـــى لا يسبب لأيافه الحرج(٦).

كذلك كان إبراهيم ــ عليه السلام ــ معلماً للخير، وكان جمـــاع خير أمة بأكملها فى العبادة، والفضائل، والآداب، قانتاً لله حنيفاً. وكان عليه السلام ــ عطوفاً رؤوفاً باراً بوالده مع قسوته عليه. وقد شهد له الحق تعالى بالوفاء : فقال تعالى :"وإبراهيم الذى وفى"(٧)

وإذا قلنا أن إمتلاك النفس عند الغضب والسيطرة عليها وكبـــح جماحها، تعد من صفات الفتى، فقد تحلى إبراهيم ــ عليـــه الســـلام ــ بذلك بالإضافة إلى خصال أخرى حميدة كانت هى الأساس الذى إستقى منه الفتيان فتوتهم، منها : البكاء وكثرة التأوه عند ذكر الذنوب، والإقبال على الله بقلبه وكل جوارحه حتى يكون دوما فى طاعته سبحانه. وفى هذا المعنى يقول عز وجل : "إن إبراهيم لحليم أواه منيب".(٨)

وتتجلى فتوة إبراهيم ــ عليه السلام ــ فى إمتثاله لأوامـــر الله عز وجل وتبليغ رسالته، وتحمل الأهوال والصعاب فى ســبيل إعــلاء كلمة الله. إلى الحد الذى دفع أعداء الله إلى أن يقذفوه فى النار، ولـــم يحاول إبراهيم أن يهرب من أعداء الله، واثقاً أن الحق تبارك وتعـــالى الذى بعثه برسالته لن يخذله فكانت النار برداً وسلامــاً عليـــه. قــال تعالى : "قلنا يا نار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم"(٩).

وإذا ما إنتقلنا إلى موضع آخر من كتاب الله ذكر فيه لفظ الفتى نجد ذلك فى قوله تعالى :"وقال نسوة فى المدينة إمرأة العزيــز تــراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا إنا لنراها فى ضلال مبين"(١٠)

وتتضح فتوة يوسف ــ عليه السلام ــ فى أنه أثر لحوق المشقة فى الله تعالى على لذة نفسه، وذلك مصداقاً لقول الحق سبحانه وتعالى :

"قال رب السجن أحب إلىّ مما يدعوننى إليه، وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين".(١١)

وهنا يمكن القول : أن يوسف ــ عليه الســـلام ــ لــو تمنــى العافية، بدل ما كان يدعى إليه لعله كان يعافى، ولكنه لما قال : "السجن أحب إلى مما يدوننى إليه" طولب بصدق ما قال. هذا وقد أيقن يوسف أن ما هو فيه إنما إبتلاء لا يصرفه عنه إلا الله تعالى، لذلك نطق مـــن عين التوحيد حيث قال : "وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن". فقــد علم عليه السلام ــ إن نجاته فى أن يصرف سبحانه البلاء عنه.(١٢)

وإذا ما نظرنا إلى الخصال الحميدة التى تحلى بـــها يوســف ــ عليه السلام ــ نجد أنها ثمار خير قد أينعت من شجرة الأخلاق النبوية المباركة، فكانت دليلاً على فتوته.

وأول ما يقابلنا من هذه الصفات الطيبة، والخصال الحميدة، التى يجب على الفتى أن يتحلى بها نجد، العفة والأمانة، فقد كـــان يوســف شاب، فى ريعان شبابه محفوف بالمغريات، وعلى الرغم من ذلك فقـــد إستمسك بدينه، لأنه نشأ على تقوى الله، وحسن الخلق(١٣).

وتتمثل هذه العفة والأمانة عند يوسف أن إمرأة العزيز عندمـــا هاج غرامها إعتزمت على قضاء ما فى نفسها من الصبابة، فدعته إلى نفسها وغلقت الأبواب، نجد أن يوسف ــ عليه السلام ــ تمسك بعفتـــه وأمانته، ورفض ما تدعوه إليه ــ إمرأة العزيز ــ وقال لها : إن ربـــى ــ زوجك العزيز ــ أحسن مثواى، فلا يصح لى أن أخونه فى زوجتـــه وأدنس فراشه، وإنه أكرمنى وإئتمننى على بيته، فإن خنته فى أهله، فأنا ظـــالم ولا يفلـــح الظـــالمون. وقـــال تعـــالى : إخبـــارا عـــن هـــذه الحادثة:"وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقـــالت، هيت لك قال : معـــاذ الله إنـــه ربـــى أحســـن مثـــواى إنـــه لا يفلـــح الظالمون"(١٤).

كذلك يعتبر الصبر من أبرز الصفات فى فتوة نبى الله يوســـف. وإن من صبر يوسف ما يأتى :

أولاً : صبر على إيذاء اخوته له، وتجريده من ثوبه، والقائه فى الجب بقصد إهلاكه. وقد أخبرنا الحق تعالى بهذا الموقف من جـــانب إخوة يوسف فى قوله تعالى : "اقتلوا يوسف أو إطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين. قال قائل منـــهم لا تقتلـــوا يوسف وألقوه فى غيبت الجب"(١٥)

ثانياً : صبر على استرقاقه وبيعه فى السوق. قـــال تعـــالى : "وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين".(١٦)

ثالثا: صبر على الشهوة، وقد هيئت له فى طائفة من المغريات تحف به من كل جانب إلا أنه تغلب بعون الله وقدرته على كـــل هـــذه المغريات، مفضلاً دخول السجن حتى لا يستجيب إلى الشهوة ويكـــون من الجاهلين.

رابعاً : الصبر على الحبس والسجن، عندما أحاطت المغريـــات بيوسف من كل جانب، أثر دخول السجن خوفاً من هذه الاغـــراءات، إذ أن السجن فى هذه الحالة أحب إلى يوسف مما يدعونه إليه. ليس هـــذا فحسب، إنما رفض يوسف الخروج من السجن بعد تأويل رؤيا الملك ما لم تظهر الحقيقة، ويعلم الملك حقيقة موقفه من إمرأة العزيز، وأنه دخل السجن ظلماً وكيدا من جانبها.

قال تعالى : "وقال الملك أئتونى به فلما جاءه الرســـول قـــال : ارجع إلى ربك فاسئله ما بال النسوة اللاتى قطعـــن أيديـــهن إن ربـــى بكيدهن عليم".(١٧)

أمر أخر فى رفض يوسف الخروج من السجن، وذلـــك ليثبـــت براءته، فلا تصح للملك المنة على يوسف فى إخراجه من السجن، بـــل المنة لله وحده، فقصد يوسف بذلك براءة ساحته، إذ لو بقى الاحتمـــــال لقدح فى عدالته، وهو رسول من عند الله عز وجل، فلابـــد لأمتـــه ــ المؤمنين بدعوته ــ فى طريق إنقيادهم له من ثبوت عدالتـــه وبراءتـــه عندهم.

أمر أخر إن يوسف ــ عليه السلام ــ طلب أن تكون البراءة فى غيبته لكونها أكثر تنزيها له، لأنه لو حضر، ربما قيل : مـــا ذكـــوه إلا حياء منه، ومن كمال الرجوله (الفتوة) أن يقف مع ما تمسك عليه فـــى كل ما لم يؤمر بفعله حتى يأتيه أمرُ الله فهناك يكون بحسب ما يؤمـــر به(١٨).

وإذا كان العفو ــ وخاصة عند المقدرة ــ يعد من الســـمات أو الخصال الحميدة التى يتحلى بها الفتى فإننا نجد هذه الســـمة واضحـــة متميزة فى موقف نبى الله يوسف ــ عليه السلام ــ مع إخوته، فحينمـــا خرج من السجن ومكن الله له فى أرض مصر، وجعله على خزائنـــها، جاء اخوته إلى مصر يكتالون بعد ما حل بهم الجدب والقحط. نجد أن يوسف ــ عليه السلام ــ لم يعاملهم مثلما عاملوه، ولم يقابل شرهم بشر مثله، وإنما دعا لهم بالمغفرة والرحمة. وقد أخبر الحق سبحانه عن هذا الموقف فى قوله تعالى : "قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهـــو أرحم الراحمين".(١٩)

كذلك ورد لفظ الفتى فى كتاب الله عـــز وجـــل وصفـــاً لأهـــل الكهف. وذلك فى قوله تعالى : "نحن نقص عليك نبأهم بالحق إنهم فتية أمنوا بربهم وزدناهم هدى".(٢٠)

وفى قوله تعالى : "إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا أتنا من لدنك رحمة وهئ لنا من أمرنا رشدا".(٢١)

وإذا ما نظرنا إلى الأية الأولى نجـــد أن الله ســـبحانه وتعـــالى وصف الفتية بالإيمان فى قوله تعالى : "إنهم فتية آمنوا بربهم" ويفســـر القشيرى هذه الأية بقوله : يقال : انهم فتية لأنهم أمنوا ــ على الوهلـــة

ــ بربهم، أمنوا من غير مهلة، لما أتتهم دواعى الوصلة. ويقال : فتية، لأنهم قاموا لله، ما إستقروا حتى وصلوا إلى الله.(٢٢)

ويقال : أن أهل التوحيد صفتهم ما قال الحق سبحانه فى صفة أصحاب الكهف: "وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود".(٢٣) فهم بشواهد الفرق فى ظاهرهم، ولكنهم بعين الجمع بما كوشفوا به فى سرائرهم، يجرى عليهم أحوالهم وهم غير متكلفين، بل هم يثبتون ــ وهم خمود عما هم به ــ ان تصرفاتهم القائم بها عنهم سواهم وكذلك فى نطقهم.(٢٤)

وإذا ما إنتقلنا إلى الآية الثانية نجد أن الحق تبارك وتعالى أوى الفتية إلى الكهف بظاهرهم، وهم فى الباطن فهو مقليهم فى ظل اقباله وعنايته ثم أخذهم عنهم، وقام عنهم فأجرى عليهم الاحوال وهم غائبون عن شواهدهم.

هذا وقد أخبر الله سبحانه وتعالى عن إبتداء أمرهم أنهم دعوا الله أن يأتيهم من لدنه رحمة، وأن يهيئ لهم من أمرهم رشدا. أى أنهم أخذوا فى التبرى من حولهم وقوتهم، ورجعوا إلى الله بصدق فاستجاب لهم، وبوأهم فى كنف الإيواء مكانا حسنا.(٢٥)

بالإضافة إلى هذا فقد ورد لفظ الفتى فى كتاب الله عز وجل بمعنى التابع قال تعالى : "وإذا قال موسى لفتاه لا أبرح مجمع البحرين أو أمضى حقباً".(٢٦) وفى قوله تعالى : "، فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غذائنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً".(٢٧)

كذلك ورد لفظ الفتى فى سورة يوسف بنفس المعنى ــ التابع ــ فى قول الله عز وجل : "وقال لفتيانه إجعلوا بضاعتهم فى رحالهم لعلهم يعرفونها إذا إنقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون"(٢٨).

وهنا تجدر الاشارة إلى أن الله تعالى لم يرضى أن يسمى التابع، أو الرقيق المملوك عبد فلان، وكره العبودية تضاف لغـــيره ســبحانه فأختار للتابع الذى لا يملك من أمر نفسه شيئاً لفظاً كريماً يـــدل علـــى مجموع صفات حميدة "وهو الفتى". وكذلـــك الأمـــر بالنســبة للأمـــة المملوكة.

إذ جاء فى الحديث أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال : "لا يقولن أحدكم عبدى وأمتى ولكن ليقل فتاى وفتاتى".

فكأن الحق سبحانه وتعالى إختار خير الألفاظ الدالة على الحرية والصفات الحميدة فدل بها على الرق طلباً لحسن معاملة الرقيق.

سيد الفتيان

قد يكون وصفنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بســـيد الفتيـــان تطاولا على مقام النبوة الكريم، إلا أن حجتنا فى وصفه ــ صلـــــى الله عليه وسلم ــ بذلك ما وجدناه فى كتاب الله عز وجل من وصف لبعض الأنبياء بلفظ "فتى" كما هو الحال مع إبراهيم ويوسف عليهما السلام.

كذلك كان رسول الله قبل أن يبعثه الله هادياً ومبشـــراً ونذيـــراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، مثالاً كاملاً للرجولة الحقة، والفتوة الكاملة وتمثلت فى شخصته ــ صلـــى الله عليـــه وســـلم ــ الخصـــال الحميدة، والصفات العظيمة فكانت فى مجموعها الأخلاق النبيلة.

هذا وقد أجمعت لنا السيدة خديجة هـــذه الصفـــات، والخصـــال الحميدة، التى هى بحق صفات الفتيان عندما جاءهـــا مخـــبراً بـــنزول الوحى عليه إذ قالت : "أبشر يا ابن العم وأثبت، فوالذى نفس خديجـــة

بيده إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة، والله لا يخزيـــك أبـــداً، إنـــك لتصل الرحم، وتصدق الحديث وتحمل الكل، وتقرى الضيف، وتعيـــن على نوائب الحق".(٢٩)

وإذا ما نظرنا إلى وصف رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ كما وصفه على بن أبى طالب نجد وصفه من الناحية الخلقيـــة بـــالقوة وذلك فى قوله : جليل المشاش والكتد.... شثن الكفين والقدمين.....أى أن عظام رؤس المفاصل وخاصة ما بين الكتفين فيهم جـــلال وقـــوة، غليظ الكفين والقدمين دليلاً على قوتهما. ووصفه من الناحية الخُلقيـــة بما تتضمنه الفتوة المعنوية من صفات وذلك فى قوله : "أجود الناس كفاً وأجرأ الناس صدراً، وأصدق الناس لهجة، وأوفى الناس ذمة، وألينـــهم عريكة، وأكرمهم عشرة، من رآه بديهة هابه، ومن خالطه أحبـــه(٣٠) صلى الله عليه وسلم.

وإذا ما تحدثنا عن فتوة رسول الله ــ صلى الله عليه وســـلم ــ نجد أن فتوته ما هى إلا جهاد فى سبيل الله، وإعلاء كلمة ــ لا إلـــه إلا الله محمد رسول الله فى مجتمع ساد فيه الكفر، والفسق، والفجـــور.... وما أصدق ما وصف جعفر بن أبى طالب لأحوال قومـــه قبـــل بعثـــة رسول الله، عندما سأله النجاشى عن السبب الذى دعاهم إلى الدخول فى الإسلام إذ قال : "أيها الملك، كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتى الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسئ الجوار، ويأكل القـــوى منا الضعيف... فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا، نعـــرف نسبه وصدقه، وأمانته، وعفافه.... فدعانا إلـــى الله لنوحـــده، ونعبـــده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وأباؤنا من الحجارة والأوثان وأمرنـــا بصـــدق

الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجـــوار، والكـــف عـــن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيـــم، وقذف المحصنات".(٣١)

وهنا نجد أن هذه الفقرة تضمنت وصفاً لرسول الله ــ صلى الله عليه وسلم بصفات حميدة أهمها، الصدق، والأمانة، والعفة. كمـــا أن هذه الفقرة أوضحت أن الدعوة الاسلامية فى حقيقتها إنما هى تدعو إلى مكارم الأخلاق.

وقد تطلبت هذه الدعوة جهاداً طويلاً بالحجة تارة، وبالقوة تـــارة أخرى، مع هؤلاء الذين أرادوا القضاء عليها فى مهدها، فاستعمال القوة لم يكن لنشر الدعوة بالعنف، ولكن لاخضاع الكفار، وكف أذاهم عـــن الدين الجديد.(٣٢)

وإذا قلنا أن الفتوة بمعناها المادى تتمثل فـــى القـــوة، والغلبـــة، والبطش وما تتطلبه هذه القوة من عدة وعداد مثل الخيل والسلاح.

وتتمثل الفتوة فى معناها المعنوى فى مجموعة الخصال الحميدة التى تكون فى مجموعها شجرة الأخلاق بفروعها وثمارها، مثل الكرم، والوفاء، والعفة، والأمانة، والرحمة، والزهد.... فمما لا ريب فيه أنه قد إكتملت هذه الفتوة سواء فى جانبها المادى أو الجـــانب المعنـــوى فـــى شخصية رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ

أولا : القوى المادية للفتوة :

لا جدال أن الدين الاسلامى دعا إلى القوة فى كثير من آيات الله مثل قوله تعالى : "وأعدوا لهم ما إستطعتم من قوة ومن ربـــاط الخيـــل ترهبون به عدو الله وعدوكم".(٣٣)

وإذا كانت الفتوة فى كثير من الأحيان مقترنة بالشجاعة ومكملة لها لذا نريد هنا أن نتعرف على شجاعة رسول الله ــ صلى الله عليـــه وسلم ــ من حيث مصادرها ومظاهرها والغاية منها.

الشجاعة :

لقد نشأ رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى بيئة صحراوية تشيد بالشجاع الصنديد، وتندد بالجبن والجبناء، فكانت هذه النشأة الأولى مصدراً من مصادر شجاعته، صلى الله عليه وسلم.

فضلاً عن أن كثيراً من أيات كتاب الله تدعو إلـــى الشجاعـــة، وتحض عليها، وتبشر الفتيان الشجعـــان بـــالخير الكثـــير، والمغفـــرة والرحمة، والفوز العظيم.

وهكذا نجد أن المصدر الأساسى لشجاعة رسول الله ــ صلـــى الله عليه وسلم ــ إنما يتمثل فى تنفيذ أوامر الله عز وجل. قال تعالى : "انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون".(٣٤)

وقال تعالى : "إن الله إشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون، وعدا عليه حقـــا فـــى

التوارة والانجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله؟ فأستبشروا ببيعكـــم الذى بايعتم به، وذلك هو الفوز العظيم".(٣٥)

وإذا كان الإسلام قد أشاد بالشجاعة، وحض عليها، فإنه بالتـــالى قد نهى عن الجبن والفرار من المعركة أمام الأعداء. قال تعالى : "يـــا أيها الذين أمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبـــار، ومـــن يوليهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضـــب من الله ومأواه جهنهم وبئس المصير".(٣٦)

أما عن مظاهر شجاعة رسول الله ــ صلى الله عليه وســـلم ــ فإنها كثيرة متعددة يطول بنا المقام إذا أردنا أن نعددها ونحصيها، ولكننا نكتفى بأن نستقى منها بعض الأمثلة الدالة على شجاعة الرأى وشجاعة الحرب.

لاريب أن شجاعة الرأى تعد دليلاً على عقيدة راسخة، وإيمـــان قوى لا يلين أو يلتوى أمام المغريات. فها هو عتبة بن ربيعة ــ وكان سيداً فى قومه ــ يحاور رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ محـــاولاً أن يبعده عن دعوته قائلاً : يابن أخى إنك منا حيث قـــد علمـــت مـــن الشرف فى العشيرة، والمكان فى النسب، وإنك قد أتيت قومـــك بـــأمر عظـــيم مزقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم وعبـــت بـــه آلهتـــهم ودينهم وكفرت به من مضى من آبائهم، فأسمع منى أعـــرض عليـــك أمـــوراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها. فقال رسول الله ــ صلـــى الله عليه وسلم : قل يا أبا الوليد.أسمع. قال : إن كنت إنما تريد به شرفاً سودناك علينا، حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد ملكاً ملكنـــاك علينا، وإن كان هذا الذى يأتيك رئياً تراه لا تستطيع رده عـــن نفســـك،

طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه.... حتـــى إذا فــرغ عتبة، ورسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يستمع منـــه قـــال : أقــد فرغت يا أبا الوليد؟ قال : نعم. قال : فأسمع منى. قال : افعل، فقـــال : "بسم الله الرحمن الرحيم. حم تنزيل من الرحمن الرحيم. كتاب فصلـــت أياته قرآنا عربياً لقوم يعملون. بشيراً ونذيراً. فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه".(٣٧).... ثـــم مضـــى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يقرأ عليه، وعتبة منصـــت، ثـم إنتهى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ إلى السجدة منها، فسجد... ثم قال : قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك.(٣٨)

ما أروعها من شجاعة فى الرأى، تلك التى مصدرهـــا كلمـــات الحق تبارك وتعالى فى وجه طواغيت الكفر والفساد. وإذا ما إنتقلنـــا إلى موقف آخر من شجاعة الرأى عند رسول الله ــ صلـــى الله عليـــه وسلم ــ لوجدنا ذلك واضحا فى موقفه مع عمه أبو طالب عندما ضاقت قريش بدعوته إلى الاسلام وتسفيه أحلامها، وعيب الهتها، فأرسلت وفداً إلى أبى طالب يتوعده بأن يكف رسول الله عن دعوته أو تكون حربـــاً بينهما حتى يهلك أحد الفريقين. فعظم على أبى طـــالب فـــراق قومـــه وعداوتهم، ولم يطب نفسا بإسلام رسول الله لهم ولا خذلانه. فبعث إلى رســول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وقال له : يابن أخى إن قومـــك قد جاءونى فقالوا لى كذا، وكذا، الذى كانوا قالوا له.... فـــأبقى علـــى وعلى نفسك، ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق.

فظن رسول الله أنه قد بدا لعمه فيه بداء أنه خاذله ومسلمه وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه. فقال رسول الله ــ صلى الله عليه

وسلم ــ يا عم، والله لو وضعوا الشمس فى يمينى، والقمر فى يسارى، على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته.... ثم إستعبر رسول الله، فبكى ثم قام.

وعندما ما رأى أبو طالب هذه الشجاعة فى الرأى من جانب رسول الله، وثباته على عقيدته دفاعاً عن المبدأ الذى أمن به، ناداه، فقال : أقبل يا إبن أخى..... فأقبل عليه رسول الله..... فقال : إذهب يا بن أخى فقل ما أحببت فوالله لا أسلمك لشئ أبداً.(٣٩)

أما شجاعته ــ صلى الله عليه وسلم ــ الحربية فى ميدان القتال، فقد تجلت منذ مطلع شبابه إذ تروى كتب السيرة، أنه عندما هاجت حرب الفجار شهد رسول الله بعض وقائعها إذ أخرجه أعمامه معهم وفى هذا الصدد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كنت أنبل على أعمامى "أى أرد عنهم نبل عدوهم، إذا رموهم بها".(٤٠)

ثم أنه بعد النبوة كان رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يشارك فى المواقع ويقدم إقدام الأبطال، ويمارس ما يمارسه القائد الشجاع، ويتعرض لما يتعرض له جنوده، على حين أنه كان يستطيع أن يعفى نفسه من هذه المشاركة العملية إعتماداً على أنه النبى، فيتوارى أو يتحصن أو يتخذ مكانه فى مؤخرة الجيش ولو أنه ــ عليه الصلاة والسلام ــ فعل ذلك لكان له مندوحة لا يرقى إليها تثريب. أو ملام، ولو أنه أثر هذا المسلك لرضى المسلمين به مرضاة خالصة، فقد كانوا يؤثرون رسول الله على أنفسهم، ويشترون سلامته بأرواحهم.(٤١)

' يذكر ابن اسحاق أنه عندما هاجت حرب الفجار كان رسول الله ــ ابن عشرين سنه

وعن هذه الشجاعة يحدثنا على بن أبى طالب قائلاً : إذا إشتـــد البأس، وأحمرت الحدق، إتقينا برسول الله، فما يكون أحد أقــرب إلـــى العدو منه ولقد رأيتنى يوم بدر، ونحن برسول الله، وهو أقربنـــا إلـــى العدو، وكان من أشد الناس يومئذ بأساً.(٤٢)

وفى غزوة أحد كان رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يؤثر البقاء فى المدينة دون الخروج منها، فأشار على أصحابـــه قــائلا: "إن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا، فإن أقاموا أقاموا بشـــر مقام، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها، وكان البعض يوافق رسول الله على ذلك، يرى رأيه فى ألا يخرج إليـــهم وكـــان رســول الله يكــره الخروج. ولكن جماعة من الصحابة، ممن كـــان فاتـــه بـــدر، أثـــروا الخروج وقالوا لرسول الله : أخرج بنا إلى أعدائنا، لا يرون أنـــا جبنـــا عنهم وضعفنا.... فلم يزالوا برسول الله ــ صلى الله عليـــه وســلم ــ يطلبون منه الخروج..... حتى دخل بيته، ولبس لأمته، وتقلد سيفه، ثـــم خـــرج عليهم..... وقد ندم الناس، وقالوا لرسول الله : إستكرهناك، ولم يكن لنا ذلك. فإن شئت فاقعد صلى الله عليك. فقال رسول الله : مـــا ينبغى لنبى إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل : فخرج رسول الله فى ألف من أصحابه.(٤٣)

وهنا تتجلى شجاعة رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فـــى رفضه أن يستجيب لدعوة البقاء، بعد أن أعد عدتـــه، ولبـــس لأمتـــه، وإصراره على ألا يضعها حتى يقاتل أعداء الله، فإنه بـــهذا الاصـــرار أذكى شجاعة الصحابة جميعاً من كانوا يؤثرون الخروج، ومن كـــانوا يؤثرون البقاء، وخرج بهم بقودهم إلى لقاء الأعداء.

وتأكيداً لقول على بن أبى طالب " ونحن نلوذ برسول الله، وهو أقربنا إلى العدو..." نجد أنه فى غزوة أحد كسرت رباعيتـــه ــ عليــه الصلاة والسلام ــ وشج فى وجهه وجرحت شفتّه، وسال دمـــه علـــى وجهه فكان يمسح الدم وهو يقول : "كيف يفلح قوم، خضبوا وجه نبيهم، وهو يدعوهم إلى ربهم".(٤٤)

بالإضافة إلى هذا وقع رسول الله ــ صلى الله عليـــه وســلم ــ فى حفرة من الحفر التى حفرها أعداء الله ليقع فيها المسلمون، وهـــم لا يعلمون، فأخذ على بن أبى طالب بيد رسول الله، ورفعه طلحة بن عبيد الله، حتى إستوى قائماً.(٤٥)

وفى سنة ثمان بعد الفتح خرج رسول الله للقاء هوازن وثقيـــف وغيرهم فى غزوة حنين. فلما إقتربوا من وادى حنين إنحـــدروا فـــى منسع منحدر، وفى عماية الصبح كان القوم قد سبقوهم إلـــى الـــوادى، فكمنوا فى شعابه ومضايقه فشدوا على المسلمين، فأنهزموا راجعين إلا قليلا منهم لا يلوى أحد على أحد.

ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ إنحاز ذات اليمين وكان على بغلته البيضاء، وكان النبى ينادى : "أنا النبى لا كذب، أنا إبن عبد المطلب، أيها الناس هلموا إلىّ أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله"... ولكنهم شغلوا باضطرابهم، وحملت الابل بعضها على بعض، فـــأنطلق الناس إلا نفرا من الصحابة (المهاجرين والانصار) ثبتوا مع رسول الله، فقال الرسوا : يا عباس، اصرخ يا معشر الانصار: يا معشر أصحـــاب السمرة. فأجابوا : لبيك، لبيك حتى إذا إجتمع منهم مائة إستقبلوا الناس، فأقتتلوا، وكانوا صبراً عند الحرب فأشرف رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى ركائبه. فنظر إلى مجتلد القوم وهم يجتلدون، فقال : الأن حمى الوطيس.(٤٦)

وهنا تتجلى شجاعة رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فـــى ثباته أثناء المعركة عندما دارت الدائرة على المسلمين، وتفرقوا إلا أنه بشجاعته وحكمته ــ عليه الصلاة والسلام ــ إستطاع أن ينظم صفوف المسلمين مرة أخرى،ويكر على العدو فى معركة حامية الوطيس انتهت بانتصار المسلمين.

وهكذا نكون قد إستعرضنا بعض النماذج الدالة علـــى شجاعـــة رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ سواء كانت شجاعة الرأى أو شجاعة الحرب، إلا أنه إحقاقا للحق نقول : إن ما أخذناه من شجاعته ــ صلى الله عليه وسلم ــ إنما كما يأخذ المخيط من المحيط.

وإذا ما تساءلنا عن الغاية من شجاعة رسول الله ــ صلـــى الله عليه وسلم ــ لأمكن القول : أنه لم تكن الشجاعة التـــى إتصـــف بـــها رسول الله، والتى حرض عليها وأقرها وإمتدحـــها، شجاعـــة القـــوى المقدام، المدل بقوته، المفاخر بها بين الناس، ولا شجاعة الثائر المهتاج الذى أشعله الغضب لغير الحق، بل كانت شجاعته ــ صلى الله عليـــه وسلم ــ الشجاعة المثلى التى لا تتوخى غير إعزاز دين الله. وإعـــلاء كلمته، والزود عن محارمه، والدفاع عن الحقوق التى صانتها الشريعة وحمتها.(٤٧)

فقد كانت الغاية من شجاعته ــ صلى الله عليه وسلم ــ إنما هى أنبل غاية وأشرف غاية، وأسمى غاية، إذ أن شجاعة رسول الله كـــان الهدف منها أن تكون كلمة الله هى العليا، والدفاع عن التوحيد الخالص، وحماية الاسلام والمسلمين من عدوان المشركين، وتحرير الناس مـــن أغلال الوثنية، ومفاسد الأخلاق، لتحل محلها أسمى عقيدة، وأصلح نظام يهدف إلى خدمة الانسانية جمعاء فى مختلف نواحى الحياة.

السـلام :

إذا قلنا أن شجاعه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ تمثلت في شجاعة الرأى وشجاعة الحرب، ووجدنا أن شجاعة الرأى عبر عنها بالحكمـة والموعظة الحسنة، من خلال كلمات الله عـز وجـل التـى أنزلت على رسوله الكريم ليثبت فؤاده.

فإن شجاعة الحرب لها متطلبات أخرى تعبر عنها، مثل إستخدام السلاح، وركوب الخيل وقد ثبت لدينا أن رسول الله صلـى الله عليـه وسلم إستخدم كافة انواع الأسلحة ـ المتعارف عليها ـ مثـل الحربـة والسيف، والرمح، الرمى بالنبال..... كما أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يلبس الدرع والترس أثناء المعارك والغزوات.

وإذا ما نظرنا إلى استخدام الرسول ـ صلى الله عليه وسـلم ـ للحربة ـ وهى رمح قصير ـ وطعنه بها، فتروى لنا كتـب السـيرة، مثل : مغازى موسى بن عقبة، وإبن اسحاق، والأموى، وإبن هشـام... وغيرها، أنه لما كان يوم أحد وأسند رسول الله إلى الجبل أدركه أبى بن خلف، وهو يقول : أين محمد؟ لانجوت إن نجا وكان أبى بن خلف يلقى رسول الله بمكة فيقول : يا محمد، إن عندى العود ـ فرساله ـ أعلفـه كل يوما فرقاً من ذرة أقتلك عليها. فيرد عليه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قائلاً : بل أنا أقتلك إن شاء الله.

فلما أدرك أبى بن خلف رسول الله إعترض لـه رجـال مـن الصحابه فأمرهم رسول الله فخلوا طريقه وإستقبله، فطعنه بحربته فوقع أبى عن فرسه، ولم يخرج من طعنته دم فكسر ضلعاً من أضلاعه، فلما رجع إلى قريش وقد خدشه فى عنقه خدشاً غير كبير فأحتقن الدم. فقال

: قتلنى والله محمد. قالوا له : ذهب والله فؤادك، إنه ما كان بك مـــن بأس. قال : أنه قد كان قال لى بمكة : أنا أقتلك فوالله لو بصق علـــى لقتلنى. وبالفعل مات عدو الله وهم راجعون إلى مكة.(٧٨)

وجدير بالذكر أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ كـــان يطلق على أسلحته وعدده الحربية أسماء تميزها، وألقاب تـدل عليـها، لأنه يشعر نحوها بعطف ومودة وإعزاز كأنما هى أناس مـــن جنوده الأوفياء، وأعوانه الأصدقاء فحربته إسمها النبعة، وله أخرى يقال لـــها البيضاء، وثالثة صغيرة تشبه العكاز يقال لها العنزة.(٤٩)

أما عن إستخدام رسول الله صلى الله عليه وســـلم ــ للسـيف، فيذكر ابن إسحاق أنه بعد أن إنتهت المعركة فى غزوة أحد،ولما إنتهى رسول الله إلى أهله، ناول سيفه إبنته فاطمة، فقال : أغسلى عـــن هـذا دمه يا بنية فوالله لقد صدقنى اليوم، وكان يقال لسيف رسول الله الذى لم يفارقه فى غزوة من الغزوات ذو الفقار.(٥٠) بالإضافة إلى هـذا فقـد كان لرسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ سيوف أخرى هى، المخزم، والرســوب، والقضيـب، القلعـى، والبتـار، والحتـف، والعضـب، والصمصامة.(٥١)

وهذه الأسماء للسيوف التى كان يستخدمها رسول الله ــ صلـى الله عليه وسلم ــ نجد أنه يغلب عليها صفات القوة، وهذا أمر مطلـوب لمن يستخدم السيف، إذ لابد للسيف أن يكون قوياً شديد القطـــع بتـار. فالمخزم، والقضيب تعنى القاطع والحتف يعنى الهلاك، والصمصامـــة أى السيف الذى لا ينثنى.(٥٢)

وكذلك أتت بعض الأسماء تشبيهاً لمتن السيف، أو وصفاً لشكله مثل ذو الفقار، ذلك لأن هذا السيف كان فى وسطه مثل فقرات الظهر.

والرمى بالسهم يعتبر من أنواع السلاح التى أشاد بها رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ففى صحيح مسلم عن عقبة بن عامر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ يقــول :"وأعــدوا لــهم مــا استطعتم من قوة. ألا إن القوة الرمى، ألا إن القوة الرمى، ألا إن القوة الرمى".

وفى السنن عن عقبة ــ أيضا ــ قال : رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم : أن الله ليدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفــر الجنــة. صانعــه المحتسب فى عمله الخير، والرامى به، والممد بــه"، وفــى روايــة : ومنبلة فأرموا، واركبوا وإن ترموا أحب إلى أن تركبوا كل لهو باطل. ليس من اللهو محمود، إلا ثلاثة تأديب الرجل فرسه، وملاعبته أهلــه، ورميه بقوسه ونبله. فأنهم من الحق ومن ترك الرمى بعدمــا علمــه رغبة فإنها نعمة تركها"(٥٣).

وفى صحيح البخارى عن سلمة بن الأكوع قال : خرج رســول الله صلى الله عليه وسلم بنفر يتنفلون، فقال : "إرموا بنى إسماعيل فإن أباكم كان راميا، إرموا وأنا مع بنى فلان، فأمسك أحد الفريقين بأيديهم، فقال : مالكم لا ترمون؟ فقالوا : كيف نرمى وأنت معهم؟ فقال : إرموا وأنا معكم كلكم.(٥٤)

وقد قيل فى هذا الصدد :

الرمى أفضل ما أوصى الرسول به

وأشجع الناس من بالرمى يفتخــر(٥٥)

ولما كــانت الســهام لابــد لــها مــن كنانــه توضــع فيــها، فإننا نجد كنانه سهام رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ إسمها الجمع أى العظيمة أو المثقلة أو المستورة.(٥٦)

السبـــاق

لا جدال أن السباق سواء كان على الأقدام، أو كان على ظهور الخيل أو الأبل إنما يكسب المتسابق قوة وجدية وشجاعة ومهارة علـــى الكر والفر وعلى هذا لنا أن تعتبر السباق من ضمن القوة المادية الدالة على فتوة رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أما مسابقته بـــالأقدام : ففى مسند الامام أحمد وسند أبى داوود مـــن حديـــث عائشـــة قـــالت : "سابقنى النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ فسبقته، فلبثنا حتى إذا أرهقنى اللحم سبقنى فقال : هذه بتلك". وفى رواية أخرى، أنهم كانوا فى ســـفر فقال النبى لأصحابه : "تقدموا فتقدموا ثم قال لعائشه : "سابقينى، فسابقها فسبقته ثم سافرت معه مرة أخرى فقال لأصحابه : "تقدموا ثـــم قـــال : سابقنى، وسبقنى، فقال : هذه بتلك.(٥٧)

كذلك تسابق الصحابة على الأقدام بين يديه ــ صلى الله عليـــه وسلم ــ ففى صحيح مسلم عن سلمة بن الأقوع قال : بينما نحن نســـير وكان رجل من الأنصار لا يسبق أبدا، فجعل يقول : ألا مســـابق إلـــى المدينة، هل من مسابق فقلت له : أما تكرم كريماً وتهاب شريفـــاً؟ فقال : لا. إلا أن يكون رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول الله بأبى أنت وأمى ذرنى أسابق الرجل. فقال : إن شئت فسبقت إلـــى المدينة.(٥٨)

وإذا جاز لنا أن نعتبر المصارعة نوعاً من أنواع السباق، فقـــد ثبت عن رسول الله، أنه صارع ركانة المطلبى وصرعه.

قال إبن اسحاق : كان ركانة بن عبد العزيز بن هاشم بن عبـــد المطلب بن عبد مناف أشد قريش فخلا يوماً برسول الله ــ صلـــى الله

عليه وسلم ــ فى بعض شعاب مكة فقال له رسول الله : يا ركانـــه، ألا تتقى الله وتقبل ما أدعوك إليه؟

قال : إنى لو أعلم أن الذى تقول حق لإتبعتك، فقال له رســـول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أفرأيت إن صرعتك، أتعلم أن ما أقـــول حق؟ قال : نعم، قال : فقم حتى أصارعك. فقام إليه ركانه يصارعـــه، فلما بطش به رسول الله أضجعه، وهو لا يملك من نفسه شيئاً، ثم قال: عد يا محمد، فعاد فصرعه.(٥٩)

وإذا كان ركوب الخيل يعد من متطلبات الفتوة، فقد ثبـــت عـــن رسول الله أنه ركب الخيل مسرجة، ومعراه ــ ففى الصحيحيـــن مـــن حديث ثابت، عن أنس قال : "كان رسول الله صلى الله عليه وســـلم ــ أحسن الناس، وأجود الناس، وأشجع الناس، ولقد فزع أهل المدينة ليله، فركب فرساً لأبى طلحة، عرياً فخرج الناس، فإذا هم برسول الله صلى الله عليه وسلم ــ قد سبقهم إلى الصوت، وقد إستبرأ الخبر. وهو يقول: "لن تراعوا".(٦٠)

ولأهمية الخيل فى حياة رسول الله، فقد خلع بعـــض الأســـماء والألقاب على أفراسه مثل السكب، وكان قد إشتراه من إعرابى، وكـــان اسمه عند صاحبه الضرس، أى الصعب السئ الخلق، فشبهه رسول الله ــ بسكب الماء وانصبابه لشدة جريه. ومن أفراسه أيضـــاً : اللـــزاز واللخيف أو اللحيف، والورد، والطرف وسبحة.(٦١)

كذلك كان رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يحـــدب علـــى خيله ويعزها، حتى أنه مسح وجه فرسه ومنخريه وعينيه بكم قمصـــه، فقيل له : يا رسول الله تمسح بكم قميصك؟ فقال : أن جبريل عاتبنى فى

الخيل. وذكر أن رسول الله فى غزوة تبوك قام إلى فرســـه الطـــرف، فعلق عليه شعيره وجعل يمسح ظهره بردائه، فقيل له : يا رســـول الله تمسح ظهره بردائك؟ فقال : نعم، وما يدريك لعل جبريل أمرنى بذلك. وقال : الخيل معقود بنواصيها الخير.(٦٢)

وهكذا نجد أنه قد إكتملت القوى المادية لفتـــوة رســـول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ تلك الفتوة التى مصدرها كلمات الله عز وجل، تحث المؤمنين على الأخذ بالقوة المادية إستناداً إلـــى قولـــه تعـــالى : "وأعدوا لهم ما إستطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عـــدو الله وعدوكم".(٦٣)

وأقوال رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ الكثيرة التى تشيد بالمؤمن القوى وأنه خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف إلا أن هذه القـــوة ليست لمصلحة فردية، أو لغاية دنيوية، أو أنـــها تـــهدف إلـــى السيادة والرئاسة والمجد الدنيوى وإنما هذه القوة ما هى إلا وســـيلة ـــ وسيلة شريفة ونبيلة ـــ إلى غاية أسمى منها وأعلى، ألا وهى الجهاد فى سبيل الله لإعلان كلمة الحق فى وجه طواغيت الكفر والفسق، والفســـاد وأن تكون كلمة الله هى العليا.

وتأكيداً لهذا فقد جاء رجل إلى النبى ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ قال : "الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل ليرى مكانه.... فمن فى سبيل الله؟ قال رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ "من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله".(٦٤)

وحقيقة الأمر إن فتوة رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ وإن كان ظاهرها القوة والشدة، إلا أن باطنها الرحمة، والصفح، والمغفـــرة،

والعفو، والإحساس ذلك لأن المؤمنين كما وصفهم الحق تعالى : "أشداء على الكفار رحماء بينهم"(٦٥) وهنا نجد أنفسنا أمام بعض نقاط القـــوى المعنوية لقدوته ــ عليه الصلاة والسلام ــ والتى نود أن نلقـــى عليـــها الضوء حتى تكون نبراساً لنا فى ظلمة الحياة، تهدينا إلى طريق الحـــق والخير والصواب.

ثانيا: القوى المعنوية للفتوة :

إن صح هذا القول : أن القوى المعنويـــة للفتـــوة تكـــون فـــى مجموعها شجرة الاخلاق بفروعها وأغصانها وثمارها. وبناء عليه إذا ما تعرفنا على خلق رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ نكون بذلك قد تعرفنا على كثير من جوانب القوى المعنوية لفتوته.

هذا وقد عبرت السيدة عائشة ــ رضوان الله عليـــهما ــ خـــير تعبير واجمعه واشمله حينما سئلت عن خلق رسول الله. فقالت : "كـــان خلقه القرآن".

فالقرآن كان يظل مبادئ يعتقد الناس أنها مجرد مبادئ نظريـــة يستحيل تحقيقها فى الخارج، لو لم تطبق فعلاً، ولو لم تتحقق واقعيـــاً، لابد من أن تتحقق بالفعل، وكان لابد من صورة حية تتمثل فيـــها هـــذه المبادئ.(٦٦)

ولقد تحققت هذه الصورة للأخلاق فى شخـــص رســـول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ حققها فى ذاته، وحققها فى مجتمعـــه، وحققـــها سلوكاً، وحققها واقعياً، ولقد تحققت الاخلاق القرأنية فى حدها الأســـمى فى رسول الله، وكان ذلك بنص القرآن إذ قال تعالى مشيـــداً بـــأخلاق رسوله الكريم : "وانك لعلى خلق عظيم".(٦٧)

وكان من خلقه صلوات الله وسلامه عليه : الحياء، والســـخاء، والتوكل، والرضاء، والذكر، والشكـــر، والحلـــم، والصـــبر، والعفـــو، والصفح، والرأفة، والرحمة، والنصيحة، والسكينة، والوقار، والتواضع، والافتقار، والجود، والسماحة، والخضوع، والقوة، والشجاعة، والرفق، والاخلاص، والصدق، والزهـــد، والقناعـــة، والخشـــوع، والخشيـــة،

والتعظيم، والهيبة، والدعاء،والبكاء، والخـــوف، والرجـــاء، واللياذ، واللجأ، والتهجد، والعبادة، والجهاد، والمجاهدة(٦٨) وإذا كـــانت هـــذه بعض من خلقه ـ عليه الصلاة والسلام ـ وقلنا أن هذه الاخلاق هـــى فى حقيقتها مجمـــوعة صفات حميدة وخصال رشيـــدة، وهـــى بمثابـــة القوى المعنوية للفتوة فأنه يطول بناء المقام إذا ما أردنا أن نشرح هـــذه الخصال ونوضحها كل على حدة، ولكن سنكتفى بأن نأخذ بعض منـــها داعيين الله أن يوفقنا إلى أن نقتدى بها فى حياتنا.

الجـود والكـرم:

لقد مر بنا شغف العرب ــ فى الجاهلية ــ بالشجاعة والكـــرم، وكان شعراؤهم يشيدون بفعالهم ويختصون هاتين الفضلتيـــن بالتنويـــه، محقين حينا، ومبطلين حيناً ومبالغين أحياناً.

ولم ينفر العرب فى الجاهلية من نقائص نفورهـــم مـــن الجبـــن والبخل، ولم يعير خصم خصمه ويهجوه بأقبح من هاتين الرذيلتين.

ولقد عرفنا ــ من خلال البحث ــ أن الغاية العظمى التى يهدف إليها الفتى العربى من شجاعته وكرمه، المجد والســـيادة، والرئاســـة، وكسب الحمد والثناء.

لكن كرم رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ كان لوناً آخـــر خلاف ذلك، فلم يكن جوده وكرمه لكسب محمدة، أو إتقاء منقصه، ولم يكن للمباهاة،أو الإستغلال أو لإجتذاب المادحين.

كذلك لم يكن الكرم عند رسول الله أريحة إن شاء أعطـــى، وإن شاء منع، بل كان كرمه ــ عليه الصلاة والسلام ــ تنفيذاً لأمر الله عز وجل، وفى سبيل الله وإبتغاء مرضاته سبحانه وتعالى.(٦٩)

لقد كان كرمه ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى حماية الدين، وكان الانفاق على الفقراء من المسلمين، وكان فى رعاية اليتامى والأرامـــل، وكان فى تحرير الأرقاء الذين كاتبوا مالكيهم على مـــال، وكـــان فـــى إجتذاب من يرى تألف قلوبهم.

هذا وقد وصف على بن أبى طالب رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قائلا:،"كان أجود الناس كماً، وأوسع الناس صـــدراً، واصـــدق الناس لهجة وأوفاهم ذمة، وإلينهم عريكه، وأكرمهم عشـــيرة، مـــن رآه

بديهة هابه ومن خالطه معرفة أحبه، وما سئل بشئ قط على الإسلام إلا أعطاه"(٧٠)

وإذا ما نظرنا إلى مظاهر كرم رسول الله ــ صلـــى الله عليـــه وسلم ــ نجد أنه أتاه رجل فسأله، فأعطاه غنما سدت ما بيـــن جبليـــن. فرجع الرجل إلى قومه وقال : اسلموا فإن محمداً يعطى عطاء مـــن لا يخشى الفاقة.(٧١)

وحمل إليه تسعون ألف درهم، فوضعها على حصيرة ثـــم قـــام إليها فقسمها، فما رد سائلاً حتى فرغ منها.

ولما قفل من حنين جاءت الأعراب يسألونه، حتى اضطروه إلى شجرة، فخطفت رداءه. فوقف رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال :"أعطونى ردائي لو كان لى عدد هذه العضاه نعماً لقسمتها بينكم، ثم لا تجدونى بخيلاً، ولا كذابا، ولا جباناً.(٧٢)

وحدث جابر بن عبد الله قال : "خرجت مع رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ على جمل لى ضعيف. فلما عدنـــا جعلـــت الرفـــاق تمضى وجعت اتخلف، حتى أدركنى رسول الله، فقال " "مالك يا جابر؟ قلت : يا رسول الله أبطأ بى جملى هذا. قال :أنخه، فأنختـــه، وأنـــاخ رسول الله ناقته، ثم قال : أعطنى هذه العصا من يدك، ففعلت، فأخذهـــا فنحنى الجمل بها نخات، ثم قال : اركب، فركبت، فصار جملى يســـابق ناقة الرسول.

ويستطرد جابر قائلاً : وتحدثت مع رســـول الله، فقـــال لـــى : "أتبيعنى جملك هذا يا جابر؟ قلت : يا رسول الله، بل أهبه لك، وقـــال :

لا، ولكن بعنيه، فأخذ رسول الله يرفع فى ثمنه حتى بلغ الأوقيه. فقلت: افقد رضيت يا رسول الله؟ قال نعم : قلت : فهو لك، قال : قد أخذته.

ثم أصبحت فأنخت الجمل على باب رسول الله، وجلست فى المسجد قريباً منه فخرج فرأى الجمل، فقال "ما هذا؟ قالوا هذا جمل جاء به جابر، قال : فأين جابر؟ فدعيت له، فقال : يابن أخى، خذ جملك فهو لك، ودعا بلالاً فقال له : أعط جابراً أوقية، فذهبت معه، فأعطانى ما أمر به رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم(٧٣).

وإذا كانت هذه بعض الأمثلة الدالة على مظاهر الكرم فى حياة رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فإننا نجد أن كثيراً من أقواله ــ عليه الصلاة والسلام إشادة بالكرم، ولطالما حض على الكرم، بمعناه الذى يرتضيه الاسلام ــ من بذل فى تقوية الجيش، أو فى الدفاع عن الدعوة، أو فى البر بالفقراء.

ومن أقواله، صلى الله عليه وسلم ــ فى هذا الصدد "السخاء شجرة من شجر الجنة، أغصانها متدلية إلى الأرض، فمن أخذ بعض منها، قاده ذلك الغصن إلى الجنة".(٧٤)

وقال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ "أن الله جواد يحب الجود ويحب مكارم الأخلاق ويكره سفسافها".(٧٥)

وقال عليه الصلاة والسلام "إن السخى قريب من الله، قريب من الناس، قريب من الجنة، بعيد عن النار، وأن البخل بعيد من الله، بعيد من الناس، بعيد من الجنة، قريب من النار".(٧٦)

كذلك ذكر رسول الله، أن من ضمن ــ السبعة الذين يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله سبحانه :"رجلاً تصدق فأخفى، حتى لا تعلم

شماله ما تنفق يمينه.(٧٧) وقال رسول الله صلـــى الله عليـــه وســـلم : :إياكم والشح، فآنما أهلك من كان قبلكم الشح، أمرهم بالكذب، فكذبـــوا، وأمرهم بالظلم فظلموا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا".(٧٨)

وجدير بالذكر أن هذه الأقوال لرسول الله ــ صلـــى الله عليـــه وسلم ــ وإرشادته بالكرم، وحضه عليه، وذمه للبخيل، والنـــهى عنـــه، إنما ذلك إمتثالاً لما أمر به الله تعالى فى كتابه العزيز، إذ قـــال تعـــالى :"ولا يحسبن الذين يبخلون بما أتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة".(٧٩)

وقال تعالى : "ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون".(٨٠)

الأمـانـــة :

للأمانة معنيان خاص وعام :

المعنى الخاص : هو أن يرد الشخـــص المـــال،أو المتـــاع، أو غيرهما إلى من إئتمنه عليه، لأنه حفيظ على هذا الشئ، راع له، ليـــس من حقه أن يتصرف فيه، فإذا ما إسترده صاحبه سارع برده إليه.

أما المعنى العام : فيتسع لأكثر من هذا، فيشمل كتمان الســـر، وإخلاص المشورة للمستشير، وصدق التبليغ فيما كلـــف الشخـص أن يبلغه.(٨١)

فالذى يستودعك سراً واثق بك، مطمئن إلى كتمانك، فأنت على سره أمين. والذى يستشيرك، يفضى إليك بما فى نفسه،ويتوقع أن تبدى له رأياً صريحاً وإن خالفه، فإن فعلت فأنت أمين. والذى يكلفك تبليـــغ خبر إلى آخر قد إختارك للتبليغ عنه، فإذا ما أديت الرســـالة صحيحـــة فأنت أمين.

وهكذا يكون سبب إختيارنا لهذه الصفة الحميدة وإدخالها ضمـــن القوى المعنوية لفتوة رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ إذ وجدنا أنها ترتبط فى معناها الخاص والعام بعـــده فضـــائل أخـــرى، كـــالصدق، والصبر، والاخلاص، العفة، والوفاء، والعدل..... هذا وقـــد أمـــر الله تعالى برد الأمانة وامتدحها، وذلك فى قوله تعالى : " إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل، إن الله نعما يعظكم به، إن الله سميعا بصيرا(٨٢) وقال تعالى :"وإن كنتـــم على سفر ولم تجدوا كاتباً فرهان مقبوضة، فأن أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذى أؤتمن أمانته، وليتق الله ربه".(٨٣)

وجعل الله تعالى الأمانه صفة من صفات المؤمنين إذ قال تعالى: "والذين هم لأمانتهم وعهدهم راعون".(٨٤)

كذلك ورد لفظ الأمين فى كتاب الله وصفاً لموسى ــ عليه السلام ــ وذلك فى قوله تعالى :" قالت احدهما يا أبت إستأجره إن خير من إستأجرت القوى الأمين"(٨٥)

وإذا ما نظرنا إلى مظاهر الأمانة عند رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ نجدها كسائر فضائله، كلها شاملة متعددة المظاهر تضيق بها الصفحات إذا ما أردنا حصرها.

ومما لا ريب فيه أن مظهرها العظيم يتمثل فى نهوضه ــ عليه الصلاة والسلام ــ تبليغ الرسالة التى إئتمنه الله عليها وكلفه أن يقوم بها، فبلغها للناس أعظم ما يكون التبليغ وقام بأدائها أعظم ما يكون القيام، وإحتمل فى سبيلها اشق ما يحتمله البشر.(٨٦)

والأمانة صفة ملازمة لرسول الله حتى قبل أن يبعثه الله هادياً ومبشراً، ونذيراً، وقد عرف العرب هذه الصفة فى محمد بن عبد الله ــ عليه الصلاة والسلام ــ فكانوا يسمونه الأمين، ولهذا رحبوا بتحكيمه فيما كان بينهم من نزاع، وإرتضوا ما قضى به. وذلك عندما أعادت القبائل من قريش بناء الكعبة، حتى بلغ البنيان موضع (الحجر الأسود) فاختلفوا فيه، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى حتى تحاوروا وتحالفوا، ووصل الأمر بهم إلى حد الاستعداد للقتال، لنيل شرف رفع الحجر إلى موضعه، إلا أن أبا أمية بن المغيرة حسما للخلاف، ومنعا لإراقة الدماء والقتال، أشار عليهم قائلاً : يا معشر

قريش إجعلوا بينكم ــ فيما تختلفون فيه ــ أول من يدخل مـــن هـــذا الباب يقضى بينكم، فقبلوا رأيه.

فكان أول من دخل عليهم رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فلما رأوه قالوا : هذا الأمين رضينا، هذا محمد، فلمـــا إنتـــهى إليـــهم، وأخبروه الخبر، قال ــ صلى الله عليه وسلم ــ : هلم إلى ثوباً، فـــأتى به، فأخذ الحجر فوضعه بيده، ثم قال : لتأخذ كل قبيلـــة بناصيـــة مـــن الثوب، ثم إرفعوه جميعاً، ففعلوا، حتى إذا بلغوا به موضعـــه، وضعـــه رسول الله بيده الكريمة ثم بنى عليه.(٨٧)

وبهذا الرأى الصائب، والعمل الشريـــف، أرضـــى رســـول الله القبائل كلها وحسم نزاعها، وأشركها فى الشرف الذى كـــانت تتنـــافس عليه. ولما كان الوفاء بالوعد يدخل ضمن الأمانة، فمن أوفى وعداً من رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقد روى أن رسول الله كان وعد أبا الهيثم بن التيهان خادماً، فأتى بثلاثة من السبى فأعطى اثنين وبقـــى واحد، فأتت فاطمة ــ رضى الله عنها ــ تطلب منه خدماً، وتقول : ألا ترى أثر الرحى بيدى؟ فذكر رسول الله موعده لأبـــى الـــهيثم، فجعـــل يقول: "كيف بموعدى لأبى الهيثم" فأثره به على فاطمة ــ لما كان قـــد سبق من وعده له ــ مع إنها إبنتـــه، وكـــانت تديـــر الرحـــى بيدهـــا الضعيفة.(٨٨)

ولما كان رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ معلماً للإنسانية، وهادياً للبشرية، فقد غرس فى نفوس المسلمين حب الأمـــانى، وعـــدم الغش، وذلك عندما مر رسول الله فى السوق على كومة مـــن الطعـــام فإدخل يده فيها، فنالت أصابعه بللا، فقال " ما هذا يا صاحب الطعـــام؟ قال : أصابته السماء يا رسول الله. فقال "أفلا جعلته فوق الطعام حتـــى يراه الناس من غشنا فليس منا.

بالإضافة إلى هذا ففى الكثير من أقوال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ إشادة بالأمانة وحض المسلمين عليها ، نذكر على سبيل المثال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ " لا تزال أمتى بخير ما لم تر الأمانة مغنم والصدقة مغرما". وقال عليه الصلاة والسلام :" أد الأمانة إلى من إئتمنك ولا تخن من خانك". وفى الصحيحين عن أبى هريرة، أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ــ قال : "أيه المنافق ثلاثة إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أئتمن خان".(٨٩)

أى إذا إئتمنه أحد بكلمة خانه بإفشائها للناس، أو بوديعة خانه بإنكارها وعدم حفظها، أو إستعمالها بغير إذنه، فحفظ الأمانة صفة الملائكة المقربين والأنبياء والمرسلين، وشيمة الأبرار المتقين.

ولعظم الأمانة أبت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها، وذلك فى قوله تعالى : "إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها".(٩٠) وعلى الرغم من إختلاف العلماء فى ماهية هذه الأمانة، إلا أن الرأى الأعم فى هذا الصدد أن معنى الأمانة فى هذه الآية الطاعة والفرائض التى يتعلق بأدائها الثواب والعقاب، قال القرطبى : الأمانة تعم جميع وظائف الدين على الصحيح من الأقوال.(٩١)

والذى نريد إيضاحه فى هذا المقام، مدى المسئولية التى ستلقى على السماوات أو الأرض، أو الجبال، إذا ما قبلت أى منهم الأمانة، لذلك إمتنعن عن قبولها خوفاً من الخيانة، أو عدم أداء هذه الأمانة. والإنسان هو الذى تحمل هذه الأمانة وذلك فى قوله تعالى : "وحملها الإنسان أنه كان ظلوماً جهولاً".(٩٢)

وجدير بالذكر أن رسول الله ـ صلى الله عليـــه وســلم ـ قــد أوصى فى خطبة الوداع بالأمانة وذلك أن رسول الله عندما حج بالناس، أراهم مناسكهم، وأعلمهم سنن حجهم، وخطب فيهم خطبته التى بين فيها ما بين، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : "أيها الناس، اسمعوا قولى، فأنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا، بهذا الموقف أبداً، أيها النـــاس، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم، كحــرمة يومكـــم هذا، وكحرمة شهركم هذا، وأنكم ستلقون ربكم، فيسألكم عن أعمـــالكم، وقد بلغت، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من إئتمنه عليها....(٩٣)

الرحمـــة :

رحمة ــ من باب فرح ــ رحماً ورحمة ومرحمـــــة : أى رق قلبه له وعطف عليه، فهو راحم إسم فاعل. والرحمـــــة مشتقـــة مـــن الرحم،... وهى تطلق على الأقارب مجازاً (أولو الأرحـــام) واصلـــها جميعاً الرحم، وهو مكان الجنين فى بطن أمه.(٩٤)

قال تعالى :"ولا يحـــل لـــهن أن يكتمـــن مـــا خلـــق الله فـــى أرحامهن".(٩٥)

ولما كانت الرحمة تشتمل على كثير من الصفات الحميدة، مثل: العفو والعطف، والحنان، والرفق، والشفقة, والمغفرة.... لذلك آثرناهـــا دون غيرها من هذه الخصال حتى ندخلها ضمن القوى المعنوية لقتـــوة رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ والرحمة مـــن صفـــات الخـــالق سبحانه وتعالى، فهو القائل : "إن رحمة الله قريب من المسلمين". (٩٦) وقال تعلى : "وربك الغفور ذو الرحمة"(٩٧) وقال تعالى : "قاولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين"(٩٨)

والرحمة من أخص الصفات التى وصف بها الحق رســـول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقد تردد وصف سول الله بالرحمة فى كتاب الله فى أكثر من موضع نذكر منها : قوله تعالى : "ومـــا أرســـلناك إلا رحمة للعالمين".(٩٩) وقال تعالى : "لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم"(١٠٠)

وإذا ما نظرنا إلى مظاهر رحمته ــ عليه الصلاة والســـلام ــ نجد أنها تعددت وتنوعت، فوسعت المسلمين، وغير المسلمين، وإتسعت

للأصدقاء والأعداء، وشملت الأحرار والأرقاء، وإمتدت إلـــى الكبـــار والصغار، وإستوعبت الطير والحيوان.

ففى غزوة حنين ساق المسلمين الشيماء بنت الحارث ــ أخـــت الرسول من الرضاعة ــ إلى رسول الله، فعنفوا عليها فـــى السـياق، فقالت لهم : إعلموا أنى أخت صاحبكم من الرضاعة، فلـــم يصدقوهـــا، حتى أتو بها إلى رسول الله، فقالت : يا رسول الله، أنـــى أختـــك مـــن الرضاعة. قال : وما علامة ذلك؟ قالت : عضة منـــك فـــى ظـــهرى، فعرف رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ العلامة، فبسط لها رداءه، فأجلسها عليه وخيرها، وقال : إن أحببت فعندى محبـــة مكرمـــة، وإن أحببت أن أمتعك، وترجعى إلى قومك فعلت. فقـــالت : بـــل تمتعنـــى وتردنى إلى قومى.(١٠١)

وأصدق مثال على رحمة رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ موقفه من قريش يوم فتح مكة فلا يخفى على أحد ما لاقاه رســـول الله من إيـــذاء قريش له ولأصحابه، إلا أن موقفه ــ صلى الله عليه وســـلم ــ لم يكن مقابلة الإساءة بمثلها إنما كان موقفاً يدل على رجولة كاملـــة وفتوة تامة، موقفاً يدل على الرحمة، والعفو عند المقـــدرة، والمغفـــرة والإحسان إلى صاحب الإساءة والإيذاء.

فعندما دخل رسول الله مكة قام على باب الكعبة، فقال "لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهـــزم الأحـــزاب وحده،.... يا معشر قريش : إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية، مـــا ترون أنى فاعل فيكم؟ قالوا : خيراً أخ كريم، وإبن أخ كريـــم، قـــال : إذهبوا فأنتم الطلقاء".(١٠٢)

ثم جلس رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى المسجد، فقام إليه على بن ابى طالب ومفتاح الكعبة فى يده، فقال : يـــا رســـول الله، إجمع لنا الحجابة مع السقاية صلى الله عليك، فقال رســـول الله : "أيـــن عثمان بن طلحة؟ فدعى له، فقال : هاك مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم بر ووفاء.(١٠٣)

ومن مظاهر رحمته ــ صلى الله عليه وسلم ــ بالأطفال، أنـــه كان يؤتى بالصبى الصغير ليدعو له بالبركة، وليسميه، فيأخذه فيضعـــه فى حجره.... فربما بال الصبى، فيصيح به بعض من يـــراه، فيقـول النبى: لا تزموا (لا تقطعوا)الصبى بوله فيدعه حتى يقضى بوله، ثـــم يفرغ من دعائه له وتسميته، ويسر أهله به، لئلا يروا أنه تأذى ببولـــه، فإذا إنصرفوا غسل رسول الله ثوبه بيده.(١٠٤)

رأى الأقرع بن حابس رسول الله ــ صلى الله عليه وســـلم ــ، وهو يقبل ولده (الحسن أو الحسين) فقال : إن لى عشرة من الولد مـــا قبلت واحداً منهم فقال عليه الصلاة والســـلام : "إن مـــن لا يرحـــم لا يُرحم".(١٠٥)

وقال عبد الله بن شداد : بينما رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يصلى بالناس إذ جاءه الحسين، فركب عنقه وهـــو ســـاجد، فأطـــال السجود بالناس حتى ظنوا أنه قد حدث أمر، فلما قضى صلاته قـــالوا : قد أطلت السجود يا رسول الله حتى ظننا أنه قد حدث أمراً فقال عليـــه الصلاة والسلام: "إن إبنى قد إرتحلنى فكرهت أن أعجله حتى يقضـــى حاجته".(١٠٦)

كذلك من مظاهر رحمة رسول الله بالأطفال، أنه فى يوم تعثر الحسن ـ ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على منبره ـ فنزل فحمله وقرأ قوله تعالى : "إنما أموالكم وأولادكم فتنة".(١٠٧)

وإذا كانت رحمة رسول الله وسعت المسلمين وغير المسلمين، الأصدقاء والأعداء، وإمتدت للكبار والصغار، فإنها ـ أيضاً ـ قد شملت الأحرار والأرقاء فقد أوصى رسول الله بالأرقاء خيراً، إذ قال : "إتقوا الله فيما ملكت أيمانكم أطعموهم مما تأكلون، وأكسوهم مما تلبسون، ولا تكلفوهم من العمل ما لا يطيقون فما أحببتم فأمسكوا، وما كرهتم فبيعوا، ولا تعذبوا خلق الله فإن الله ملككم إياهم، ولو شاء لملكهم إياكم".(١٠٨)

بعث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنس بن مالك، لقضاء حاجة، فأبطأ عليه فتبعه فوجده فى فتية يلعبون، فما أذاه أو عنفه أو قال له قولا يغضبه، وإنما قال ـ عليه الصلاة والسلام : "يا أنس إذهب إلى حيث أمرتك".

وأمام هذه الأخلاق الكريمة والرحمة التى إتسعت إلى حد أنها شملت الأرقاء قال أنس بن مالك : كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أحسن الناس خلقاً فقد خدمته مدة عشر سنين فى السفر والحضر، والله ما قال لى شئ صنعته لم صنعت هذا هكذا؟ ولا لشئ لم أصنعه، لم لم تصنع هذا هكذا؟.

وقال عبد الله بن عمر : جاء رجل إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : يا رسول الله كم نعفو عن الخادم؟ فصمت عنه رسول الله... ثم قال : "أعف عنه فى كل يوم سبعين مرة"(١١٠)

ما أروع عفو رسول الله، وما أصدق رحمته ــ صلى الله عليه وسلم ــ بالأرقاء الذين لا يملكون من أمر أنفسهم شيئاً، فلم يقل لصاحب السؤال كلما أخطأ أعف عنه إنما قال :"أعف عنه فى كل يوم سبعين مرة" وذلك حتى يكون العفو مستمراً، والرحمة دائمة فى كل وقت من الأوقات، وليس فى وقت بعينه.

كذلك نجد أن رحمته ــ صلى الله عليه وسلم ــ "إمتددت إلى الطير والحيوان وكثيراً ما كان يدعو إلى رحمتها. فمن مظاهر هذه الرحمة قوله عليه الصلاة والسلام : "عذبت إمرأة فى هرة حبستها حتى ماتت فدخلت فيها النار، فلا هى أطعمتها وسقتها، ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض".(١١١)

وقال صلى الله عليه وسلم :"بينما رجل يمشى فى الطريق فأشتد العطش فوجد بئراً فنزل بها وشرب ثم طلع... فإذا كلب يلهث من العطش، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى بلغ منى، فملأ خفه ماء... ثم أمسكه بفيه فسقى الكلب، فشكر الله تعالى. فغفر له. فقال بعض الصحابة : يا رسول الله وأن لنا فى البهائم أجراً؟ فقال صلى الله عليه وسلم :" فى كل ذات كبد رطبة أجر".(١١٢)

رأى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ جزاراً قد أضجع شاة للذبح وأخذ يعد شفرته أمامها فقال له : "أتريد أن تميتها موتتين؟ هلا أحددت شفرتك قبل أن تضجعها.

ورأى جزاراً ــ أخر ــ يجر شاة من رجلها ليذبحها وقد إنقلبت على جنبها. فقال له رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ويلك قدها إلى الموت قودا جميلاً".(١١٣)

إذا كانت هذه بعض مظاهر رحمة رسول الله بالحيوان، فأنه من ضمن مظاهر رحمته بالطير، أنه سافر معه ــ صلى الله عليه وسلم ــ بعض أصحابه، فرأوا حُمَّره ــ نوع من الطير كـــالعصفور ــ معــها فرخان لها فأخذوهما، فجاءت تعرش فلما رأها رسول الله قـــال :"مــن فجع هذه بولدها؟ ردوا إليها ولدها".(١١٤)

مما سبق يتضح لنا أنه كثيراً ما أمر رسول الله ــ ــ صلى الله عليه وسلم ــ بالرحمة وكثيراً ما نهى عن القسوة، ووجدنا أن رحمته ــ صلى الله عليه وسلم ــ لم تكن فى جانب دون الأخر، إنما هى رحمـــة شملت شتى الجوانب، رحمة إتسعت للأصدقاء والأعـــداء وإســتوعبت الكبار والصغار، وشملت الأحرار والأرقـــاء، وإمتــدت إلـــى الطـــير والحيــوان والرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ فـــى ذلــك يضــرب الأمثال للناس لعلهم يعقلون.

الزهـــد:

قبل أن نتعرض للزهد عند رسول الله ــ صلى الله عليه وســـلم ــ نود أولاً أن نعرف معنى الزهد. فالزهد : زهد فى الشئ يزهد فيـــه وعنه، إحتقره وأعرض عنه وتركه ولم يرغب فيه.

وإذا كان هذا المعنى للزهد يعد تعريفاً لغوياً له. فـــإن صـــاحب التعريفات يزيد على المعنى اللغوى معناً آخر، وهو معنى الزهد عنـــد الصوفية. فيقول فى اللغة : ترك الميل إلى الشئ وفى إصطلاح أهـــل الحقيقة (صوفية) هو : بغض الدنيا والإعراض عنها. وقيل هو تـــرك راحة الدنيا طلباً لراحة الأخرة، وقيل هو : أن يخلو قلبك مما خلت منه يدك.(١١٦)

وإذا كان لا يوجد خلافاً على معنى الزهد من حيـث اللغـــة، إذ يعنى ترك الميل إلى الشئ، فإنه قد أتى الخلاف مـــن حيـــث المعنـــى المعنوى للزهد، أو بالأحرى معنى الزهد عند الصوفيـــة. وفـــى هـــذا الصدد يقول القشيرى : قال الأستاذ الإمام أبو القاسم رحمه الله : إختلف الناس فى الزهد، فمنهم من قال : الزهد فى الحرام لأن الحلال مبـــاح من قبل الله تعالى: .... ومنهم من قال : الزهد فى الحرام واجب وفـــى الحلال فضيلة.(١١٧)

وكان إبراهيم بن أدهم يقول : الزهد على ثلاثة أصناف : فرض ويكون فى الحرام وواجب ويكون فى الشبهات، وســـنة ويكـــون فـــى الحلال.(١١٨)

وقال الجنيد : الزهد خلو القلب عما خلـــت مـــن اليـــد.(١١٩) ومعنى ذلك أنه لا يكفى للزاهد أن يخرج الدنيا وزينتها وزخرفها مـــن

يده، وإنما لابد وأن يخرجهما ــ كذلك ــ من قلبه، فما قيمة زهد العبد ويده خالية من الدنيا وقلبه شغوف بها.

هذا وقد قسم الإمام أحمد بن حنبل الزهد على ثلاثه أوجه الأول ترك الحرام وهو زهد العوام، والثانى : ترك الفضول من الحلال وهو زهد الخواص. والثالث : ترك ما يشغل العبد عن الله تعالى وهو زهد العارفين.(١٢٠)

وعن معنى الزهد يقول سفيان بن عيينه : الزهد ثلاثة أحرف، فحرف الزاى : أن تترك زينة الدنيا، ومعنى الهاء : أن تترك هوى نفسك، ومعنى الدال : أن تترك الدنيا بأسرها.... فإذا فعلت ذلك فأنت زاهد.

وهكذا نكون قد سمعنا فى الزهد كلاماً كثيراً، ومن أحسن ما رأيناه فيه ما قاله أبو سليمان الدارانى : أنه الزهد فى كل شئ يشغل عن الله تعالى حتى العلم والعمل.(١٢١)

ومن كل ما سبق نصل إلى أن الزهد ما هو إلا وسيلة شريفة إلى غاية أسمى وأشرف وليس هو غاية فى ذاته، فالزاهد لا يزهد حتى يقال فلان زاهداً، وإنما هو زاهد حتى لا يشغله شئ عن الله عز وجل حتى ولو كان هذا الشئ علماً أو عملا لا يبتغى صاحبه من وراءه مرضاه الله عز وجل.

وجدير بالذكر فى هذا الصدد أن هذا المعنى للزهد قد تحقق فى شخصية رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ الذى زهد فى كل شئ يشغله عن الله عز وجل.

وإذا ما أردنا أن نستعرض بعض مظاهر الزهد فى حياة رسول الله، لوجدنا أن زهده ــ صلى الله عليه وسلم ــ كان المثل الأعلى فـــى الزهد الذى يدل على فتوة تامة ورجولـــة كاملـــة لأنـــه كـــان الزهـــد الإختيارى، أى أن رسول الله إختار الزهد مؤثراً على نفسه فقراء الأمة ومصالح المسلمين.

فقد روى مسروق عن عائشة ــ رضى الله عنهما ــ أنها قالت : قلت يا رسول الله، ألا تستطعم الله فيطعمك؟ قالت : وبكيت لما رأيت به من الجوع. فقال ــ صلى الله عليه وسلم ــ يا عائشة والذى نفســـى بيده لو سألت ربى أن يجرى معى جبال الدنيا ذهباً لأجراها حيث شئت من الأرض، ولكن إخترت جوع الدنيا على شبعها وفقر الدنيـــا علـــى غناها، وحزن الدنيا على فرحها. يا عائشة، إن الدنيا لا تنبغى لمحمـــد ولا لآل محمد يا عائشة إن الله لم يرضى لأولى العزم من الرســـل إلا الصبر على مكروه الدنيا، ثم لم يرضى إلا أن يكلفنى ما كلفهم ، وقـــرأ ــ صلى الله عليه وسلم ــ قوله وتعالى : " فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل".(١٢٢) وقال : والله مالى بـــد مـــن طاعتـــه، وإنـــى والله لأصبرن كما صبروا بجدى ولا قوة إلا بالله.(١٢٣)

وهكذا نجد أن رسول الله ــ صلى الله عليـــه وســـلم ــ إختـــار الزهد، إختار الجوع على الشبع، إختار الفقر على الغنى، إختار الحزن على الفرح.

فقد روى إبن عباس أن رسول الله ــ صلى الله عليه وســـلم ــ خرج ذات يوم يمشى وجبريل معه، فصعد على الصفا... فقال له النبى: يا جبريل ، والذى بعثك الحق ما أمسى لآل محمد كف سويق، ولا سنة

دقيق، فلم يكن كلامه بأسرع من أن يسمع هدة من السماء أفظعته، فقال رسول الله : أمر الله القيامة أن تقوم؟ قال جبريل لا، ولكن هذا إسرافيل ـ عليه السلام ـ قد نزل إليك حين سمع كلامك، فأتاه إسرافيل فقال : إن الله عز وجل سمع ما ذكرت، فبعثني بمفاتيح الأرض، وأمرني أن أعرض عليك إن أحببت أن أسير معك جبال تهامه زمرداً، وياقوتاً، وذهباً، وفضة.... فعلت،وإن شئت نبياً ملكاً، وإن شئت نبياً عبداً... فأومأ إليه جبريل أن تواضع لله. فقال صلى الله عليه وسلم ـ نبياً عبداً، ثلاثاً.(١٢٤)

وهكذا نجد أن رسول الله، لو علم أن المال يمكن أن يكون غاية للإنسان لبسط يده إليه فأخذه، ونعم به نفسه وصحابته وأمته جميعاً. لذلك إختار رسول الله أن يكون نبياً عبداً، يجلس كما يجلس العبد، ويأكل كمل يأكل العبد، دائم التفكير، لا يتكلم في غير حاجة، كثير البكاء والضراعه لله عز وجل، يمشي مع الفقراء والمساكين ليقضي حوائجهم، ويتواضع فيخيط نعله ويرقع ثوبه، ويحلب شاته، ويخدم أهله.(١٢٥)

هذا ويذكر لنا عمر بن الخطاب، مظاهر الزهد في حياة رسول الله، عندما قالت له إبنته حفصه حينما فتحت عليه الفتوح : إلبس ألين الثياب إذا وفدت الوفود من الأفاق، ومر بصنعة الطعام، تطعمه وتطعم من حضر.

فقال عمر : يا حفصة، ألست تعلمين أن أعلم الناس بحال الرجل أهل بيته؟ فقالت : بلى. قال : قد ناشدتك الله هل تعلمين أن رسول الله لبث في النبوة كذا وكذا سنه لم يشبع هو ولا أهل بيته غدوة إلا جاعوا

عشية، ولا شبعوا عشية إن جاعوا غدوة؟ وناشدتك الله هل تعلمين أن النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ لبث فى النبوة كذا وكذا سنه لم يشبع من التمر هو وأهل بيته حتى فتح الله عليه خيبر وناشدتك الله هل تعلمين أن رسول الله، قربتم إليه يوماً طعاماً على مائدة فيها إرتفاع، فشق ذلك عليه حتى تغير لونه، ثم أمر بالمائدة فرفعت، ووضع الطعام على دون ذلك، أو وضع على الأرض؟ وناشدتك الله، هل تعلمين أن رسول الله كان ينام على عباءة مثنية، فثنيت له ليلة أربع طاقات فنام عليها، فلما إستيقظ قال : "منعتمونى قيام الليل بهذه العباءة إثنونها بإثنين كما كنتم تثنونها". وناشدتك الله، هل تعلمين أن رسول الله، كان يضع ثيابه لتغسل فيأتيه بلال فيؤذنه بالصلاة فما يجد ثوباً يخرج به إلى الصلاة حتى تجف ثيابه يخرج بها إلى الصلاة؟... فمازال يقول حتى أبكاها وبكى عمر بن الخطاب رضى الله عنه وإنتحب.(١٢٦)

وتحدثنا السيدة عائشة عن معيشة رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قائله : كانت تأتى علينا أربعون ليلة وما يوقد فى بيت رسول الله مصباح ولا نار. فقيل لها : فبم كنتم تعيشون؟ قالت : بالأسودين : التمر والماء.(١٢٧)

حقاً لقد زهد رسول الله فى الدنيا مع قدرته عليها، وزهد فى المال مع قدرته على الإمتلاك، وزهد فى المأكل والمشرب، والملبس والفراش، مع قدرته على العيش فى رغد ونعيم، إذ أنه ــ عليه الصلاة والسلام ــ كان له فراش من أدم حشوه ليف، وكانت له عباءة تفرش له حينما تنقل تثنى طاقتين تحته وكان ينام على الحصير ليس تحته شئ غيره.(١٢٨)

وفى يوم أتى بإناء فيه عسل ولبن. فأبى رسول الله ــ صلـــى الله عليه وسلم ــ أن يشربه وقال : شربتان فى شربة وإدامان فى إنـــاء ثم قال ــ صلى الله عليه وسلم ــ لا أحرمه ولكن أكره الفخر والحساب بفضول الدنيا غداً وأحب التواضع فإن من تواضع لله رفعه الله. وكان ــ صلى الله عليه وسلم ــ لا يسألهم طعامـــاً ولا يشتـــهاه عليـــهم، إن أطعموه أكل، وما أعطوه قبل، وما سقوه شرب، وكان ربما قام فأخذ ما يأكل بنفسه أو يشرب.(١٢٩)

وجدير بالذكر فى هذا الصدد أن هذه الحياة الزاهدة التى إختارها رسول الله، جعلت نساءه يشتكين من أنهم لا يجدن ما يكفيهن من النفقة والزينة وإجتمعن فحدثن النبى بهذا فلم يفعل أكثر مـــن تخـــيرهن بيـــن الرضا الصابر أو التسريح الجميل وفى نفسه ــ صلى الله عليه وسلم ــ ألم من شكواهن لم يخفه عليهن، ولا على صاحبيه وصهريه أبى بكـــر وعمر... فقد دخل عليه أبو بكر وعمر فواجداه واجما وحوله نســـاؤه، ففهم أبو بكر أن إجتماعهم لشئ متصل برغبات فأراد أن يسرى عـــن رسول الله. فقال : يا رسول الله، لو رأيت بنت خارجة، سألتنى النفقـــة فقمت إليها فوجأت عنقها. فضحك رسول الله وقال : هن حولـــى كمـــا ترى يسألننى النفقة. فقام أبو بكر إلى عائشة يجأ عنقها، وقام عمر إلى حفصه يجأ عنقها... وهما يقولان : تسألن رسول الله ما ليـــس عنـــده؟ فقلن : والله لا نسأل رسول الله شيئاً أبداً ليس عنده ثم إعتزلهم رســـول الله شهراً فنزلت الآية الكريمة :"يا أيها النبى قل لازواجـــك إن كنتـــن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن ســـراحاً جميـــلاً.

وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة، فإن الله أعـــد للمحســنات منكن أجراً عظيماً".(١٣٠)

فقال رسول الله للسيدة عائشة : أريد أن أعرض عليـــك أمــراً أحب ألا تتعجلى فيه حتى تستشيرى أبويك. قالت : وما هو يا رســول الله؟ فقرأ الآية... فقالت : أفيك يا رسول الله أستشير أبوى؟ بل أختـــار الله ورسوله والدار الأخرة.

ثم خير النبى نساءه جميعاً، فأجبن بما أجابت به السيدة عائشـــة، ورضين بحال يستمتع بخير منها كثيرات من المعاصرات لهم ممن هن دونهم مكانه ومقاماً وصهراً(١٣١) ذلك لأنـــهن إخـــترن الله ورســوله والدار الأخرة، مفضلين ذلك على الحياة الدنيا وزينتها.

والآن نريد أن نتساءل هل كان رسول الله ــ صلى الله عليـــه وسلم ــ ذا ثراء ومال حتى يثبت أن زهده عن إقتدار؟

نعم كان لرسول الله مال، وكان ماله كثير فى بعض الأحيان، إذ كان له ــ عليه الصلاة والسلام ــ خمس الغنائم التى يصيبها المسلمون من محاربيهم، وقد كانت الحروب كثيرة،وكانت الغنائم موفـــورة منـــذ غزوة بدر، حتى إنتشر الإسلام فى سائر أنحاء الجزيرة العربية.

وهذا الخمس لم يحدده رسول الله إنما الذى حدده الله وذلك فـــى قوله تعالى : "وأعلموا إنما غنتم من شئ فإن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وإبن السبيل"(١٣٢)

ففى هذه الآية الكريمة حدد الحق سبحانه وتعالى أن الغنائم تقسم خمسة أخماس، للمجاهدين أربعة أخماس الغنيمـــة، وللرســول خمـــس

يختص به نفسه وأقاربه، واليتامى والمساكين وأبناء السبيل، كما هو واضح فى الآية.

كذلك كان لرسول الله نصيب من الفئ وهو الذى ناله المسلمون من أموال المشركين، وأهل الذمة، بغير حرب كالجزية، وما تركوه فى حروبهم خوفا من المسلمين وما صالحوا المسلمين عليه (١٣٣). كالصلح الذى تم مع صاحب أيلة، ويحدثنا إبن هشام عن هذا الصلح قائلا : ولما انتهى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ إلى تبوك أتاه يحنة بن رؤبة ــ صاحب أيلة ــ فصالح رسول الله، وأعطاه الجزية... وأتاه أهل جرباء وأذرخ فأعطوه الجزية فكتب رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ لهم كتابا يقول فيه : "بسم الله الرحمن الرحيم : هذه أمنة من الله ومحمد النبى رسول الله، ليحنة بن رؤبة وأهل أيلة، سفنهم وسيارتهم فى البر والبحر، لهم ذمة الله، وذمة محمد للنبى، ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر فمن أحدث منهم حدثا، فإنه لا يحول ماله دون نفسه، وإنه طيب لمن أخذه من الناس، وأنه لا يحل أن يمنعوا ما يردونه ولا طريقا يردونه، من بر أوبحر.(١٣٤)

وهكذا نكون قد إستعرضنا نماذج من زهد رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ذلك الزهد الذى يدل على فتوة كاملة ورجولة تامة، ذلك لأنه ــ عليه الصلاة والسلام ــ زهد فى الدنيا حين أقبلت عليه، وزهد فى المال الذى كان يأتيه كثيرا من الغنائم والفئ... مؤثرا فقراء ومساكين المسلمين على نفسه، وزهد فى المأكل والملبس والفراش مع قدرته ــ عليه الصلاة والسلام ــ على العيش فى رغد ونعيم. مؤثرا الدار الباقية على الدار الفانية، بعد أن علم أن الدنيا بزينتها وزخرفها لا تساوى عند الله جناح بعوضه.

هوامش
الفصل الثانى

(١) سورة الانبياء : الآية ٦٠

(٢) التفسير الوسيط : الحزب ٣٣ ص١١٣١ مجموع البحوث الاسلامية ٨٣

(٣) ابن عربى : الفتوحات المكية السفر الرابع ص٦٥ تحقيق د. عثمان يحي

(٤) سورة الزاريات : الآيات ٢٤ ــ ٢٦

(٥) القشيرى : لطائف الاشارات جـ ٦ ص٣٣، ٣٤

(٦) القشيرى : لطائف الاشارات جـ ٦ ص٣٤ دار الكتاب العربى القاهرة

(٧) سورة النجم : الآية ٣٧

(٨) سورة هود : الآية ٧٥

(٩) سورة الأنبياء : الآية ٦٩

(١٠) سورة يوسف : الآية ٣٠

(١١) سورة يوسف : الآية ٣٣

(١٢)القشيرى : لطائف الاشارات جـ٣ ص١٨٣ دار الكتاب العربى بالقاهرة

(١٣) أحمد الصباحى عوض الله : حياة وأخلاق الأنبياء ص١٤٥ط/ أولى ٨٣

(١٤) سورة يوسف : الآية ٢٣

(١٥) سورة يوسف : الآية ٩، ١٠

(١٦)سورة يوسف : الآية ٢٠

(١٧) سورة يوسف : الآية ٥٠

(١٨) الشعرانى : اليواقيت والجواهر جـ ٢ ص١٤، ١٥ مطبعة البابى الحلبى ١٩٥٩.

(١٩) سورة يوسف : الآية ٩٣

(٢٠) سورة الكهف : الآية ١٣

(٢١) سورة الكهف : الآية ١٠

(٢٢) القشيرى : لطائف الاشارات جـ ٤ ص٥٢

(٢٣) سورة الكهف : من الآية ١٨

(٢٤) القشيرى: لطائف الاشارات جـ ٤ ص٥٦

(٢٥) القشيرى : لطائف الاشارات جـ ٤ ص٥١

(٢٦) سورة الكهف : الآية ٦٠

(٢٧) سورة الكهف : الآية ٦٢

(٢٨) سورة يوسف : الآية ٦٢

(٢٩) ابن هشام : السيرة النبوية جـ ١ ص٢٢١ مكتبة الكليات الأزهرية ٧٤

(٣٠) ابن هشام : السيرة النبوية جـ ٢ ص٣٥

(٣١) ابن هشام : السيرة النبوية جـ ص٢٩٠

(٣٢) عمر الدسوقى : الفتوة عند العرب ص١٤٣ دار نهضة مصر ١٩٦٦

(٣٣) سورة الأنفال : الآية ٦٠

(٣٤) سورة التوبة : الآية ٤١

(٣٥) سورة التوبة : الآية ١١١

(٣٦) سورة الأنفال : الأيتان ١٥، ١٦

(٣٧) سورة فصلت : الآيات ١ ـ ٥

(٣٨) ابن هشام : السيرة النبوية جـ١ ص٢٦١ مكتبة الكليات الأزهرية سنة ١٩٧٤

(٣٩) ابن هشام : السيرة النبوية جـ ١ ص٢٤٠ ـ مكتبة الكليات الأزهرية ٧٤

(٤٠) ابن هشام : السيرة النبوية جـ ١ ص١٧٠

(٤١) د. أحمد محمد الحوفى : من أخلاق النبى ص٨٠ ــ دار النهضة ٧٩

(٤٢) الغزالى : إحياء علوم الدين جـ ٢ ص٣٨٠

(٤٣) ابن هشام : السيرة النبوية جـ٣ ص١٦، ١٧

(٤٤) ابن هشام : السيرة النبوية جـ٣ ص٢٨

(٤٥) المرجع السابق : ص٢٨

(٤٦) المرجع السابق جـ ٤ ص٦٤، ٦٦

(٤٧) د. أحمد محمد الحوفى : من أخلاق النبى ص٩٠ دار نهضة مصر سنة ١٩٧٩

(٤٨) ابن القيم : الفروسية ص٢٥، ٢٦ دار التراث العربى

(٤٩) د. أحمد محمد الحوفى : من أخلاق النبى ص٨٧ ــ دار نهضة مصر ٧٩

(٥٠) ابن هشام : السيرة النبوية جـ ٣ ص٤٣

(٥١) د. أحمد محمد الحوفى : من أخلاق النبى ص٨٧

(٥٢) المرجع السابق ص٨٧

(٥٣) ابن القيم : الفروسية ص١٤ دار التراث العربى

(٥٤) ابن القيم : الفروسية ص١٤ دار التراث العربى

(٥٥) المرجع السابق : ص١٤٦

(٥٦) د. أحمد محمد الحوفى من أخلاق النبى ص٨٧ دار نهضة مصر ٧٩

(٥٧) ابن القيم : الفروسية ص٥ دار التراث العربى

(٥٨) المرجع الاسبق : ص٦

(٥٩) ابن هشام : السيرة النبوية جـ٢ ص٢٨ مكتب الكليات الازهرية ٧٤

(٦٠) ابن القيم : الفروسية ص٢٨ دار التراث العربى

(٦١) د. أحمد محمد الحوفى : من أخلاق النبى ص٨٨ دار نهضة مصر ٧٩

(٦٢) المرجع السابق : ص٨٩

(٦٣) سورة الأنفال : الآية ٦٠

(٦٤) د. أحمد محمد الحوفى : من اخلاق النبى ص٩٣

(٦٥) سورة الفتح : الآية ٢٩

(٦٦) د. عبد الحليم محمود : الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ ص١٨٥

(٦٧) سورة القلم : الآية ٤

(٦٨) الطوسى ، اللمع ص١٣٩ ــ تحقيق د. عبد الحليم محمود، طه عبد الباقى سرور طـ ١٩٦٠

(٦٩) د. أحمد محمد الحوفى : من اخلاق النبى ص٩٧ ــ دار نهضة مصر ٧٩

(٧٠) الغزالى : احياء علوم الدين جـ٢ ص٣٧٩

(٧١) المرجع السابق : ص٣٧٩

(٧٢) الغزالى : أحياء علوم الدين جـ٢ ص٣٨٠

(٧٣) د. أحمد محمد الحوفى : من أخلاق النبى ص١٠١، ١٠٢ ــ دار نهضة مصر ٧٩

(٧٤) الغزالى : إحياء علوم الدين ــ جـ٣ ص٢٤٣، وذكره أبو نعيم الحليه.

(٧٥) الغزالى : إحياء علوم الدين جـ٣ ص٢٤٤

(٧٦) المرجع السابق : جـ٣ ص٢٤٥، اخرجه الترمذى

(٧٧) اللؤلؤ والمرجان : جـ١ ص٢٤٥

(٧٨) الغزالى : أحياء علوم الدين جـ ٣ ص٢٥٣

(٧٩) سورة آل عمران : الآية ١٨٠

(٨٠) سورة الحشر : الآية ٩٠

(٨١) د. أحمد محمد الحوفى : من اخلاق النبى ص١٤٣ ــ دار النهضة ص٧٩

(٨٢) سورة النساء : الآية ٥٨

(٨٣) سورة البقرة : الآية ٣٨٧

(٨٤) سورة المؤمنون : الآية ٨، سورة المعارج : الآية ٣٢

(٨٥) سورة القصص : الآية ٢٦

(٨٦) د. أحمد محمد الحوفى : من أخلاق النبى ص١٤٤

(٨٧) ابن هشام : السيرة النبوية جـــ١ ص١٨٢

(٨٨) الغزالى : إحياء علوم الدين جـــ٣ ص١٣٣

(٨٩) الغزالى : مكاشفة القلوب ص٤٧ ــ مكتبة نصير ٧٨

(٩٠) سورة الأحزاب : الآية ٧٢

(٩١) الغزالى : مكاشفة القلوب ص٤٦

(٩٢) سورة الأحزاب : الآية ٧٢

(٩٣) إبن هشام : السيرة النبوية جـــ ٤ ص١٨٥

(٩٤) إبراهيم احمد عبد الفتاح : القاموس القويم للقرآن الكريم جـــ١ ص٢٦٠ ــ مجمع البحوث ٨٣

(٩٥) سورة البقرة : الآية ٢٢٨

(٩٦) سورة الأعراف الآية ٥٦

(٩٧) سورة الكهف : الآية ٥٨

(٩٨) سورة الأنبياء : الآية ١٠٧

(٩٩) سورة البقرة : الآية ٦٤

(١٠٠) سورة التوبة : الآية ١٢٨

(١٠١) ابن هشام : السيرة النبوية جـــ ٤ ص٧٥

(١٠٢) المرجع السابق : ص٤١

(١٠٣) المرجع السابق : ص٤١،٤٢

(١٠٤) الغزالى : إحياء علوم الدين جـ ٢ ص٢١٧

(١٠٥) المرجع السابق : ص٢١٨

(١٠٦) الغزالى : إحياء علوم الدين جـ ٢ ص٢١٨

(١٠٧) سورة التغابن : الآية ١٥

(١٠٨) الغزالى : إحياء علوم الدين جـ ٢ ص٢١٩

(١٠٩) أحمد الصباحى عوض الله : حياة واخلاق الانبياء ص٢٠٧ ــ مكتبة مدبولى ٨٣

(١١٠) الغزالى : أحياء علوم الدين جـ ٢ ص٢٠٩

(١١١) الزبيدى : تيسير الوصول جـ ٢ ص٥٢ طـ ١٣٢١ هـ

(١١٢) الغزالى : مكاشفة القلوب ص٧٤ مكتبة نصير ١٩٧٨

(١١٣) أحمد الصباحى عوض الله : حياة وأخلاق الانبياء ص٣٤٥ مكتبة مدبولى ٨٣

(١١٤) الزبيدى : تيسير الوصول جـ ٢ ص٥٢

(١١٥) إبراهيم أحمد عبد الفتاح : القاموس القويم للقرآن الكريم جـ١ ص ٢٩٠

(١١٦) الجرجانى : التعريفات ص١٠١، ١٠٢ البابى الحلبى ٣٨

(١١٧) القشيرى : الرسالة ص٦٠

(١١٨) الشعرانى : تنبية المغترين ص١١٨

(١١٩) الكلاباذى : التعرف لمذهب أهل التصوف ص١١٢

(١٢٠) القشيرى : الرسالة ص٦٢

(١٢١) الشعرانى : تنبية المغترين ص١٨٨

(١٢٢) سورة الأحقاف : الآية ٣٥

(١٢٣) الغزالى : إحياء علوم الدين جـ ٤ ص٢٢١

(١٢٤) الغزالى : إحياء علوم الدين جـ ٢ ص٢٢٣

(١٢٥) د. حسن الشرقاوى : أصول التصوف الإسلامى ص١٧ طـ ١٩٨٦

(١٢٦) الغزالى : إحياء علوم الدين جـ ٤ ص٢٢١، ٢٢٢

(١٢٧) ابن المبارك : الزهد جـ ١ ص٣٤٥

(١٢٨) الغزالى : إحياء علوم الدين جـ ٢ ص٣٧٦

(١٢٩) المرجع السابق ص٣٧٣

(١٣٠) سورة الأحزاب : الايتان ٢٨، ٢٩

(١٣١) د. أحمد محمد الحوفى : من أخلاق النبى ص٢٧٦، ٢٧٧ ـ دار نهضة مصر

(١٣٢) سورة الأنفال : الآية ٤١

(١٣٣) د.أحمد محمد الحوفى : من أخلاق النبى ص٢٦٦ ـ دار نهضة مصر ٧٩

(١٣٤) إبن هشام : السيرة النبوية جـ٤ ص ٤ ١٢٥ ـ مكتبة الكليات الأزهرية ١٩٧٤

الفصل الثالث
من فتيان المسلمين

لا جدال أن مدرسة النبوة القائمة على دعائم الإســـلام وهــدى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قد أخرجت للبشرية رجالا أفذاذ، أخذوا القدوة الصالحة والأسوة الحسنة من معلم الإنسانية ــ صلى الله عليه وسلم ــ فاهتدوا بهديه واقتبسوا من نوره مثلا عليا نادرة على مر التاريخ.

وكيف لا يكون الأمر كذلك، والحق سبحانه وتعالى يقول : "لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة".(١)

لهذا فقد إمتثل صحابة رسول الله لأوامر الحق تعـــالى، فكـــان رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ معلمهم وقدوتهم الصالحة الطيبة، والأسوة الحسنة الكريمة، سواء فى الشجاعة والقوة وفى الوفاء والعدل، والكرم، والعفو، والزهد ، والرحمة والمغفرة...

حتى صار كل واحد منهم يعدل أمة كاملة فى رجولته، ورجاحة عقله، ونفاذ بصيرته وتمام فتوته. ذلك لأنهم تأدبوا وتعلموا فى مدرسة النبوة وعلى يد رسول الله، فأحسن تأديبهم وتعليمهم، ولذا قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ :" أصحابى كالنجوم فبأيهم إقتديتم إهتديتـــم". فكانوا أجزل الرجال وأتمهم عقلا ورجولة وبطولة ــ ونماذج فذة فـــى الأخلاق الكريمة بهرت الفرس وزلزلت عروشهم فدانت لهم ديـــارهم، وجعلت المسيحين فى أرض الروم يدخلون فى دين الله أفواجا.(٢)

وفى هذا الصدد يقول السير أرنولد : وإذا ما نظرنا إلى التسامح الذى إمتد على هذا النحو إلى رعايا المسلمين من المسيحين فى صـــدر الحكم الاسلامى ظهر أن الفكرة التى شاعت بأن السيف كان العامل فى تحويل الناس إلى الإسلام بعيدة التصديق.(٣)

حقا أن سماحة الاسلام كان هو العامل الاساســـى فـــى إنتشـــار الدعوة الإسلامية وليس السيف كما يدعى الكثير ممن يجـــهلون حقيقـــة الإسلام. وهذا التسامح من أثر التعاليم الإسلامية التى وردت فى كتاب الله، ومن أثر معاملة رسول الله ــ صلى الله عليه وســـلم ــ لأعدائـــه وقدوته لأصحابه.

ووما هو جدير بالذكر أنه لا يسعنا المقام حتى نستعرض سمات القوة بشقيها المادى والمعنوى فى حياة صحابة رسول الله ــ كافـــة ــ وإنمـــا سنكتفى بأن نستقى بعض النماذج عسى أن نقتدى بها حتى تكون لنا هاديا إلى ما فيه الحق والخير والصواب.

أبو بكر الصديق

يذكر إبن هشام أن على بن أبى طالب كان أول ذكر من النـــاس أسلم مع رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وأمن بدعوته، ثم أسـلم زيد بن حارثة (مولى رسول الله) ثم أسلم أبو بكر بن أبى قحافة، وإسمه عتيق.(٤)

وقد أشاد رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بسرعة إستجابة أبى بكر إلى الإسلام قائلاً : ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت فيـــه

عنده كبوة، ونظر وتردد إلا ما كان من أبى بكر بن أبى قحافة، ما عكم عنه حين ذكرته له، وما تردد فيه"(٥)

وإذا ما أردنا أن نتعرف على السمات الحميدة والخصال الرشيدة والتى من خلالها نستطيع أن نتعرف على الفتوة فى شخصية الصديـــق نجد أن أبرز هذه السمات واوضح هذه الخصال،السخاء والكرم.

فقد كان أبو بكر يجود بالمال ولا يبخل، وليس جوده وكرمه من أجل إطعام الطعام فحسب بل تعدى جوده وكرمه أبعد من ذلك إلى إنقاذ الحياة من الهلاك والموت ومن الأمثلة الدالة على ذلك موقفه مع بـــلال عندمـــا مر به وهو يعذب فى بطحاء مكة، وقت الظهيرة. فقال أبـــــو بكر لأمية بن خلف : ألا تتقى الله فى هذا المسكين؟ حتى متى؟ قـــال : أنت الذى أفسدته فأنقذه مما ترى، فقال أبو بكر، عندى غلام أسود أجلد منه وأقوى، على دينك، أعطيكه به. قال : قد قبلت... هولك. فأعطـــاه أبو بكر الصديق غلامه وأخذ بلال فأعتقه.(٦)

وهنا نريد أن نتسائل، هل كان أبو بكر الصديق يهدف من وراء ذلك الكرم المجد والرياسة والسؤدد فى القبيلة أم أنه كان يريد شيئاً آخر خلاف ذلك؟ وتأتى الإجابة على هذا التساؤل على لسان أبو بكر نفســـه ــ عندما قال له أبوه (أبو قحافة) : يا بنى، أنـــــى أراك تعتـــق رقابـــاً ضعافاً، فلو أنك إذا ما فعلت أعتقت رجالاً جلداً يمنعونـــــك ويقومـــون دونك؟ فقال الصديق : يا أبت، أنى إنما أريد ما أريد لله عز وجل.(٧)

مما سبق يتضح لنا أن ما يبتغيه الصديق، إنما هو مرضـــاه الله عز وجل ولا يهدف من وراء هذا المجد والسيادة، كما هو الشأن فـــى الجود والكرم فى الجاهلية. وفى سبيل ذلك لاقى أبو بكـــر مـــن قومـــه

الأذى، حتى ضاقت عليه مكة، فإستأذن رسول الله ــ صلى الله عليــــه وسلم ــ فى الهجرة فأذن له،ة فخرج أبو بكر مهاجراً؟، حتى إذا ســـار من مكة يوماً أو يومين... لقيه إبن الدغنة، وهو يومئذ سيد الأحابيش* .

فقال إبن الدغنة : أين يا أبا بكر؟ قال : أخرجنى قومى وأذونى، وضيقوا على فقال : ولم؟ فوالله إنك لتزين العشيرة، وتعين على النوائب وتفعل المعروف، وتكسب المعدوم... أرجع فأنت فى جــوارى، فرجــع معه.

وكان لأبو بكر مسجد عند باب داره، فكان يصلى فيه ويتعبــد، وكان رجلاً رقيقاً إذا قرأ القرآن بكى من خشية الله... وكــان الصبيــان والعبيد والنساء يعجبون لما يرون من هيئته فمش رجال من قريش إلى إبن الدغنة، فقالوا : يا بن الدغنة إنــك تجــر هــذا الرجــل ليؤذينــا، إنه رجل إذا صلى وقرأ ما جاء به محمد يرق ويبكى... ونحن نتخــوف على صبياننا ونسائنا وعبيدنا أن يفتنهم، فأته فمره أن يدخل بيته فليصنع فيه ما يشاء... فمشى إبن الدغنة إليه فقال له : يا أبا بكر، أنى لم أجرك لتؤذى قومك، فأدخل بيتك فاصنع فيه ما أحببت فقال أبو بكــر : أو أرد عليك جــوارك، وأرضى بجوار الله؟ قال : فأردد على جوارى قــال : قد رددته عليك. فقام إبن الدغنة فقال يا معشر قريش، إن إبــن أبــى قحافة قد رد على جوارى فشأنكم بصاحبكم.(٨).

لقد أُرنا أن نروى هذه القصة ــ كما ذكرها إبن هشام ــ ذلــك لأنها تتضمن ــ العديد من السمات التى يتحلى بها الفتيان وأهــم هــذه

---

* الأحابيش، قبائل من بنى الحارث بن عبد مناه بن كنانه، والهون بن خزيمة بن مدركة وبنو المصطلق من خزاعه، تحالفوا جميعا فسموا هذا الحلف (الاحابيش)

السمات ما شهد به إبن الدغنة ـ نفسه ـ فى حق أبى بكر حين قـــال : إنك لتزين العشيرة، تعين على النوائب، وتفعـــل المعـــروف وتكســـب المعدوم. من هذه الشهادة يتضح لنا أن هذه الصفـــات كـــانت ســـمات أساسية فى شخصية أبى بكر الصديق قبل الإسلام، وبعده.

وإذا كانت هذه الصفات تجعل صاحبها حسب رأى إبن الدغنة، يزين العشيرة وترفعه إلى مرتبة المجد والسيادة فى قومه، وهذا غاية ما يبتغيه الفتى فى المجتمع الجاهلى.

إلا أننا نجد أن هذه الصفات التى يتحلى بها الصديق لـــم تكـــن لغرض دنيوى أو بهدف السيادة أو إبتغاء المجد والرياسة فـــى قومـــه، وإنما كان يهدف إلى نصره إخوانه المسلمين الذين يعذبون فى بطحـــاء مكة، وإبتغاء مرضاة الله ورسوله.

وفى هذه القصة ـ أيضاً ـ تتجلى شجاعة الـــرأى فـــى فتـــوة الصديق، إذ أنه آثر المشقة والأذى فرد على إبن الدغنة جـــواره، ولـــم يستجب إلى ما يدعوه إليه، ورضى بجوار الله عز وجل.

وإذا كان الإيثار من أهم الصفات التى يتحلى بها الفتى ـ فـــى الإسلام ـ فقد روى أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال لأبو بكر :"ما أصبح اليوم عند آل محمد من شئ يقوتهم" فأتاه أبو بكر بجميع ماله حتى وضعه بين يديه، فقال له رسول الله : " ما تركت لأهلك يا أبا بكر". فقال : الله ورسوله.(٩)

وهكذا يثبت أبو بكر صدق محبته لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى أنه آثره على نفسه وأهله بكل ماله. وقال لرسول الله عندما سأله ما تركت لأهلك الله ورسوله.

وجدير بالذكر أن هذا الرد يعد غاية الأدب من أبى بكـر حيـن قرن رسول الله مع الله تعالى فتحاً لباب، أن رسـول الله ـ صلـى الله عليه وسلم ـ لو قدر أنه رد على أبى بكر شيئاً من ماله لكان قبله مـن يده ـ صلى الله عليه وسلم ـ لكونه ترك رسول الله لأهله يعولهم، فما حكم أبو بكر فى ماله إلا ما إستتابه رب المال.(١٠)

وإذا كان الفتى يقتدى برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى إختياره للزهد، فيختار الجوع على الشبع، ويختار الفقر علـى الغنـى، ويختار الحزن على الفرح، فإن الصديق خليفة رسول الله، قد أكد على هذا، ودلل عليه بالدليل الواضح، فقد روى عنه الزهرى أنه حين بويـع بالخلافه، إعتلى المنبر وخطب وقال فى أثناء الخطبـة : ... والله مـا كنت حـريصاً على الإمارة يوماً، ولا ليله قط، ولا كنت فيها راغبـاً، ولا سألتها لله قط فى سر ولا علن، ومالى فى الإمارة من راحة.(١١)

ويطول بنا المقام إذا ما إستعرضنا مظاهر الزهـد فـى حيـاة الصديق، ولكن نكتفى بهذا القدر من معرفة سمات الفتوة عند الخليفـة الأول أبو بكر الصديق وننتقل الآن إلى فتى آخر من فتيان المسـلمين حتى نتعرف على سمات الفتوة عنده.

عمر بن الخطاب :

لقد إجتمعت فى شخصية الفاروق عمر بن الخطـــاب صفـات الرجولة الكاملة وسمات الفتوة التامة، فكانت شخصيته تعـــبر تعبـيراً صادقاً عن طبيعة الفتيان بما تحويه من صفات وسمات مثل : الشجاعة، والحزم، والغيرة، على الشرف والنجدة والنظـــام، والطاعـــة، وتقديـــر الواجب...

إلى جانب ذلك فقد إختار عمر بن الخطاب لبس المرقعة تزهداً ـــ وهو أمير المؤمنين ـــ وترك الشهوات، وإجتناب الشبـــهات، وقلـــة المبالاة من لائمة الخلق عند إنتصاب الحق، ومحق الباطل، ومســـاواة الأقارب ، والأعداء فى الحق، والتمسك بالأشد من الطاعات.(١٢)

وإذا كان العدل من أخص الصفات التى إتصف بـــها الفـــاروق عمر، فإن هذا العدل إنما هو نتيجة محاسبة النفس التى الزم بها عمـــر نفسه وذويه، ورعيته، فقد روى عن عمر بن الخطاب أنه قال : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا قبل أن توزنوا... وأنه كـــان يضـــرب قدميه بالدرة إذا جنه الليل ويقول لنفسه : ماذا عملت اليوم.(١٣)

يقول الأحنف بن قيس : كنت مع عمر بن الخطالب، فلقيه رجل فقال : يا أمير المؤمنين انطلق معى فإعدنى على فلان فقد ظلمنـــى.... فرفع عمر درته، وخفق بها رأس الرجل وقال لـــه : تدعـون أمـير المؤمنين وهو معرض لكم مقبل عليكم، حتى إذا أشغل بأمر من أمـــور المسلمين أتيتموه، أعدنى... أعدنى... فانصرف الرجل غضبان آسفاً... فقال عمر : على بالرجل... فلما عاد ناوله مخفقته وقـــال لـــه : خـذ واقتصى لنفسك منى فقال الرجل : لا والله ولكن ادعها لله. وانصرف..

ويستطرد الأحنف بن قيس قائلا : وعدت مع عمر إلـــى بيتــه فصلى ركعتين، ثم جلس يحاسب نفسه ويقول : إيـــن الخطـــاب كنـــت وضيعا فرفعك الله، وكنت ضالا فهدك الله، وكنت ذليلا فأعزك الله... ثم حملك على رقاب الناس، فجاءك رجل يستعديك فضربته، فماذا تقـــول لربك غدا إذا أتيته.(١٤)

ماذا تقول لربك غدا... فى هذه العبارة الموجـــزة تتضـــح لنـــا محاسبة النفس وتأديبها عند عمر بن الخطاب، هذه المحاسبة التى كانت منهاجه فى الحياة، أمام كل لقمة شهية، وأمام كل شربة باردة وأمام كل ثوب جديد تساقط دموعه... تلك الدموع التى تركت على خديه خطيـــن أسودين من فرط بكائه، ويصلصل داخل نفسه هذا النذير : ماذا تقـــول لربك غدا.

لقد حاسب عمر نفسه وأدبها حتى تستقيم، وتدرك أن مـــا هـــى عليه من نعم ليس بحولها ولا قوتها، وإنما هو فضل من الله ومنة، ولقد وهبها الله تعالى هذه النعم كوسيلة لإختبار معدنها، وهذه المحاسبة حتى تتخلص النفس من كل وصف مذمـــوم وتســتبدل بـــه كـــل وصـــف محمود.(١٥)

وإذا كانت القوة والبطش من سمات الفتيان فقد كانت هذه السمة واضحة جلية لا تخفى على أحد فى شخصية الفاروق إلا أنها لم تكـــن قوة وبطش إلا باسم الدين، قوة فى تنفيذ أوامر الله، وبطش على إعداء الله لاجتناب ما نهى عنه سبحانه وجدير بالذكر أن هذه القوة والبطـــش والشدة على الأعداء ومن يخالفون أوامر الله عز وجل، كـــان يقابلـــها رحمة ومودة وعطف على المؤمنين الذين يتبعون أوامر الله ويجتنبـــون

ما نهى عنه. وصدق الله تعالى إذ قال :"محمد والذين معه اشداء على الكفار رحماء بينهم".(١٦)

ويطول بنا المقام إذا ما اردنا أن نعرض لمواقف الرحمة فـــى حياة عمر بن الخطاب انما نكتفى بأن نقتبس منها النذر القليل، عسى أن تكون لنا نبراسا فى هذه الحياة التى طغى عليها العنف والقســوة. فقــد خرج عمر بن الخطاب يوما مع أحد أتباعه، فوجد إمرأة معها صبيـــان وقدر منصوب على نار.... وصبيانها يتصايحون..... فدنا منها عمـــر وقال للمرأة : ما بال هؤلاء الصبية يتصايحون؟ قالت. الجـــوع : وأى شئ فى هذا القدر؟ قالت : ماء اسكتهم به حتى ينـــاموا.... والله بيننـــا وبين عمر قال : أى رحمك الله. وما يدرى عمر بكم؟ فقالت : يتولـــى أمرنا ثم يغفل عنا؟ فتركهم عمر ومعه تابعه، وذهب إلـــى دار الدقيــق وأخذ منه مقدارا ومقدار من شحم... وقال لتابعه : أحمله على فقال : أنا أحمله عنك يا أمير المؤمنين قال : أأنت تحمل وزرى يوم القيامة؟

ورجع عمر بما يحمل إلى المرأة... وبقى معها يساعدها حتـــى طبخت وأطعمت صبيانها حتى شبعوا... وهى تقول له جزاك الله خيرا، كنت بهذا الأمر أولى من أمير المؤمنين.(١٧)

وأمثال هذه القصة فى سيرة عمر كثـــير، لا يقـــال أنـــها هـــى ومثيلاتها من الشعور بالمسئولية، وليست مـــن الرحمـــة، لأن العـــهد بالشعور بالمسئولية أن يأتى من الرحمة وليس العهد بالرحمة أن يـــأتى من الشعور بالمسئولية.

بالإضافة إلى هذا، فموقف عمر هنا لو كـــان نتيجـــة الشعـــور بالمسئولية، لكان إكتفى بأن أرسل الدقيق والشحم إلى المرأة مـــع أحـــد

أتباعه، أو على الأكثر لكان ذهب بنفسه إلى المرأة وإعطاهـــا الطعـــام دون أن ينتظر ويساعدها حتى تطعم صبيانها. ولكن الرحمة هى التى سيطرت على الفاروق فى هذا الموقف.

وجدير بالذكر أن صفة الرحمة فى شخصية عمر بن الخطـــاب إتسعت وإمتدت حتى شملت أهل الذمة، فعندما رأى شيخاً ضريراً يسأل على باب، وعلم أنه يهودى..قال له : ما الجأك إلى هذا؟ قال : أســـأل الجزية والحاجة والسن فأخذ عمر بيده وذهب به إلى منزله، فأعطاه ما يكفيه ساعتها... وأرسل إلى خازن بيت المال يقول : أنظر هذا وأمثاله، فوالله ما أنصفناه إن أكلنا شبيبته ثم نخزله عند الهرم إنمـــا الصدقـــات للفقراء والمساكين، والفقراء هم المسلمون وهذا من المساكين من أهـــل الكتاب... ووضع عنه الجزية وعن أمثاله.(١٨)

هذه الرحمة عند عمر بن الخطاب كان المحرك لها المحاســـبة لنفسه وتأديبها وذلك النذير الذى كان يصلصل داخال نفسه : ماذا تقول لربك غداً إذا أتيته؟

وإذا كنا قد وجدنا أن رسول الله ــ صلى الله عليـــه وســـلم ــ إختار الفقر على الغنى وإختار الجوع على الشبع، وإختار الحزن على الفرح، وإقتدى به فى هذا الشأن أبو بكر الصديق، فـــإن عمـــر كـــان يستحضر هذا دائماً ويكره أشد الكره أن يأكل أو يلبس خيراً مما أتيـــح للنبى ولأبو بكر.

ومما يذكر فى هذا الصدد أنه طلب منه يوماً بعض أصحابه أن يرفق بنفسه فيما يطعم أو يلبس، فكانت إجابته صادرة عن المنهج الذى إرتضاه لنفسه فى الحياة والدنيا، إذ قرأ ــ عليه ــ قول الله عز وجل :

"أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجـــزون عــذاب الهون بما كنتم تســـتكبرون فـــى الأرض بغـير الحــق وبمــا كنتــم تفسقون".(١٩)

ومن أجل هذا إختار عمر حياة الزهد علـــى حيـــاة الـــترف، إذ فرض على نفسه أضيق الحياة فى المأكل والمشرب والملبس... مع أنه لم يكن فقيراً، ومع أن المسلمين جعلوه فى حل من أن يأخذ مـــن بيـــت المال حاجته، وهو لم يفعل ذلك بخلاً أو ضناً على نفســـه بمـــا كـــانت تقتضيه الحياة الراضية من المال. وإنما فعل إيثارا لما عنـــد الله فـــى الآخرة على ما فى الدنيا من ألوان المتاع.(٢٠)

وهكذا عزله خوفه من الله عن كل ترف، بل عن كل راحة فى الدنيا، أبى أن يصيب وأهله من الطعام إلا تقوتاً، ومن العيش إلا كفافـــاً مع قدرته على أن يصيب من الطعام أطيبه، ومن العيش أرغده.

عثمان بن عفان

إجتمعت فى شخصية عثمان بن عفان كثيراً من الخصال الحميدة التى تمثل القوى المعنوية للفتوة مثل السخاء والكرم،وسماحة النفس، والرفق والرحمة والحلم... وكانت الخصلة التى ميزه بها النبى فيما روى المحدثون وأصحاب السير، صدق الحياء وكان النبى يقول : "إن الملائكة لتستحى من عثمان". وكان رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يلقى أصحابه متفضلاً غير متكلف، فإذا أذن لعثمان إحتشم وقال : "كيف لا نستحى من رجل تستحى منه الملائكة".

وكان رسول الله يعلل إحتشامه حين يأذن لعثمان بأنه إن لم يفعل إستحيا عثمان أن يثبت بين يديه، وأن يبلغه حاجته، ويأخذ حظه من التحدث إليه.(٢١)

وإذا ما نظرنا إلى كرم عثمان، نجد أنه كان كريماً سخى النفس واليد بماله فى سبيل الله، فعل من ذلك ما لم يفعله غيره من أغنياء المسلمين حينئذ، فهو الذى اشترى بئر رومه بألوف كثيرة، وجعلها للمسلمين، ويشره النبى بخير منها فى الجنة.

وهو كذلك إشترى أرضاً وسع بها النبى المسجد حين ضاق بالناس وبشره النبى خيراً منها فى الجنة.(٢٢)

ولما كانت غزوة تبوك حض رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ الناس إلى الإنفاق فى سبيل الله، إذ كانت هذه الغزوة فى زمان من عسرة الناس، وشدة من الحر، وجدب فى البلاد. ويذكر إبن هشام أن عثمان بن عفان أنفق فى جيش العسرة فى غزوة تبوك فقال رسول

الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : "اللهم إرضى عن عثمان فإنى عنـــه راضى".(٢٣)

ويذكر صاحب الحلية نقلاً عن مسروق أن رســول الله، دعــى عثمان بن عفان يوم جيش العسرة فقال : "اللهم إغفر لعثمان مــا أقبــل وما أدبر، وما أخفى وما أعلن وما أسر وما أجهر".(٢٤)

ومما هو جدير بالذكر فى هذا الصــدد أن صفــة الكــرم فــى شخصية عثمان بن عفان لم تكن الغاية منها مأربا دنيويــاً، فلــم يكــن عثمان يطمع من وراء ذلك إلى السيادة أو المجد أو الرياسة إنما كــرم عثمان كان إبتغاء مرضاه الله عز وجل ورسوله لذلك كان حاله الإيثار والسخاء، والإبتعاد عن الشح والبخل، وأنه علم أن ما عنده من مال إنما هو مما أنعم الله به عليه فكيف يبخل بما أتاه الله.

والحق سبحانه يقول :" ولا يحسبن الذين يبخلون بما أتــاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلــوا بــه يــوم القيامة".(٢٥)

وإذا قلنا أن عثمان بن عفان كان كريماً ســخياً، تتدفــق عليــه الأموال فلا يبخل وينفق باليمين والشمال. إلا أنه فى حياته ــ الخاصة ــ كان عابداً زاهداً فى الدنيا وزخرفها فكان يطعم الناس طعام الإمارة، ويدخل بيته فيأكل الخل والزيت، وكان يخطــب النــاس وعليــه إزار (ثوب) عدنى غليظ ثمنه أربعة دراهم أو خمسة.(٢٦)

وهو يومئذ أمير المؤمنين، وقبل ذلك صاحب التجارة الواسعة، والمال الوفير إلا أنه على الرغم من ذلك إقتدى برسول الله ــ صلــى الله عليه وسلم ــ فأختار الجوع على الشبع، واختار الحزن على الفرح،

خوفاً من عذاب الله، فقد روى عنه قوله : "لو أنى بين الجنة والنـــار لا أدرى إلى أيتهما يؤمر بى لتمنيت أن أصير رماداً قبل أن أعلـــم إلـــى أيتهما أصير.

وتتجلى فتوة عثمان بن عفان فى الوفاء والـــولاء والاخـــلاص للمبدأ الذى أمن به، فقد بذل عثمان حياته خوفاً من إراقة الدمـــاء فـــى مدينة رسول الله. يروى عبد الله بن رباح وأبو قتـــادة ــ رضـــى الله عنهما ــ أنه فى يوم حرب الدار ــ كنا عند عثمان ــ رضى الله عنـــه ــ فلما اجتمع الغوغاء على بابه، شهر غلمانه السلاح، فقال لهم عثمان: كل من لا يخلع السلاح فهو حرمنى... وخرجنا خوفاً علـــى أنفســـنا... فلاح الحسن بن على فى الطريق، فرجعنا معه، ودخلنا علـــى عثمـــان لنرى ما أقبل الحسن، فلما دخل الحسن حياه وعزاه فى تلك البلية وقال: يا أمير المؤمنين، أنا لا أستطيع أن أسل السيف على المســـلمين بـــدون أمرك، وأنت إمام القوم، فمرنى أن أدفع عنك بلاء هؤلاء القوم. فقـــال له عثمان : يا ابن أخى، ارجع واجلس فى بيتك حتى يأتى الله بأمره فلا حاجة لنا فى ارهاق الدماء.(٢٨)

وهذا الموقف ان دل على شئ، فإنما يدل على فتوة عثمان بـــن عفان، وعلامة الفتوة هنا التسليم فى حال ورود البلاء، فى درجة الخلة، كما حدث لابراهيم ــ عليه السلام ــ عندما اشعل النمروز النار وألقى به فيها، فقد جاء جبريل ــ عليه السلام ــ وقال : هل لك من حاجـــة. قال : أما لك فلا. فقال : فسل الله. قال : حسبى مـــن ســـؤالى علمـــه بحالى.

فعثمان بن عفان ــ هنا ــ فى مكان الخليل، والغوغاء فى مكان النار، والحسن بن على فى مكان جبريل. ولكن ابراهيم ــ عليه السلام ــ قد نجا من البلاء وعثمان ــ رضى الله عنه ــ هلك فى البلاء.(٢٩)

والسؤال الآن هل كان من الممكن لأمير المؤمنين، عثمان بن عفان أن ينجوا من هذا البلاء؟ حقيقة الأمر أنه عرضت على عثمان أمور كثيرة فيها نجاته إلا أن الفتوة التى تمثلت فى الثبات والاستقامة على الحق جعلته يرفض كل ما عرض عليه.

ومن هذه الأمور أن معاوية بن أبى سفيان عرض على عثمان قبل أن يفارقه فى أواخر سنة أربع وثلاثين خصلتين رفضهما عثمان رفضا حاسماً، عرض عليه أن يسير إلى الشام فيكون فيها أمناً منصوراً. فأبى عثمان أن يترك جوار النبى وأن يستبدل بدار الهجرة داراً أخرى.

وعرض معاوية على عثمان أن يرسل إليه جنوداً من أهل الشام يقيمون معه فى المدينة ليردوا عند العاديات؟ فأبى عثمان وقال : لا أضيق على أصحاب رسول الله بجوار من يجاورهم من الجند.(٣٠)

لقد ثبت عثمان واستقام على الحق ورفض فرص النجاة التى عرضت عليه لأنها ستنال من كرامة هجرته وثوابها، وفى أى سن كان وهو يحمل هذا الولاء الفتى الشاب للهجرة ولحقها عليه، كان فى سن الثمانين.

ويتجلى ثبات عثمان واستقامته، فى أنه يوم قتل كان صائماً ولم يبرح موضعه ولم يأذن لأحد بقتال، ولا وضع المصحف من حجره إلى أن قتل ــ رضى الله عنه ــ وسال الدم على المصحف وتلطخ بالدم.(٣١) ووقع الدم على موضع هذه الآية، قال تعالى : "فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم".(٣٢)

علي بن ابى طالب

لا جدال أن علياً بن ابى طالب تلميذ محمد ــ صلى الله عليــه وسلم ــ فقد تكفل رسول الله به قبل البعثة فعاش وتربى فــى حجــر النبوة، وعندما نزل الوحى على رسول الله كان على بن أبى طالب أول غلام أمن، وتركه رسول الله فى فراشه ليلة الهجرة تحرسه الملائكــة، وهو يواجه قريشاً للعاتية، وعندما بــدأت الغــزوات وأذن رســول الله لاصحابه بالقتال، نجد فتى بنى هاشم يحمل بسيفه المنايا، يحطــم بــها عتاولة القرشين(٣٣). وعندما آلت إليه الخلافة بعد مقتل عثمان نجــده يحاول جاهداً لصلاح الأمر على نهج كتاب الله، وســنة رســول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ

وإذا كنا قد ذكرنا أن علياً بن أبى طالب تربى فى بيت النبــوة، فلا ريب أن تكون سمات الفتوة عنده كاملة، بل كانت فتوته مبكرة، فمن هذه الفتوة المبكرة شجاعته وأمانته.

فأما الشجاعة ــ المبكرة ــ تتضح فى أنه قبل أن ينام فى فراش رسول الله ليلة الهجرة مع علمه بما يحيط برسول الله فى هــذا اليــوم. فقد اجتمعت قريش لكى تتخلص من رسول الله ودعوته على رأى أبى جهل الذى قال لهم : "أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شاباً جليداً نســيباً وسيطاً فينا، ثم نعطى كل فتى منهم سيفاً صارمــاً ثــم يعمــدوا إليــه، فيضربوه ضربة رجل واحد، فيقتلوه فنستريح منه. فانهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه فى القبائل جميعاً".

على الرغم من هذا الخطر المحيط برسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ من كل جانب إذ قريش باجمعها تتربص به على قلــب رجــل

واحد، إلا أن الفتى الشجاع على بن أبى طالب امتثل لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ عندما قال له : "نم على فراشى وتسج بـــبردى هذا الحضرمى الاخضر، فنم فيه، فإنه لم يخلص إليـــك شـــئ تكرهـــه منهم".(٣٤)

أما عن أمانة على بن ابى طالب ــ المبكرة ــ فقد أمره رسول الله، أن يتخلف بعده بمكة حتى يؤدى عن رسول الله الودائع، التى كانت عنده للناس، وكان رسول الله، ليس بمكة أحد عنده شئ يخشى عليه إلا وضعه عنده لما يعلم من صدقه وامانته ــ عليه الصلاة والسلام.(٣٥)

وإذا كان رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ لامانتـــه كـــان اعدائه يضعون عند ودائعهم التى يخشون عليها، فانـــه عليـــه الصـــلاة والسلام ــ عندما اذن له ربه بالهجرة، اراد أن يرد هذه الودائـــع إلـــى أصحابها، لم يجد خيرا من على بن ابى طالب لامانته لكى يقوم بـــهذه المهمة.

ويطول بنا المقام إذا ما أردنا أن نعرض لخصال الفتـــوة عنـــد على بن ابى طالب ولكننا سنكتفى بأن نتعرف على شجاعته وزهـــده ــ كرم الله وجهه ــ ذلك لأن الشجاعة تعتبر سمة أساســـية مـــن ســـمات الفتيان سواء كانت شجاعة الرأى أو شجاعة الحرب. أما الزهد فإنه لا يجعل الفتى كل همه الدنيا وزينتها وانما تكون غايته مرضاه الله عـــز وجل واتباع ما أمر به واجتناب ما نهى عنه سبحانه.

وإذا كانت الفتوة مجموعة فضائل منها الكرم،والشجاعة والإيثـــار، فمن الملاحظ أن هذه الفضائل كانت ظاهرة جلية فى خلق على بن ابى طالب الرجل الكريم الشجاع، المؤثر غيره على نفسه عملا بقـــول الله عز وجل : "ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيمـــا واســـيرا انمـــا

نطعكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا"(٣٦) ويـــرى بعـض المفسرين أن هذه الآية الكريمة نزلت فى حق على بن أبى طـالب وآل بيته والقصه تدور حول الكرم والايثار إذ كان المعنيون بالآية صائمين وجادوا بافطارهم على مسكين ويتيم واسير.(٣٧)

إلا أن البعض الآخر من المفسرين يرى أن هذه الآية عامـة لا تخص قوم معينين. وسواء صح هذا الرأى أم ذاك فإن احداً لا يستطيع ان ينكر اتصاف على بن ابـى طـالب بـالكرم والسـخاء والايثـار والشجاعة.

ومن الأمثلة الدالة على شجاعته ـ كرم الله وجهه ـ أنـه فـى غزوة أحد يخرج من صفوف المشركين أحد مبارزيهم الأشداء هو أبـو سعيد بن ابى طلحة وينادى على من يبارزه، ويخرج على بن أبى طالب إليه، ويتلاقيان فى مبارزة ضارية حامية... ويتمكن منه سـيف علـى بضربة تطرحه أرضاً، وهو يتلوى من الألم وبينما على يتـهيأ ليجـهز عليه بضربة قاضية.. ينحسر جلباب الرجل فتتكشف عورته فيغمـض على عينه ويغض بصره... ويعود إلى مكانه فى صفـوف المسـلمين، دون أن يجهز على الرجل ويسأله المسلمون : لماذا لم تجـهز عليـه؟ فأجاب قائلاً : أنه استقبلتى بعورته، فعطفتنى عنه الرحم وعرفت أن الله عز وجل قد قتله.(٣٨)

وهنا تتجلى شجاعة على وفتوته فى شرف المقاتلة، إذ ان شرف المقاتل عند ابن ابى طالب خلق لا ينساه أمام النصر، وامجاد الظفـر،

ولقد عرف عنه ذلك دائماً فراح اعدائه يلمسون منه هذا الوتر كلما رأوا المنايا تهوى عليهم من سيفه البتار.

هذا وقد أبلى على بن أبى طالب فى غزوة أحد بلاء حسناً، حتى أنه نادى مناد يوم أحد : لاسيف إلا ذو الفقار، ولا فتى إلا علـــى.(٣٩) فوصف على بالفتوة فى هذا اليوم إلى القدر الذى لا يصل إليـــه فتـــى آخر.

وهذه الشجاعة التى كانت سمة أساسية فى شخصية على بن أبى طالب قد عرفها رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقال فى حقه يوم خيبر : لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله يفتح الله على يديـــه ليس بفرار؟ فدعا رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ علياً ــ كرم الله وجهه ــ ثم قال : "خذ هذه الراية فامضى بها حتى يفتح الله عليك".

ويذكر ابن اسحاق ان علياً حين بعثه رسول الله برايته، فلما دنا من الحصن خرج إليه اهله فقاتلهم، فضربه رجل من يهود، فطاح ترسه من يده، فتناول على باباً كان عند الحصن فترس به عن نفسه، فلم يزل فى يده وهو يقاتل حتى فتح الله عليه، ثم القاه من يده حين فرغ... وان هذا الباب اجهد ثمانية من الرجال لكى يقلبوه فما انقلب.(٤٠)

لقد كان على بن ابى طالب عظيم الشمائل عديد الفضائل، زاهد فى الدنيا يقول لها وهو أمير المؤمنين : "يا دنيا غرى غرى، قد طلقتك ثلاثاً عمرك قصير، ومجلسك حقير، وخطرك كبير،آه أه من قلة الزاد، وبعد السفر ووحشة الطريق".(٤١)

ومن مظاهر الزهد فى حياة على بن ابى طالب، أنه كان يرقـــع قميصه ويقول : ان لبس المرقع يخشع القلب ويقتدى به المؤمن، وكان

يقطع من كم قميصه ما زاد على رؤوس الأصابع. وكان يـــبرد فـــى الشتاء حتى ترتعد اعضاؤه من البرد فقيل له : ألا تأخذ لك كساء مـــن بيت المال فانه واسع؟ فقال : لا أنقص المسلمين من بيت مالهم شيئـــاً. ويروى انه قدم إليه مرة فالوذج فلم يأكله وقال : انك طيـــب الرائحـــة، حسن اللون، طيب الطعم، لكن أكره أن أعود نفسى ما لم تعتد.(٤٢)

مما سبق نجد أن علياً بن أبى طالب اختار حياة الزهد بعـــد أن علم إن الدنيا عمرها قصير لمن يعمل لها، ومجلسها حقير لمن يركـــن اليها وخطرها كبير لمن لا يتزود منها لآخرته بأتباع أوامـــر الله عـــز وجل واجتناب ما نهى عنه سبحانه. وقد أكد على بن ابى طالب علـــى هذا. عندما قال : "لا تجعلن أكـــبر شغلـــك بـــأهلك وولـــدك، فـــإن يكن أهلك وولدك من أولياء الله، فإن الله لا يضيع أولياءه، وان كـــانوا اعداء الله، فما همك وشغلك لأعداء الله.(٤٣)

وفى هذه الوصية نجد أنه على الإنسان ألا يجعل الدنيـــا أكـــبر شغله وهمه وغاية ما يسعى إليه، وقد مثل على بن ابى طالب الدنيا فى هذه الوصية بالأهل والولد. كذلك نجد أن هذه الوصية تتعلق بانقطاع القلب عما دون الحق جل جلاله، لأنه سبحانه يحفظ عباده كما يريد متى كان يقينهم صادقا.

وهذه الفتوة الواضحة فى شخصية أمير المؤمنين على بن أبـــى طالب جعلت البعض ينسبون الفتوة إليه، بل جعلوه راس للفتوة وســـيد أهلها. وفى هذا الصدد يقول إبن أبى حديد :" فإن أربابـــها ــ يعنـــى أصحاب الفتوة ــ نسبوا انفسهم إليه، وصنفوا فى ذلك كتبـــاً وجعلـــوا إسنادا انهوه إليه، وقصروه عليه وسموه سيد الفتيان".(٤٤) كذلك نسب

الشيخ عبد الجبار ــ الذى ألبس الناصر لدين الله العباسى لباس الفتــوة سنة ٥٧٨هــ ــ الفتوة إلى على بن ابى طالب وذكر أن : أرباب الفتوة يسندونها بالعنعنة إلى أمير المؤمنين على ابن أبى طالب ــ عليه السلام وناهيك بذلك شرفاً وفخراً وعظمة وقدراً.(٤٥)

وهنا تجدر الإشارة إلى أن الناصر لدين الله قد ألغى كل فتــــوة غير فتوته وجمع الأمر حوله وخرج بالفتوة من شعبيتها وعاميتها إلى الارستقراطية والخصوصية. وجعلها رياضة وتدريباً يقصد به الارتفاع بقوة الأمة المعنوية واعدادها لكل طارئ.(٤٦)

وإذا ما نظرنا إلى فتوة الناصر لدين الله نجد انها بعيدة كل البعد عن الفتوة عند الصوفية، ذلك لأن الفتوة فى معناها العام خالية تماماً من تلك النزعة الارستقراطية التى تتعارض مع روح التصوف.(٤٧)

كما أن الفتوة ليست فى طقوس معينه، مــن لبــاس أو شــراب وخلافه، إنما الفتوة فى جوهرها وحقيقتــها مجموعــة مــن الفضــائل والخصال الحميدة التى يتحلى بها الفتى والتى تكــون فــى مجموعــها شجرة الاخلاق بفروعها واغصانها وثمارها.

---

* لقد كثر فى زمن الناصر لدين الله (القرن السادس الهجرى) العيارون والشطار ويبدوا أنه خشى على دولته لذلك حاربهم. وفى نطاق البحث عند حديثنا عن الفتوة والملامتية سوف نعرض للتفرقة بين العيار والشاطر والفتى. راجع كتابنا : حقيقة الملامتية ودورها فى التصوف الإسلامى.

لقد برهن حمزة بن عبد المطلب من أول يوم دخل فيه الإســـلام على شجاعته الفائقة، وفتوته الكاملة، وعلى أنه قوة أيد الله بـــها دينـــه واعز رسوله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ ذلك لأنه كان اعز فتـــى فـــى قريش، وأشد شكيمة.

ويذكر ابن هشام فى إسلام حمزة : أنه كان راجعاً من قنص له متقلداً سيفاً وكان إذا رجع من قنصه لم يصل إلى أهله حتـــى يطـــوف بالكعبة وكان إذا فعل ذلك لم يمر على ناد من قريش إلا وقـــف وســـلم وتحدث معهم، فلما مر بإمرأة كانت قد شهدت إيذاء أبى جهل لرســـول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ فى ذلك اليوم قالت له : يا أبا عمارة لو رأيت ما لقى إبن أخيك محمد أنفاً من أبى الحكم بن هشام : وجده هاهنا جالساً فأذاه وسبه وبلغ منه ما يكره، ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمـــد ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ . فاحتمل حمزة الغضب، لما أراد الله به من كرامته، فخرج يسعى ولم يقف على أحد، معداً لأبى جهل؟ إذا لقيه أن يوقع به، فلما دخل المسجد نظر إليه جالساً فى القوم، فأقبل نحوه حتـــى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها فشجه شجة منكرة ثم قـــال : اتشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول* فرد ذلك على إن إستطعت فقـــام رجال من بنى مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل، فقال أبو جـــهل : دعوا أبا عمارة فإنى والله قد سببت ابن أخيه سباً قبيحاً.(٤٨)

وتم حمزه على إسلامه وعلى ما تابع عليه رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ وشهد مع رسول الله الجهر بالدعوة، والـــهجرة إلـــى

---

* لم يكن حمزة حين انتقم لرسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ من أبى جهل قد اسلم ولكنه صرح بإسلامه فى ذلك الوقت، إذا أراد الله به خيراً وقد ثبت على إسلامه رضى الله عنه.

وتم حمزه على إسلامه وعلى ما تابع عليه رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وشهد مع رسول الله الجهر بالدعوة، والـــهجرة إلـــى المدينة وابلى بلاء حسناً فى غزوة بدر. وفى غزوة أحد كان حمزة ــ رضى الله عنه ــ يهد الناس بسيفه ما يبقى على شئ حتى صوب إليـــه وحشى ــ غلام جبير بن مطعم عن بعد فخر سريعاً وكان سيد وحشـــى قد مناه إن هو قتل حمزة أن يعتقه.(٤٩)

ولقد بلغ من غيظ قريش ونسائها من حمزة وشجاعته وبلائه فى قتالهم أن هنداً بنت عتبة ــ زوج أبى سفيان ــ مثلت به وشقت بطنـــه، ولاكت كبده وكافأت وحشياً بقلائدها وحليها لأنه قتل حمزة.(٥٠)

ولما وقف رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ علـــى حمـــزة قال: لن أصاب بمثلك أبداً ما وقفت موقفاً أغيظ إلى من هذا ثم قـــال : جاءنى جبريل فأخبرنى أن حمزة بن عبد المطلب مكتـوب مـن أهـل السموات السبع : حمزة بن عبد المطلب أسد الله، وأسد رسوله".(٥١)

ولا يفوتنا ونحن نعرض لشجاعة وفتـــوة حمـزة إلا أن نشيـــد بموقف صفية بنت عبد المطلب حينما أقبلت لتنظر إليه.... وكان أخاها لأبيها وأمها ــ فأمر رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ابنها الزبير بن العوام أن يرجعها قالت : ولم؟ وقد بلغنى أنه قد مثل بأخى، وذلـــك فى الله، فما أرضانا بما كان من ذلك لأحتسبن ولأصبرن إن شاء الله.

فلما جاء الزبير إلى رسول الله ــ صلـــى الله عليـــه وســـلم ــ فأخبره بذلك قال : خل سبيلها، فأتته، فنظـــرت إليـــه، فصلـــت عليـــه واسترجعت واستغفرت له... ثم أمر به رسول الله ــ صلى الله عليـــه وسلم ــ فدفن.(٥٢)

خالد بن الوليد

ماذا عساى أن أقول فى خالد بن الوليد؟ وقـــد اشتـــهر بـــالقوة ورجاحة الرأى، والبسالة الفائقة، والشجاعة النادرة حتى انه لم يخـــزل فى أى معركة، سواء كان ذلك فى الجاهلية.أو فى الإسلام.

وقد يطول بنا المقام إن أردنا أن نعدد المواقف البطولية لخـــالد بن الوليد وانما نكتفى أن نذكر موقفه فى موقعة اليرموك. ففـــى هـــذه الموقعة إذا ببريد المدينة يصل، وفيه الخبر بوفاة أبى بكـــر الصديـــق، وفيه تولية عمر بن الخطاب مكانه خليفة للمسلمين، وفيه عزل خالد من إمارة الجيش وتولية ابى عبيدة أميراً للجيوش الإسلامية.

فخاف خالد إن هو أظهر هذه الأخبار وأذاعها فـــى النـــاس أن يهنوا ويضعفوا وهم فى المعركة الفاصلة، فأدار المعركة بنفس القـــوة وبنفس العزيمة ــ الأولى ــ كأن لم يعزل، وكأنـــه لـــم يـــزل أمـــيراً مؤمرا.(٥٣)

وهنا تتجلى فتوة خالد فى أنه لم يكن يعمل ما يعمل حباً فى جاه أو دنيا وإنما كان يتقدم إلى الموت إعزازاً لدين الله، وسيادة الاسلام.

لم يكن يعمل من أجل أبى بكر وانما كان يجاهد من أجل دينـــه وفى سبيل الله فسيان عنده إن كان قائداً أو جندياً وسيان عنده إن تولـــى أبو بكر أو تولى عمر فخالد هو خالد الجندى الباسل، والفتى الشجـــاع، سيف الله المسلول، الذى يخوض المعارك والحروب فى سبيل الله.

ولا أدل من قول خالد حين انتهت المعركة بنصـــر المســـلمين وسلم كتاب عمر إلى أبى عبيدة بالإمارة : "الحمد لله الذى قضى علـــى

أبى بكر بالموت، وكان أحب إلى من عمر، والحمد لله الذى ولى عمر وكان ابغض إلى من أبى بكر ثم ألزمنى محبته".(٥٤)

وهذا شأن الفتى المؤمن الصادق الذى يطيع الله سبحانه امتثـــالا لقوله تعالى : "يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولـــى الأمر منكم".(٥٥)

ومن المواقف التى تدل على فتوة خالد فى هذه الموقعه خـــروج "جرجة" أحد قواد الروم ونداؤه : ليخرج إلى خالد، فخرج إليـــه خـــالد، وقد أمن أحدهما صاحبه، فقال جرجة : يا خالد : اصدقنى ولا تكذبنى، فإن الحر لا يكذب ولا تخادعنى فإن الكريم لا يخادع، بالله هل أنـــزل الله عـــلى نبيكم سيفا من السماء فأعطاكه فـــلا تســـله علـــى قـــوم إلا هزمتهم؟ قال لا. قال : فيم سميت سيف الله؟ قال : إن الله عز وجـــل بعث فينا نبيه ـــ عليه السلام ـــ فدعانا فنفرنا ونأينا عنه جميعا ثـــم ان بعضنا صدقه وتابعه وبعضنا باعده وكذبه، فكنت فيمن كذبـــه وبـــاعده وقاتله، ثم ان الله أخذ بقلوبنا ونواصينا فهدانا به فتابعناه، فقـــال : أنـــت سيف من سيوف الله سله الله على المشركين، ودعا لى بالنصر، فسميت سيف الله بذلك فأنا من أشد المسلمين على المشركين. قال صدقتنى ثم ناقشه فى الإسلام حتى إنتهى الأمر بإسلامه. وترك صفـــوف الـــروم وقاتل مع المسلمين بعد أن علمه خالد الاسلام، وصلى ركعتين ومـــات جرجة فى هذا اليوم وهو يقاتل أشد قتال واصدقه دفاعـــا عـــن دينـــه الجديد.(٥٦)

ولقد أكد خالد بن الوليد، فى هذا الموقف، على أن الفتى حرا لا يكذب، كريما لا يخادع، يقول الصدق، ويفى بالوعد، ويلتزم بالعهد.

وكان صدق خالد وبساطته فى التعبير، وتواضعه، سـبباً فـى إسلام هذا القائد الذى أراد الله هدايته.

وما أحوجنا فى تلك الايام إلى أن نتشرب تلك القيـم والميـادئ التى تتمثل فى الصدق فى القول، والوفاء بالعهد، والإلـتزام بـالوعد، والتواضع فالفتى لا يحمل سيفاً فقط، بل الفتى من يحمل بين جنباته تلك المثل العليا والمبادئ السامية.

أبو ذر الغفاري

وها نحن أمام فتى صادق القول، يجاهر بالحق ولا يخشى فـــى الله لومة لائم، ففتوة أبو ذر لم تقتصر على حمل الســـلاح فـــى وجـــه الاعداء لاعلاء كلمة لا إله إلا الله، انما كانت فتوته فى النقـــد الـــلازع للاوضاع الاجتماعية التى لم يرضى عنها زمن خلافة عثمان بن عفان.

فقد وجد أن أمير المؤمنين عثمان بن عفان يعطى اقربائه مـــالاً كثيراً. فيقول بشر الكانزين بالنار، ويتلوا قوله تعالى "والذين يكـــنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم".(٥٧)

فيصل الأمر إلى عثمان فيرسل إلى أبى ذر مولى لـــه ينـــهاه. فيقول أبو ذر : أينهانى عثمان عن قراءة كتاب الله وعيب من ترك أمر الله لأن أرضى الله بسخط عثمان أحب إلى من أرضى عثمان بســـخط الله.(٥٨)

ففتوة أبو ذر هنا تتضح فى قول الحق وشجاعة الـــرأى التـــى تتمثل فى معارضة النظام الاجتماعى، فقد كان يكره أن يغنـــى الغنـــى حتى يكنز الذهب والفضة وان يحتاج الفقير حتى لا يجد ما ينفق. ثـــم كان يكره أن يعطى الخليفة مال المسلمين للاغنياء بغير حقه، فـــيزيدهم غنى ويزيد الفقراء فقراً، ويؤثر المال قوما لا حاجة بهم إليه، ويصرف هذا المال عن المصالح العامة.

وتستوى الأمور بين أبى ذر الغفارى وأمير المؤمنين فيرســـله إلى الشام، ولكن اقامته هناك لم تطل بسبب نقده للاوضاع الاجتماعيـــة التى رأها. فخاف معاوية على أهل الشام من أقوال أبـــى ذر، فكتـــب يشكو منه إلى عثمان. فكتب إليه عثمان أن أشخص إلى جندباً (أبو ذر)

فأرسله معاوية إلى المدينة غير حفى به.(٥٩) وعندما ضاق عثمان من أقوال أبى ذر فى المدينة أمره أن يخرج منها فيقيم حيث شاء، فاختـــار أن يذهل إلى الربزة واقام بها حتى مات.

وجدير بالذكر أن أبا ذر فى فتوته لم يكن ثائراً ولا نازعاً يـــداً من طاعة ولا ناقداً للبيعة ولا ممتنعاً على الخليفة إن عاقبه.

فقد كانت فتوته تقوم على المجاهرة بالحق وقول الصدق والنقد اللازع والنصح العنيف ولم تكن أبداً خروجاً عن طاعة الأمير، ويتضح ذلك فى قوله : أمرت أن أطيع وإن أمر على عبد مجدع.

وقال للذين طلبوا إليه أن يقودهم إلى المقاومة الايجابية وشـــق عصا الطاعة : لو صلبنى عثمان على أطول جذع من جذوع النخل لما عصيت.(٦٠)

ما أروعها من أمثلة للفتوة تؤكد أن الألتزام بطاعة الأمـــير أو الحاكم لا تتعارض مع قول الحق وأداء النصيحة، فقد عارض أبـــو ذر ما وسعته المعارضة وجاهر بالحق، ولم يخشـــى إلا الحـــق ســـبحانه وتعالى، ولكن فى حدود الطاعة وتجنب الخروج على أمير المؤمنين.

وقد أيقن أبو ذر أن قيامه بالحق لله تعالى لم يترك له صديقا، إذ عاش وحيداً ومات وحيداً فقال : ان قيامى بالحق لله تعالى لم يترك لى صديقاً، وان خوفى من يوم الحساب ما ترك على بدنى لحماً، وان يقينى بثواب الله تعالى ما ترك فى بيتى شيئاً.(٦١)

سلمان الفارسى

ووقفنا هنا مع فتى باحث عن الحقيقة، يترك الأموال والضياع، ويخرج سائحاً ينتقل من مكان إلى مكان باحثاً عن الحقيقة متنقلاً بين الاديان فمن مجوسيته الأولى إلى المسيحية، ثم من المسيحية وبعد رحلات متعددة يقف هذا الفتى الفارسى على مشارف المدينة، مميزاً فى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ آيات النبوة وعلاماتها. وكان عدد من الرهبان النساك الذين قابلهم فى رحلاته قد كشفوا له عن هذه العلامات واخبروه انها فى كتبهم القديمة، وان عهد هذه النبوة قد اطل.

ويحدثنا سلمان الفارسى أنه عندما أراد أن يستوثق من رسالة رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ جمع شيئاً من الطعام ودخل عليه وقال : أنه قد بلغنى أنك رجل صالح. ومعك أصحاب لك غرباء ذو حاجة، وهذا شئ كان عندى للصدقة. فرأيتكم أحق به من غيركم، قال: فقربته إليه. فقال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ لاصحابه كلوا وامسك يده فلم يأكل، قال سلمان : فقلت فى نفسى هذه واحدة.

ويستطرد سلمان قائلاً : ثم انصرفت عنه، فجمعت شيئاً، ثم جئت به فقلت له : أنى قد رأيتك لا تأكل الصدقة، فهذه هدية أكرمتك بها.. فأكل رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ منها وأمر أصحابه فأكلوا معه : قال : فقلت فى نفسى : هاتان اثنتان.(٦٢). وما ان رأى سلمان خاتم النبوة حتى ايقن أن محمدا هو رسول الله فأمن به وبرسالته، وساعده رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ حتى افتدى نفسه من الرق.

وقد شارك سلمان الفارسى فى الغزوات والفتوحات الاســـلامية وجاهد فى سبيل الله، حتى استقر به الأمر أميراً على المدائن.

فكانت معيشته معيشة الزهاد والعباد، وكان يسير فـــى المدائـــن فتسجد له العجم، فينكس رأسه ويقول : خشعت لله... خشعت لله. وكان يردد : أوصانى خليلى ــ رسول الله ــ صلى الله عليه وســـلم ــ أن لا يكون متاعى من الدنيا الإكزاد الراكب.(٦٣)

ولما حضرت سلمان الوفاة، نظر الحاضرون فلـــم يجـــدوا إلا بضعة عشر ديناراً ويقال أن متـــاع ســـلمان قـــد بيـــع فبلـــغ أربعـــة عشردرهماً.(٦٤)

وهكذا يكون الفتى الواعظ منه يوم موته بيته، فـــالفتى يظـــهر الاستغناء أيام حياته، حتى يحسبه الآخرين غنياً من التعفف، فإذا مـــات كان بيته يوم موته موعظة للفتيان.(٦٥)

لقد ضرب سلمان الفارسى أروع الأمثلة للفتيان سواء فى حياته، أو فيما تركه بعد وفاته.

وإذا ما أردنا أن نجمل خصال الفتوة فى شخصية سلمان لوجدنا أنها تتمثل فى الزهد القائم على ترك الأموال والضياع من أجل الحقيقة التى ظل باحثاً عنها حتى هداه الحق تبارك وتعالى إلى الاسلام.

وقد اتضح هذا الزهد فى معيشته التى لم تزد على عيشة الزهاد والعباد وهو أمير على المدائن. حتى يروى فى هذا الصدد أنـــه كـــان يخطب فى الناس وهو يرتدى عباءة يلبسها أحياناً ويفترشها أحياناً.

ومما لا ريب فيه، أن هذه الخصـــال وغيرهـــا مـــن الخصـــال الحميدة، انما منبعها الشريعة الغراء، التى حضت على مكارم الاخلاق،

فكان فتيان المسلمين يستمدون من هذه الشريعة نبراساً لهم فى الحيـــاة الدنيا، وزاداً لهم فى آخرتهم.

وان كنا قد ذكرنا بعض فتيان المسلمين فهذا قليل من كثـــير، إذ لا يسعنى المقام أن أحصى اسماء الذين تألقوا فـــى صفحـــة الاســـلام الغراء.

فقد كان هناك عشرات ومئات من الفتيان المسلمين الذين جمعوا بين القوة والشجاعة ومكارم الأخلاق، فلم يقتصر أمرهم على أنهم جنود بواسل وكأنهم تخرجوا فى أعرق الكليات الحربية اليوم.

بل كانوا اسمى نفساً، واثيل غاية، واقوم خلقـــاً، وأرأف بـــالعدو قبل الصديق فجمعوا بذلك الفتوة بشقيها المادى والمعنوى.

فنجد منهم الذين عذبوا فى سبيل عقيدتهم، وأوذوا أشد الايـــذاء حتى آثروا الهجرة إلى الحبشة فراراً بدينهم وخشية الفتنـــة. وهنـــاك أبطال بدر من استشهد منهم ومن سلمه الله، وابقاه ليستشهد فى معركـــة أخرى.

وفى هذه المعركة استشار رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ اصحابه فتكلم كثيرون واحسنوا القول، وكان ممن تكلم المقداد بن عمرو فقال : "يا رسول الله امضى بنا لما أراك الله فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : "أذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنـــا قاعدون.(٦٦) ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون".

وتكلم سعد بن معاذ فقال : "قد أمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق واعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا، على الســـمع والطاعة فأمضى يا رسول الله لما اردت فنحن معك فوالذى بعثك بالحق

لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره ان تلقى بنا عدونا غدا، إنا لصبر فى الحرب، صـــدق اللقاء. لعل الله يريك منا ما تقربه عينيك، فسر بنا على بركة الله".(٦٧)

ما أصدقها من كلمات تؤكد على ان الفتى لا يهاب المـــوت ولا يخشى القتال ما دام دفاعاً عن الحق، ونصرة دين الله. بالإضافة إلـــى أن هذه الكلمات أكدت على ان الفتى، وفياً بالوعد، صادق العهد، منفذاً للمواثيق.

ولا ننسى أن نذكر بعض أبطال أحد أمثال مصعب بـــن عمـــير الذى حمل لواء المسلمين وقاتل حتى قتل.

وفى هذه المعركة يبرز دور المرأة فى الفتوة، فهذه أم عمـــارة بنت كعب، خرجت أول النهار ومعها سقاء فيه مـــاء تسـقى الجنـود وتضمد الجرحى، حتى رأت هزيمة المسلمين، انحازت إلى رســول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وأخذت تقاتل، وتذب عن النبـــى بالسـيف، وترمى عن القوس حتى جرحت فى سبيل الله.(٦٨)

حقاً لقد كان المسلمون جميعاً ابطالاً، ولو رحت أعـــدد اسـماء الابطال الذين ظهروا فى تاريخ الغزوات والفتوح الاسلامية، واعمـــال كل منهم وعظم بلائه، لما استطعت إلىذ لك سبيلاً ــ فى هذا المقام ــ ولخرجنا بذلك عن نطاق البحث.

ولكن نكتفى بهذا القدر لكى نتسائل : ما هى الغايـــة أو الـــهدف التى كان يسعى إليها هؤلاء الفتيان؟

لقد مر بنا أن هؤلاء الفتيان لم تكن غايتهم طلب الرياسة، ولـــم يهدفوا إلى السيادة، أو الزعامة، وإلا ما وجدنا منهم من يقبل أن يعـزل من منصب قائد الجيوزش، ويصبح جندياً تحت امرة قائد آخر.

لم يكن هؤلاء الفتيان يعملون ما يعملون حباً في جاه أو دنيـــا، وانما كانوا يقدمون على الموت إعزازا لدين الله وسيادة الاسلام.

يعلمون علم اليقين انهم ان استشهدوا فهم احيـــاء عنـــد ربـــهم يرزقون وان كتب الله لهم النصر على اعدائهم، فذلك لسـيادة الاســلام واعزازاً لدين الله، واعلاء كلمة لا إله إلا الله.

هوامش
الفصل الثالث

(١) سورة الأحزاب : الآية ٢١

(٢) عمر الدسوقى : الفتوة عند العرب ص١٦٦، ١٦٧ دار نهضة مصر

(٣) Sirt. Arnold : The Preaching of Islam. Ch.3.3

(٤) إبن هشام : السيرة النبوية جـ ١ ص٢٣١ ــ مكتبة الكليات الأزهرية ٧٤

(٥) المرجع السابق ص٢٣٢

(٦) المرجع السابق جـ١ ص٢٧٨

(٧) ابن هشام : السيرة النبوية جـ١ ص٢٧٨

(٨) ابن هشام : السيرة النبوية جـ٢ ص١٦، ١٧

(٩) الشعرانى : اليواقيت والجواهر جـ٢ ص ٧٥ ــ البابى الحلبى ١٩٥٩

(١٠) المرجع السابق ص٧٥

(١١) الهجويرى : كشف المحجوب جـ ١ ص ٢٦٩

(١٢) الطوسى : اللمع ص ١٧٤

(١٣) الغزالى : مكاشفة القلوب ص ٣٢١ ــ مكتبة نصير ١٩٧٨

(١٤) خالد محمد خالد : خلفاء الرسول ص ١٧٠، ١٧١

(١٥) د. حسن الشرقاوى : أصول التصوف الاسلامى ص ٤٥ طـ ٨٦

(١٦) سورة الفتح : الآية ٢٩

(١٧) عباس محمود العقاد : عبقرية عمر ص ٤٦، ٤٧ طـ ١٩٦٨

(١٨) المرجع السابق : ص ٤٧

(١٩) سورة الأحقاق : الآية ٢٠

(٢٠) د. طه حسين : الشيخان ص ٢١٥ ــ دار المعارف ١٩٧٧٨

(٢١) د.طه حسين : الفتنة الكبرى جـ ١ ص ٥٣ دار المعارف ٧٦

(٢٢) المرجع السابق ص ٥٢

(٢٣) إبن هشام : السيرة النبوية جـ ٤ ص ١١٩

(٢٤) أبو نعيم الأصبهانى : حلية الأولياء جـ ١ ص ٥٦

(٢٥) سورة آل عمران : الآية ١٨٠

(٢٦) الشعرانى : الطبقات الكبرى جـ ١ ص ١٧ ــ دار الفكر العربى

(٢٧) الاصبهانى : حلية الأولياء جـ ١ ص ٥٩

(٢٨) الهجويرى : كشف المحجوب ص ٢٧١

(٢٩) الهجويرى : كشف المحجوب ص ٢٧٢

(٣٠) د. طه حسين : الفتنه الكبرى جـ ١ ص ٢١٥ ــ دار المعارف ٧٦

(٣١) الطوسى : اللمع ص ١٧٨

(٣٢) سورة البقرة : الآية ١٣٧

(٣٣) د. على سامى النشار : نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام جـ ٢ ص ٤٢

(٣٤) ابن هشام : السيرة النبوية جـ ٢ ص ٩١

(٣٥) المرجع السابق ص ٩٣

(٣٦) سورة الدهر : الآيتان ٨، ٩

(٣٧) د. كامل مصطفى الشيبى : الصلة بين التصوف والتشيع جـ ١ ص ٥٢١ ــ دار الأندلس سنة ١٩٨٢.

(٣٨) ابن هشام : السيرة النبوية جـ ٣ ص ٢٤

(٣٩) ابن هشام : السيرة النبوية جـ ٣ ص ٤٣

(٤٠) المرجع السابق ص ٢١٦

(٤١) الشعرانى : الطبقات الكبرى جـ ١ ص ١٨ ـ دار الفكر العربى

(٤٢) الاصبهانى : حلية الأولياء جـ ١ ص ٦٨

(٤٣) الهجويرى : كشف المحجوب ص ٢٧٤

(٤٤) ابن أبى الحديد : شرح نهج البلاغة جـ ١ ص ٩ ـ تحقيق
محمد أبى الفضل

(٤٥) ابن العمار : الفتوة ص ٤٢ ـ تحقيق د. مصطفى جواد وزملائه
طـ بغداد سنة ١٩٦٠

(٤٦) د. كامل مصطفى الشيبى : الصله بين التصوف والتشيع جـ ١ ص ٥٣٤

(٤٧) د. أبو العلا عفيفى : الملامتية والصوفية وأهل الفتوة ص
٢٦ طـ ١٩٤٥

(٤٨) ابن هشام : السيرة النبوية: جـ ١ ص ٢٦٠، ١٦١

(٤٩) ابن هشام : السيرة النبوية جـ ٣ ص ٢١

(٥٠) المرجع السابق : ص ٣٦

(٥١) ابن هشام : السيرة النبوية جـ ٣ ص ٣٩

(٥٢) المرجع السابق : ص ٤١

(٥٣)ابن الأثير : البداية والنهاية جـ ٢ ص ١٩٨

(٥٤) المرجع السابق : ص ١٩٨، ١٩٩

(٥٥) سورة النساء : الآية ٥٧

(٥٦) عمر الدسوقى : الفتوة عند العرب ص ١٨٨

(٥٧) سورة التوبة : الآية ٣٤

(٥٨) د. طه حسين : الفتنة الكبرى جـ ١ ص ١٦٣

(٥٩) المرجع السابق : ص ١٦٣، ١٦٤

(٦٠) د. طه حسين : الفتنة الكبرى جـ ١ ص ١٦٥

(٦١) الطوسى : اللمع ص ١٨٦

(٦٢) ابن هشام : السيرة النبوية جـ ١ ص ٢٠١ ، ٢٠٢

(٦٣) الاصبهانى : حلية الأولياء جـ ١ ص ١٨٦

(٦٤) د. حسن الشرقاوى : أصول التصوف الاسلامى ص ١٠٦

(٦٥) السلمى : رسالة الملامتية ص ١١٨

(٦٦) سورة المائدة : الآية ٢٣

(٦٧) ابن هشام : السيرة النبوية جـ ٢ ص ١٨٧، ١٨٨

(٦٨) ابن هشام : السيرة النبوية جـ٣ ص ٢٨

الفصل الرابع
الفتوة في المدارس الصوفية

إذا كنا قد عرفنا أن الفتوة وجدت قبل الإسلام فى صور فردية. وجاء الاسلام مهذباً لهذه الفتوة الجاهلية فدعا إلـــى الخصـــال الحميـدة والصفات الرشيدة والتى تكون فى مجموعها مكارم الأخلاق.

وتعرفنا على مصـــادر الفتـــوة ومظاهرهـــا (بشقيـــها المـــادى والمعنوى) والغاية منها فى حياة سيد الفتيان رســـول الله ــ صلـــى الله عليه وسلم ـــ .

وألقينا الضوء على نماذج من فتيان المسلمين تمثلت هذه النماذج فى شخصيات بعض الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين.

نود الآن أن ننتقل إلى المدارس الصوفية لنتعرف على ســـمات الفتوة ومظاهرها وغاياتها فى هذه المدارس,

ولما كانت الفتوة متداخلة فى كثير من تعاليم الصوفية، فســـوف يقتصر بحثنا ــ فى هذه النقطة ــ على أربعة من مـــدارس الصوفيـــة واعنى بها : البصرة، الكوفة، الشام، خراسان. وهنا نجد أكـــثر مـــن سؤال يطرح نفسه على مائدة البحث :

أولاً : ما هو المصدر الذى استقت منه الصوفية مبادئ الفتوة؟

ثانياً : وما هى مظاهر الفتوة فى هذه المدارس؟

ثالثاً : إذا قلنا أن للفتوة جانباً مادياً وآخر معنوياً فبأى الجانبين اهتمت الصوفية.

رابعاً : ما هى الغاية التى تسعى إليها الصوفية من وراء فتوتها؟

مدرسة البصرة

لقد اكتوت البصرة،مثلها مثل كثير من المدن الاسلامية، بنـــار الفتنة التى اشتعلت بعد مقتل أمير المؤمنيـــن، عثمـــان بـــن عفـــان ـ فشاركت فى حرب الجمل على الرغم من ان نظرتـــها للحيـــاة كـــانت النظرة المتسامحة الطيبة، هذه النظرة التى اخرجـــت المرجئـــة الذيـــن يرجئون أمر فاعل الكبيرة إلى الله عز وجل، كما اخرج سياق فكرهـــا المعتزلة اصحاب المنزلة بين المنزلتين متوسطين بعيدين عن الغلو.(١)

وإذا كانت البصرة قد شاركت فى حرب الجمل فإن ذلك ليـــس راجعاً إلى عثمانيتها أو إلى انها كانت مع على بن أبى طـــالب ومـــن شيعته، وإنما كان الموقف فيها ينقسم إلى ثلاث فرق : فريق مع طلحة والزبير، وفريق مع على بن أبى طالب وفريق لا يرى القتال مع أحـــد الفريقين.(٢)

وما يؤكد هذا الرأى أنه عندما وصلت جيوش طلحـــة والزبـــير ومعها أم المؤمنين "عائشة" فى هودجها عند مشـــارف البصـــرة، اراد عثمان بن حنيف أن يمنعهم حتى يأتى أمير المؤمنين على بن أبى طالب من المدينة وينظر فى الأمر.

بينما اشار عليه هشام بن عامر قائلاً: "يا عثمان أن هذا الأمـــر الذى تروم يسلم إلى شر مما تكره، ان هذا فتق لا يرتـــق، وصـــدع لا يجبر فسامحهم حتى يأتى أمر على ولا تحادهم".

فإبى عليه عثمان هذا الرأى ورفض هـــذه المشـــورة وأراد أن يعرف رأى الناس فأرسل أحد اتباعه قائلاً : أيها النـــاس، ان هـــؤلاء القوم الذين جاؤكم ان كانوا جاؤكم خائفين فقد جاءوا من المكان الـــذى

بأمن فيه الطير وان كانوا جاءوا يطلبون بدم عثمان ـ رضى الله عنه ـ فما نحن بقتلة عثمان. اطيعونى فى هؤلاء القوم فردوهم من حيث جاءوا". إلا أن الناس قذفوه بالحجارة فعرف عثمان بن حنيف ان لهم بالبصرة ناصراً ممن يقوم معهم.(٣)

فخرج عثمان بن حنيف لملاقاة القوم، وخرج معه حكيم بن جبلة فى خيله قائلاً : لست بأخيه إن لم أنصره. ودارت رحى الحرب واثناء المعركة ضرب رجل من جيش طلحة والزبير ساق حكيم بن جبلة فقطع رجله فحبا حتى اخذها فرمى بها صاحبه فأصاب جسده فصرعه، فأتاه حتى قتله، ثم اتكأ عليها وقال(٤).

يا فخذ لن تراعى.... ان معى ذراعى.... احمى بها كراعى

وقال وهو يرتجز : ليس على أن أموت عار.... والعار فى الناس هو الفرار والمجد لا يفضحه الدمار

وقال أيضاً : "أنا خلفنا هذين ـ طلحة والزبير ـ وقد بايعا علياً واعطاه الطاعة ثم اقبلا مخالفين محاربين يطلبان بدم عثمان بن عفان ففرقا بيننا، ونحن أهل دار جوار. اللهم انهم لم يريدا عثمان".(٥)

ولما كان الإسهاب فى الحديث عن هذه الحرب يكاد يخرجنا عن مجال بحثنا فإننا نكتفى بهذا القدر الذى من خلاله يتبين لنا شجاعة فتيان البصرة فى ساحة القتال دفاعاً عن البيعة التى بايعوها لأمير المؤمنين على بن أبى طالب.

وإذا ما تركنا ساحة الحرب والقتال، واردنا أن نتعرف على الحياة الروحية فى مدرسة البصرة، وجدنا أن هذه الحياة الروحية تأثرت بصاحبى من صحابه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو

أبو موسى الأشعرى هذا الصحابى الـــذى صبـــغ البصـــرة، وحياتـــها الروحية بصبغته.

إذ كان أبو موسى الأشعرى يرى الدنيا احزانـــاً وفتنـــه، فكـــان يتأفف ويقول : "ما ينتظر من الدنيا إلا كلا محزناً وفتنه تنتظر. وحذر الناس من سطوة المال قائلاً : "انما هلك من كان قبلكم هذه الدنيا وهـــذا الدرهم، وهما مهلكاً لهم".(٦)

وذكرهم بتقلب القلب، وخشى عليهم نزواته، ثم طلب منهم البكاء والتباكى وحدثهم عن النار فى يوم البعث، وأخذ يشتد فى ذكرهـــا وقـــد أصبح البكاء بعده، والخوف من النار وأهوالها سمة العبـــــادة والزهـــد البصرى.(٧)

وقبل أن نذهب إلى مدرسة الحسن البصـــــرى، الملقـــب بســـيد الفتيان، وصاحب المكانه المرموقة فى تاريخ الحياة الروحية الاسلامية، لابد أن نشير إلى أنه ظهرت فى البصرة شخصيات فذة كان لها تـــأثير كبير فى عدد من كبار الصوفية، كما أننا نجد فى أقوال وافعال بعـــض هذه الشخصيات ما يدل على فتوة أثرت أبلغ تأثير على فتيان الصوفية.

مطرف بن عبد الله : (ت ٨٨هـ)

لقد كان مطرف بن عبد الله بن الشخير القرشى سلطاناً من سلاطين العابدين وزاهداً من أعمق الزاهدين فى تاريخ الاسلام، عرف حقيقة الدنيا وفتنتها، وانها زائفة فانية، لا تساوى عند الله جناح بعوضة، فتركها تزهداً وتقرباً إلى الله عز وجل.

ولد مطرف لصاحبى من صحابة رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ هو عبد الله بن الشخير ولقد اسند الحديث عن ابيه، كما اسند عن عثمان بن عفان، وعلى بن أبى طالب وابى بن كعب، وأبى ذر الغفارى. وحفظ مطرف واخوه ــ القرآن وتتلمذا فيما بعد على عامر بن عبد قيس، وكانا يحضران حلقاته، ثم أصبحا من القراء.(٨)

وما يدل على الزهد فى حياة مطرف بن عبد الله، أنه كان من أعيان قومه وكبارهم، وكان يلبس ــ أول أمره ــ الملابس الفاخرة ظاهراً أمام الناس ولكن حين يعود إلى بيته ينقلب عابدا من كبار العباد. يقول الشعرانى : "كان مطرف يلبس البرانس، ويلبس المطارف، ويركب الخيل، ويغشى السلطان غير انك إذا افضيت إليه افضيت إلي قرة عين. ومع ذلك كان يقول فى دعائه : "اللهم لا ترد السائلين معى من أجلى".(٩)

ومن علامات الفتوة، التى تتضح فيها روح الملامة عند مطرف بن عبد الله أنه عندما مات أبنا له، سرح لحيته، ولبس أحسن ثيابه وخرج على قومه متعطراً، فعاتبه القوم ولاموه على ذلك بل غضبوا منه. فقال لهم : "أتأمرونى أن استكن للمصيبة، والله لو أن الدنيا وما

فيها كانت لم ثم وعدنى الحق تعالى على اخذها كلها بشربة مـــاء فـــى الآخرة لاخترت تلك الشربة".(١٠)

وقال : قد وعدنى ربى تبارك وتعالى ثلاث خصال، كل خصله منها أحب إلى من الدنيا كلها : قد وعدنى الله عــز وجــل :"الذيــن إذا اصابتهم مصيبة قالوا : انا لله وانا إليه راجعون أولئك عليهم صلـــوات من ربهم ورحمة واولئك هم المهتدون"(١١) فأستكين لها بعد هذا.

وهنا نجد انفسنا أمام فتى واقف عند مراسم سيده، وهو فى أحلك الظروف وهى موت ابنه، وعلى الرغم من هذه المصيبة التى نزلت به نجده امتثل لأمر الله عز وجل، وارجع الامر إلى خالقه، عسى أن يفوز بوعد الحق تعالى فقال : (انا لله وانا اليه راجعون)، راجيــاً ان تتــنزل عليه صلوات الله ورحمته ويكون من المهتدين.

لقد كان مطرف بن عبد الله مثال الفتى العابد المقبل على ربـــه، يشغل ليله بتلاوة كتاب الله وتدبر معانيه. وفى هذا الصدد يقول : انى لاستلقى من الليل على فراش فأتدبر القرآن واعرض عملى على أهـــل الجنة، فإذا اعمالهم شديدة كانوا قليلاً من الليل مـــا يـــهجعون، يبيتـــون لربهم سجداً وقياماً،امن هو قانت اناء الليل ساجداً أو قائماً. فـــلا أرى منهم. فأغرض نفسى على هذه الأية:"ما سلككم فى سقر"(١٢) فـــأرى القوم مكذبين. وامر بهذه الآية : "واخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً واخر سيئاً".(١٣) فارجوا أن أكـــون أنـــا وأنتـــم يـــا أخوتـــاه منهم.(١٤)

لقد كان مطرف يعيش متنقلاً فى اعماقه بيـــن مشـــاهد الجنـــة ومشاهد النار وكان يرجو رحمة الله، أكثر من خوفه من عقابه.

وهكذا الفتى يكون متقلباً بين الخوف والرجاء، وقد يغلب الخوف على الرجاء، وقد يكون الرجاء هو الأغلب.

وهنا تجدر الاشارة إلى أن هناك فرق بين الرجاء والتمنى فالتمنى يورث صاحبه الكسل ولا يسلك طريق الجهد والجد وبعكسه صاحب الرجاء.

والرجاء بهذا لمعنى مصحوباً بحسن الظن بالله، استناداً إلى قول الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ يقول الله عز وجل ــ حديث قدسى ــ "أنا عند ظن عبدى بى وانا معه إذا ذكرنى، ان ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى وان ذكرنى فى ملاء ذكرته فى ملاء خير منه، وان اقترب إلى شبراً اقتربت إليه ذراعاً وان اقترب إلى ذراعاً اقتربت إليه باعاً وان أتانى يمشى اتيته هروله".(١٥)

ومن أقوال مطرف بن عبد الله التى تدل على فتوة صوفية، بل نرى فيها الارهاصات الأولى للملامتية قوله : لأن ابيت نائما واصبح نادماً، أحب إلى من أن ابيت قائماً واصبح معجباً.(١٦)

ومن غريب القول ان الاستاذ الدكتور على سامى النشار يرى ان هذا القول من طرف انما هو دعوة إلى السكون.(١٧) ولكننا نرى فى هذا القول محاربة لآفات النفس وخاصة آفة العجب التى تؤدى إلى الكبر والاغترار.

ذلك لأن المعجب يغتر بنفسه وبرايه ويأمن مكر الله وعذابه، ويظن أنه عند الله بمكان، وإن له عند الله منة وحقاً بأعماله التى هى نعمة وعطية من عطاياه سبحانه.(١٨)

ولهذا قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ لاصحابه وهــم خير الناس : ما منكم من أحد ينجية عملة". قالوا : ولا أنت يا رســول الله؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته".

ولهذا كان صحابة رسول الله من بعده يتمنون ان يكونوا ترابــاً وتبنا وطيرا مع صفاء اعمالهم ونقاء قلوبهم، فكيف يكون لذى بصــيرة أن يعجب بعمله أو يدل به ولا يخاف على نفسه.(١٩)

ومن أجل هذا حارب مطرف بن عبد الله آفة العجب فى نفســه وذاك بندمه على تقصيره فى حق الله، على الرغم من كــثرة عبادتــه وزهده فى الدنيا.

وهكذا نكون قد القينا بصيصاً من الضوء على حياة مطرف بن عبد الله، ووجدنا من خلال افعاله وأقواله ما يدل على بدايــات أولــى للفتوة الصوفية بل لا نغالى إذا قلنا اننا نجد عنــده ارهاصــات أولــى للملامتية.

الحسن البصرى (ت ١١٠هـ)

لقد احتل الحسن البصرى فى تاريخ الفكر الاســـلامى، بصفــة عامة وتاريخ الصوفية بصفة خاصة، مكانه لم يدانيها من سبقوه أو من عاصروه من مفكرى الاسلام، وادعته الفــرق المتخلفــة والاتجاهــات المتباينة لنفسها. فصدر عنه مختلف الأراء ومتناقض الافكار ومتبــاين النظريات، أو بالأحرى جعلته الفرق المختلفة ينطق بارائها.(٢٠)

يقول عنه الهجويرى : وله قدر كبير وشأن عظيم عند أهل هذا العلم (أى علم التصوف) بل كل العلوم، وكان لطيــف الاشــارة فــى المعاملة.(٢١)

ولسنا نحاول هنا توضيــح الجوانــب المختلفــة لاراء الحســن البصرى، وتوضيح ما ينسب له وما لا ينسب، وما يصح لــه ومــا لا يصح. لأن ذلك يبعدنا عن منهج البحث وانما نريد ـ فقطـ أن نجيب على سؤال : لماذا لقب الحسن البصرى بسيد الفتيان ـ فى عصــره ـ دون أن يشارك فى معركة أو يخوض معمعة؟.

إذا كان الفتى الصوفى متقلباً بين الخوف والرجاء، ورأينــا أن مطرف بن عبد الله قد غلب عليه الرجاء، فإن الحسن البصرى قد غلب عليه الخوف، حتى وصفت حياته كلــها بــالخوف الدائــم، والحــزن المستديم، حتى أطلق عليه "شيخ الاحزان".(٢٢)

يقول عنه صاحب حليه الأولياء : "حليف الخوف والحزن، اليف الهم والشجن، عديم النوم والوسن أبو سعيد الحسن بن أبــى الحســن، الفقيه الزاهد، المتشمر العابد كان لفضول الدنيا وزينتها نابذاً، ولشــهوة النفس ونخوتها واقذاً".(٢٣)

وإذا بحثنا عن مصدر الفتوة فى حياة الحسن البصرى، لوجدنـــا أنه كان يلتمس هذا المصدر من المثل الأعلى الذى وجـــده فـــى حيـــاة الصحابة هؤلاء الذين كانت الدنيا بزينتها اهون على احدهم من تـــراب قدميه. هؤلاء الذين يؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة. وفى هذا الصدد يقول الحسن البصرى.

"ولقد رأيت أقواماً يمسى أحدهم وما يجد عنده إلا قوتاً. فيقول : لا أجعل هذا كله فى بطنى، لاجعلن بعضه لله عـــز وجـــل، فيتصـــدق ببعضه، وإن كان أحوج مما يتصدق به عليه".(٢٤)

فى هذه الفقرة نجد أن أول سمة تقابلنا من سمات الفتوة عنـــد الحسن البصرى هى "الايثار" هذه السمة التى استقى مصدرها من حياة الصحابة رضوان الله عليهم ــ الذين كانوا يجودون بكل مـــا يملكـــون ابتغاء مرضاة الله عز وجل لا يبتغون من السائل جزاء ولا شكوراً.

ثم يقرر الحسن البصرى أن هؤلاء الصحابة ألزمـــوا أنفســـهم الصبر، حيث أنهم انزلوا الدنيا من أنفسهم منزلة الميتة التـــى لا يحـــل الشبع منها إلا فى حالة الضرورة إليها فأكلوا منها بقدر ما يرد النفـــس ويقى الروح.

وهنا يقول الحسن البصرى : "رأوا الدنيا نتناً وجيفة، فعافوهـــا، وزهدوا نتنها وكم كانوا يعجبون من الأكل منها شبعاً، والمتلـــذذ منـــها شرا : وكانوا يتسألون فى أنفسهم عن رواد الدنيا، أمـــا يجـــدون ريـــح النتن. عجباً أن قوماً استعجلوا الصبر، ولم يجدوا عن الدنيا مناصاً، فلم يدخل أنوفهم الريح النتنه لأنهم نشأوا من ريح الارهاب النتين فلم يجدوا نتنه ولم يعرفوا اذاه فعاشوا فيه ما عاشوا زلم يجدوا عنه بديلا".(٢٥)

وهنا نجد أنفسنا أمام أكثر من صفة من صفـــات الفتـــوة عنـــد الصوفية نذكر منها (الزهد) فقد وجد الحسن البصـــرى الزهـــد ســـمة رئيسية من سمات الصحابة بعد ان عرفوا الدنيا وأدركوا أنها جيفـــة لا تساوى عند الله جناح بعوضة فكانت أهون على أحدهم من تراب قدميه.

صفة أخرى من صفات الفتوة الصوفية ــ نجدها فـــى الفقـــرة السابقة وهى الصبر ولكن ما هى حقيقة الصبر عند الحسن البصـــرى؟ يروى أن اعرابياً سأله عن الصبر، فقال له : الصبر نوعان : أولهما الصبر فى المصائب والبليات. والثانى : الصبر عن المنهيات. فقـــال الاعرابى : أنت زاهد ما رأيت أزهد منك. فقال الحسن : يا اعرابى أما زهدى فكله رغبة،واما صبرى فكله جزع فقال الاعرابى : فسر لى هذا الكلام، فقد اضطرب اعتقادى.

فقال : صبرى فى البلاء أو الطاعة ناطق بخوفى من نار جهنم، وهذا عين الجزع وزهدى فى الدنيا رغبه فى الأخـــرة، وهـــذا عيـــن الرغبة، بخ بخ لمن كان يأخذ نصيبه فى الوسط. حتى يكـــون صـــبره خالصاً بالحق جل جلاله، لا خوفاً من جهنم وزهده مطلقاً للحـــق عمـــا سواه لا للوصول إلى الجنة.(٢٦)

وهكذا نجد أن الخوف قد غلب على الحسن البصرى حتى كـــأن النار لم تخلق إلا له وحده(٢٧) فكان صبره علـــى البـــلاء أو الطاعـــة ناطق بخوفه من نار جهنم. وانه زاهد فى الدنيا اقتداء بصحابة رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وهنا يقول : لقد أدركنا اقوامـــاً، كـــانوا فيما احل الله لهم ازهد منكم فيما حرم عليكم.(٢٨) صفة أخـــرى مـــن صفات الفتوة نجدها واضحة جلية عنـــد الحســـن البصـــرى ألا وهـــى

(الكرم) فقد روى عنه الشعرانى، أنه كان إذا استأذن عليه أحـــد مـــن اخوانه فإن كان عنده طعام اذن له، أو خرج إليـــه، ولا يتكلـــف فيمـــا حضر. بالإضافة إلى أنه كان يحضى على الكرم فيقول : أكرم اخوانك يدم لك ودهم.(٢٩)

وإذا ما انتقلنا إلى صفة اخرى من صفات الفتوة الصوفية عنـــد الحسن البصرى فإننا نجد ان محاسبة النفس كانت صفة غالبة بالإضافة إلى باقى الخصال الكريمة الأخرى التى يتحلى بها الحسن البصرى.

فكان يحاسب نفسه اشد الحساب ونادى بمحاسبة النفس فقال: "ان المؤمن قوام على نفسه يحاسب نفسه لله عز وجل، وانما خف الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا انفسهم فى الدنيا وانما شق الحســـاب يـــوم القيامة على قوم اخذوا هذا الأمر من غير محاسبة".(٣٠)

وهنا يمكن القول ان الفتى عند الحسن البصرى هو من يفجـــؤه الشئ ويعجبه ويشتهية اشد الاشتهاء ويرى انه من حاجته. ولكنه ينادى والله ما من صلة اليك ــ هيهات هيهات ــ حيل بينى وبينك. ويفـــرط منه الشئ فيرجع إلى نفسه فيقول: ما اردت إلى هذا، مالى هذا، والله لا أعود إلى هذا أبدا إن شاء الله.(٣١)

وإذا ما تساءلنا عن المصادر التى استقى منها الحسن البصـــرى محاسبته للنفس لوجدنا ان كتاب الله عز وجل قد اشار إلى هذا الأمر فى قوله تعالى : "يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظـــر نفـــس مـــا قدمـــت لغد"(٣٢)

وهذه اشارة من الحق سبحانه وتعالى لعباده المؤمنين ليحاســـبوا انفسهم على ما مضى من الأعمال. ولذلك قال عمر بـــن الخطـــاب : حاسبوا انفسكم قبل ان تحاسبوا، وزنوا قبل أن توزنوا.

وقال انس بن مالك : سمعت عمر بن الخطاب يقول رضى الله عنه ــ يوماً وقد خرج وخرجت معه حتى دخل حائطاً فسمعته يقــول : "وبينى وبينه جدار وهو فى الحائط : عمر بن الخطاب أمير المؤمنيــن بخ بخ والله لتتقين الله أو ليعذبنك".(٣٣)

مما سبق يمكن القول ان محاسبة النفس عند الحسن البصـــرى استقى مصدرها من كتاب الله عز وجل ومن حياة الصحابة ــ رضوان الله عليهم ــ هذه الحياة التى وضعها الحسن البصرى فى مقارنــة مــع نفسه فصاح قائلاً : لقد ادركت اقواماً ما أنا عندهم إلا لص.(٣٤)

واذا كان الفتى الملامتى يلوم نفسه على تقصيرها، فإننا هنا نجد أن الحسن البصرى لا يقف عند حد اللوم بل يتهم نفســه بأنــه لــص. وذلك على الرغم مما عرف عنه من كثرة العبادة والزهد فــى الدنيــا، والاقبال على الله.

ولهذا نراه يكثر البكاء حزناً وخوفاً حتى صار الخوف والحزن سمة غالبة على حياته مؤكدا ذلك بقوله عن القرآن الكريم : والله يا ابن ادم، لئن قرأت القرآن ثم امنت به، ليطولن فى الدنيا حزنك، وليشتد فى الدنيا خوفك، وليكثرن بكاؤك.(٣٥)

وهكذا نكون قد القينا بعض الضوء على سمات الفتوة عند ســيد الفتيان ــ فى عصره ــ الحسن البصرى، وعرفنا ان اهم هذه الســمات الايثار والزهد والصبر والكرم بالإضافة إلى محاسبة النفس.

وعرفنا أنه استمد هذه السمات من المصدر الذى ان تمسك بــــه لن يضل ابداً وهو كتاب الله وسنة رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بالإضافة إلى ما وجده فى حياة الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين.

محمد بن واسع (ت١٢٦هـ)

بقدر ما كان يعم الفساد، وتعظم الخطيئة، ويزداد الغنى الحـرام في مجتمع البصرة كانت تعاليم الحسن البصرى تنمـو وتزدهـر بيـن الكثير من تلامذته وكان هؤلاء التلاميذ يجأرون بأصواتهم فى حلقـات المساجد، وفى الطرقات يعظون الناس ويذكرونهم بوعيد الله.(٣٦)

وكانت هذه المواعظ، وتذكير الناس بوعيد الله من تلامذه الحسن البصرى انما تنبع من شجاعة الرأى التى تعد من سمات الفتـوة التـى غرسها سيد الفتيان فى عصره فكان تلامذته يقولون الحق ولا يخشـون لومة لائم.

ومن هؤلاء التلاميذ الين نقابلهم فى مدرسة الحسن البصـرى، نجد محمد بن واسع الذى كان يسميه الحسن (بزين القراء) وكان محمد بن واسع يخفى صومه وبكاءه ويعيب على من يعلن حالة البكاء علـى الناس وينقد على ابى سلمه يحيى نسبته إلى البكاء ويقـول : إن أشـر أيامكم يوم نسبتم فيه إلى البكاء وكان قليل الكلام، يفضل الصمت، ولـم يكن يلبس الصوف، ولم يكن يرى كثير عبادة، إذ كان يخفى عبادته ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.(٣٧)

وإذا ما نظرنا إلى هذه الفقرة نجد أنها قد تضمنت العديـد مـن أصول الملامتية هذه الاصول التى أوردهـا "السلمى" فـى رسـالة الملامتية.

أولاً : يعيب محمد بن واسع على من يعلن حالة البكـاء علـى الناس. ويقول السلمى : "ومن اصولهم ــ الملامتية ــ ترك البكاء عند

السماع والذكر والعلم ــ وغير ذلك وملازمة الكمد (الحزن) فإنه احمد للبدن.(٣٨)

حقا لقد كان هذا الاصل ــ الملامتى ــ واضحاً جلياً فى حيـــاة محمد بن واسع لانه لازم الكمد (الحزن) إذ تربى فى مدرســة الحســن البصرى "شيخ الاحزان" وانه كان يعيب على من يعلن حالة البكاء.

ثانياً : كان محمد بن واسع قليل الكلام. ويفضل الصمت. يقول السلمى :" ومن أصولهم ــ الملامتية ــ ترك الكلام فى العلم والمباهـــاة به وإظهار أسرار الله منه عند غير أهله ..... فالملامتية لم يتكلموا إلا بعد ما عقلوا عن الله فصاروا أمناء الله فى أرضه والأمين حريص على حفظ أمانته"(٣٩)

ثالثاً : لم يكن محمد بن واسع يلبس الصوف. يقول الســلمى : ومن أصولهم ــ الملامتية ــ ترك تغير اللباس، والكون مع الخلق على ظاهر ما هم عليه والاجتهاد فى اصلاح السر. واصلهم فى ذلــك مــا روى عن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ انـــه قــال :"ان الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم ونياتكم"(٤٠)

رابعاً : كان محمد بن واسع يخفى عبادته ما استطاع إلى ذلــك سبيلاً، ولم يكن يرى كثير عبادة. ويرى السلمى ان الملامتى الكـــامل هو الذى وصفه أبو يزيد، بأنه من كتم حاله عن الناس تماماً بحيث انـــه يؤاكلهم ويشاربهم ويمازحهم ويبايعهم ويشاربهم ولكـــن قلبــه متعلــق بملكوت القدس.(٤١)

بالإضافة إلى هذا نجد ان محمد بن واسع يخشى الذنوب بل كان يرى ان حياته ــ وهو العابد الزاهد الخائف ــ ذنباً وخطيئة. وفى هذا

الصدد يقول: " لو كان يوجد للذنوب ربح، ما قد رتم ان تدنوا منى لنتن ريحى".(٤٢)

ومن أجل هذا نجد ان الهجويرى يعده من ائمة الملامتية، وذلك عند ذكر ائمة الملامتية من اتباع التابعين : محمد بن واسع ــ رضـــى الله عنه ــ ذا حظ واف فى هذه الطريقة ــ الملامتية ــ وانفاس عاليـــة واشارات كاملة فى الحقائق.(٤٣)

وهكذا نجد ان بذرة الفتوة التى غرسها الحسن البصرى قد نمت واتت ثمارها على يد تلاميذه، وتعرفنا على مثال من هـــؤلاء التلاميـــذ "محمد بن واسع" ووجدنا انه يأخذ بالطابع العام لمدرسة استاذه، فيحض على خشوع القلب والزهد فى الدنيا، والشجاعة فى الرأى وعدم البكـــاء والابتعاد عن أهل الاهواء واخفاء العبادة.

بل لا نغالى إذا قلنا ان بعض اصول الملامتيـــة التـــى ذكرهـــا السلمى تمثلت فى كثير من أقوال وافعال محمد بن واسع، ولهذا يعـــده الهجويرى واحداً من ائمتهم.

مدرسة الكوفة :

إذا كنا قد رأينا ان فتوة مدرسة البصرة المتمثلة فـــى شجاعـــة الرأى وقول الحق، ظهرت نتيجة لازدياد الفســـاد، وتفشـــى الخطيئـــة والغنى الحرام فى مجتمع البصرة. فإننا نجد ان الأمر يختلف بالنســـبة للكوفة، إذا انها تأثرت أكثر من غيرهـــا مـــن الامصـــار الاســـلامية بالحروب والمعارك، فقد بنى سعد بن ابى وقاص الكوفة عام ١٧ مـــن الهجـــرة بأمر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، علـــى اطـــلال بـــابل القديمة لتكون معسكرا للجيش العربى بعد فتحه لفارس.(٤٤)

كذلك شاركت الكوفة فى الحروب والمعارك التـــى دارت بيـــن على بن ابى طالب وطلحة والزبير تارة، ومعاوية بن ابى سفيان تـــارة أخرى فكان من أثر الحروب والاضطهاد والروح العسكرية التى سادت الكوفة ان برز قوم من الزهاد بخلق الفرسان علـــى صـــورة زهديـــة جوهرها التضحية المقرونه بالعاطفة الرقيقة والبعد عن الطمع المـــادى والانصراف إلى الزهد والفقر.(٤٥)

وقد ظهرت بوادر الخلق الذى ينسب إلى الفتوة من ســـعيد بـــن جبير(قتلة الحجاج عام ٩٤هـــ) فيروى عنه انه لما وعدوه بالقتل غـــداً قال للحراس : دعونى اتأهب للموت واتيكم غداً فتنازعوا فى ذلك خوف الهرب. ثم أنه غلب عليهم صدقه فأطلقوه ثم جاءهم من الغد فقدمـــوه للقتل، وجاء السياف فذبحه.(٤٦)

وهذه الرواية التى يذكرها الشعرانى عن سعيد بن جبير تضعنـــا امام فتوة ما بعدها فتوة، إذ يعلم سعيد علم اليقين انه مقتول، ويطلب من الحراس ان يطلقوا سراحه على وعد ان يعود، وبعـــد تـــردد يطلقـــون

سراحه لصدقه، فتتاح له فرصة الهرب من القتل ظلماً على يد الحجاج، إلا أنه لصدقه يأبى الهرب ويعود التزاماً ووفاء بالوعد واحتراماً لكلمة الصدق التى قالها.

وظهر فى الكوفه مثال آخر نلمس فيه روح الفتـــوة الصوفيـــة، فنجد ان ابراهيم التيمى الزاهد قد سلم نفسه لشرطة الحجاج علـــى انـــه ابـــراهيم النخعى، فحبس من أجل ذلك حتى مات. ويقول الشعرانـــــى عن سبب حبسه : ان الحجاج طلب ابراهيم النخعى، فجاء الذى طلبـــــه فقال : اريد ابراهيم، فقال انا ابراهيم فأخذوه وهو لا يعلم انه ابراهيـــــم التيمى، فأمر الحجاج بحبسه فى الديماس (السجن) حتى مات.(٤٧)

ويرى الدكتور كامل مصطفى الشيبى. ان الفتوة فـــــى الكوفـــة كانت مبدأ جماعة محددة لها طابعها الخاص، ولباسها المتميز. ويدلـــل على صحة الرأى بقول ابن الجوزى عن ابراهيم بن يزيد النخعى : انه كان يلبس الثوب المصبوغ بالزعفران وبالعصفر، وكان مـــن يـــراه لا يدرى أمن القراء هو أهم من الفتيان.(٤٨)

ألا أننا لا نتفق مع ما ذهب إليه الدكتور الشيبى، وذلك لانه حتى وفاة ابراهيم بن يزيد النخعى (ت٩٥هـــ) لم تكن هناك جماعة محـــــددة تأخذ بمبادئ الفتوة ولها طابعها الخاص ولباسها الممـــيز، إذ ان الفتـــوة حتى ذلك العهد لم تزد عن كونها فتوة فردية.

ولم توجد الفتوة فى جماعة إلا عند الملامتية الذين اكثروا مـــن استعمالها وفسروا الملامة عالى انها نوع من الفتوة والرجولة واطلقـــوا على انفسهم اسم الفتيان أو الرجال وهنا يقول ابو حفص النيســـابوزى : مريدو أهل الملامة متقلبون فى الرجولة لا خطر لأنفسهم.(٤٩)

وجدير بالذكر فى هذا الصدد ان الفتوة ما هـــى إلا مجموعـة الخصال الحميدة والصفات الرشيدة التى تكون فى مجموعـــها مكـارم الاخلاق، وليست الفتوة فى لباس معين أو زى محدد كما هو الشأن فى الفتوة الارستقراطية عند الخليفة الناصر.

اضف إلى ذلك ان لباس الفتوة عند ابن الجوزى يختلـف عـن لباس الفتوة الذى ألبسه الشيخ عبد الجبار للخليفة الناصر، الـــذى هـو عبارة عن ثوب ابيض شبه القباء برسوم ذهب فيه، وعلى رأسه قلنسوة مذهبه، مطوقة بوبر اسود من الأوبار الغالية القيمـــة المتخـذة للبـاس الملوك، مما هو كالفنك واشرف معتمداً بذلك زى الاتراك.(٥٠)

وهكذا نجد أن هذا النوع من الفتوة يختلف عن الفتوة الصوفيـــة التى تقوم على الاخلاق الكريمة والصفات الحميدة، وفى هـــذا المعنـــى يقول الشاعر :

قد يدرك الشرف الفتى ورداءه

خلق وجيب قميصه مقطـــوع

يبقى أمامنا الآن أن نتعرف على بعض الشخصيات فى مدرسة الكوفة إذ لابد للباحث فى تاريخ مدرسة الملامتية ــ بنيسابور ــ ان يلم بالحركات الصوفية فى المدارس الاخرى، ليتبين له مدى تزاوج الأفكار الصوفية والملامتية خارج البيئة النيسابورية.

سفيان الثورى(ت ١٦١هـ)

لقد سارت مدرسة الكوفه فى طريق العبادة تحت اسم القراء، ثم انبثق عن القراء المحدثون، والعلماء، والفقهاء، ثم انبثق عنهم ايضاً العباد والزهاد والصوفية وبذلك يكون لمدرسة الكوفة الفضل فى وضع مصطلح "الزهد" علماً على جماعة تتميز عن العباد، كما تتميز عن القراء، وتقابل الفقهاء والعلماء والمحدثين.(٥١)

ومن أوائل الزهاد الذين نقابلهم فى مدرسة الكوفة، ابو عبد الله سفيان بن سعيد الثورى الذى يقول عنه صاحب الحلية : "كان العلم حليفه والزهد أليفه"(٥٢) ويقول الشعرانى : "وكان رضى الله عنه عالم الأمة وعابدها وزاهدها".(٥٣)

نشأ سفيان محدثاً، وكان الحديث اداة الفقة، ولقد برع سفيان فى الحديث والفقة إلى أكبر حد عرفه العلم الاسلامى ابان ذلك الوقت، ولهذا دعى سفيان بأمير المؤمنين فى الحديث. إلا أنه كان يعلم ان طلب الحديث بدون عبادة انما هو طلب للدنيا، فكان يردد: الحديث أكثر من الذهب والفضة، وليس يدرك وفتنة الحديث أشد من فتنة الذهب والفضة وكم كرة القراء والمحدثين حين اقبلوا على الولاة والامراء يطلبون عز الدنيا بحديثهم وفقههم، وكان يقول : إذا رأيت القارئ يلوذ بباب السلطان، فأعلم انه لص، فإذا رأيت انه يلوذ بباب الاغنياء فاعلم انه مرائى.(٥٤)

لهذا أثر سفيان اعتزال الناس والانفراد عنهم، والابتعاد عن امراء المسلمين حتى فى التشفع ورد المظالم عن الناس، ويرى ان هذا

خديعة ابليس وانما اتخذها فجار القراء سلماً، وكان يصرخ :"وددت ان انجو من هذا الأمر كفافاً لا لى ولا على".(٥٥)

من اجل ذلك نراه يفر هارباً عندما اراد أبو جعفر المنصور ــ الخليفة العباسى ــ أن يوليه القضاء، فلجأ سفيان إلى ســـفينة وقـــال : خبونى لأنهم يريدون قطع رأسى وذلك بتأويل الخبر الـــذى ورد عـــن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ حيث قال : "من جعل قاضياً بين الناس فقد ذبح بغير سكين"، فأخفاه الملاح.(٥٦)

هذا الموقف من سفيان دليلاً على فتوته، بالإضافة إلى ان روح الملامة تكاد تكون هى المسيطرة على هذا الموقف. اذ ابتعـــد عـــن الخلق واعتزل الناس مخافة أن يميل إلى اهوائهم، ويدخل الرياء إلـــى قلبه، بل نجد أنه يفر ويهرب من تولية القضاء كأنه يهرب من القتل.

وإذا ما نظرنا إلى موقف سفيان الثورى من العمل والاكتســـاب نجد أن العبادة أو الزهد عنده لم تكن تعنى التبطل عن الكسب، بل دعا القراء إلى العمل والتكسب من ذات أيديهم، فيذهب إلى البصرة ويجلس فى مجلس العابد البصرى "يوسف بن عبيد" فـــإذا قـــراء كـــأن علـــى رؤوسهم الطير فقال لهم : يا معشر القراء ارفعوا رؤوسكم فقد وضـــح الطريق، واعملوا ولا تكونوا عالة على الناس. ويدعوهم مرة أخـــرى إلى عدم إظهار التخشع إذ يقول : لا تزيدوا التخشع على ما فى القلـــب فاتقوا الله واجملوا فى الطلب... ولا تكونوا عيالاً على المسلمين.(٥٧)

من هذا يتضح لنا أن الزهد، والتصوف، ليس كما يشـــاع عنـــد غالبية الناس من أنه عزوف عن الحياة، بل هو مشاركة إيجابيـــة فـــى مختلف الانشطة والحرف والوظائف العامة، مع المحافظة، فـــى نفـــس

الوقت، على آداب الشريعة الاسلامية وكمالاتها. وينظـــر الصوفيـــة ـــ كما نظر سفيان ـــ إلى أهل التبطل على أنهم قوم جهالة حتى لو كانوا يدعون الخشوع والزهد. فالعامل العابد خير ـــ عندهم ـــ مـــن العـــابد الزاهد لأنه يقوم بدور ايجابى فى تنمية المجتمـــع لا أن يصبـــح عالـــه عليه.(٥٨)

وتتضح حقيقة الزهد عند سفيان الثورى فى قوله : الزهد فـــى الدنيا قصر الأمل ليس بأكل الغليظ ولا لبس العباء. ويقـــول : ليـــس الزهد فى الدنيا بأكل الخشن ولا بلبس الغليظ، وانما الزهد فـــى الدنيـــا قصر الأمل. وكان يردد : ازهد فى الدنيا وتم لا لك ولا عليـــك.(٥٩) بالإضافة إلى هذا لم يكن جوهر الزهد عند سفيان تعذيب الجسد وانمـــا هو تهذيب النفس من شوائب الدنيا، ولذلك كان يقول : ما عالجت شيئـــاً قط أشد على نفسى، مرة على، ومرة لى.(٦٠)

هذا بالرغم من أنهم قوموا ثياب الثورى التى عليه حتى النعـــل فبلغ درهماً واربعة دوانق، وكان لا يجلس فى صدر مجلس قط وانمـــا كان يجلس فى جنب حائط ويجمع بين ركبتيه.(٦١)

ويقول سفيان الثورى : من رأى نفسه على أخيه بالعلم والعمـــل حبط اجر علمه وعمله، ولعل أخاه يكون اورع منه على حرم الله عـــز وجل.(٦٢)

وهنا تتجلى فتوة سفيان الثورى، لأنه لا ينظر إلى أحـــد بعيـــن التحقير والنقص ذلك لان من ينظر إلى الخلق هذه النظرة بحجة العلـــم والعمل يحبط أجره فى العلم والعمل.

وكأننا هنا أمام أصل من أصول الملامتية، الذين يقولون برؤية التقصير فى اعمالهم ويتلمسون المعاذير لغيرهم فيما وقعوا فيـــه مـــن المخالفات، ولا ينظرون إلى أحد بعين التحقير والنقص.(٦٣)

مما سبق نصل إلى أن الفتوة عند سفيان الثورى كانت واضحة جلية فى اقواله وافعاله، ونجد انها تتمثل فى النقاط الآتية :

١ ــ الزهد فى الدنيا وحقيقة الزهد عنده انما هى فى قصر الأمل فـــى الدنيا وليس الزهد فى أكل الخشن ولبس الغليظ.

٢ ــ اعتزال الناس ، مخافة أن يميل إلى اهوائهم،حتى وصل الأمر به إلى رفض تولى منصب القضاء وفر هارباً.

٣ ــ تهذيب النفس، من شوائب الدنيا. ولا ريب أن تهذيب النفس يعتبر جهاداً يفوق الجهاد بالسيف فى ساحة القتال.

٤ ــ عدم النظر إلى الخلق بالتحقير والنقص لان مثل هذه الرؤية تؤدى إلى احباط العلم والعمل.

داود الطائى (ت١٦٥)

لقد كان أبو سليمان داود بن نصير الطائى من كبـــار المشـــايخ وسادات أهل الصوفية منقطع النظير فى زمانه، وتلميـــذ الإمـــام أبـــو حنيفة، ومن أقران الفضيل بن عياض وابراهيم بن ادهـــم وغيرهمـــا. وكان فى كل العلوم ذا حظ وافر وفى الدرجة العليـــا اختـــار العزلـــه واعرض عن طريق الرياسة والدنيا، وسلك طريق الزهد والتقوى.(٦٤)

وإذا كنا قد عرفنا ان داود الطائى كان عالماً فى الحديث والفقه، فيحق لنا ان نتساءل عن السبب الذى دعاة إلى ان يترك ما هـــو فيـــه ويؤثر حياة الزهد والعزلة؟

وللإجابة على هذا السؤال يذكر القشيرى عدة أسباب أدت بداود الطائى إلى الزهد، منها ان داود كان يمر ببغداد يوماً فنحاه المطرقـــون ـــ أى الحرس بين يد الوزير "حميد الطوسى" ويبدو أنـــه كـــان علـــى معرفة بحميد ـــ فقال : أف لدنيا سبقك بها حميد.

ويقال ايضاً ان سبب زهده انه سمع نائحة تنوح وتقول :

بأى خديك تبدى البلى

واى عينيك إذا ســـالا(٦٥)

وهذه القصة يذكرها ابن الجوزى فى صورة أخرى، أنه ســـمع نائحة تنوح على مقبرة وتقول : يا حبى ـــ ليت شعرى ـــ بأى خديـــك بدا البلى، بالايمن أم بالايسر فصعق داود، وتراءت أمامـــه الصـــورة. ودخل مرة أخرى إلى مقبرة فسمع امرأة تنوح عند قبر وهى تقول :

مقيم إلى أن يبعث الله خلقه

لقاؤك لا يرجى وانت قريب

تزيد بلى فى كل يوم وليلـــــة

وتسلى كما تبكى وأنت حبيب.(٦٦)

بالإضافة إلى هذا يذكر القشيرى أن داود كان يجالس أبا حنيفة ، فقال له ابو حنيفة يا أبا سليمان : أما ألاداة فقد احكمناها، فســـأله داود : فأى شئ بقى؟ فقال : أبو حنيفة العمل له.(٦٧)

ويقصى داود عن نفسه قائلاً :فنازعتنى نفسى إلى العزلة فقلـــت لنفسى : حتى تجالسهم ولا تتلكم فى مسأله، فجالستهم سنة لا أتكلم فـــى مسألة، وكانت المسألة تمر بى وأنا إلى الكلام فيها أشـــد نزعـــاً مـــن العطشان إلى الماء البارد ولا اتكلم به.(٦٨)

وهنا يضع داود الطائى للصوفية ــ من بعده ــ طريق تصفية النفس من شوائبها ونوازعها، والتخلـــص مـــن عجبـــها وغرورهـــا. ويفرض على نفسه الصمت أو الصوم عن الكلام.

وجدير بالذكر أنه يتولد من العجب، الكبر. ومن الكبر الآفـــات الكثيرة هذا مع العباد، أما مع الله تعالى فالعجب يدعو إلى نسيان الذنوب وإهمالها فبعض ذنوبه لا يذكرها ولا ينتقدها لظنه انه مستغن عن تفقدها فينساها وما يتذكره منها يستصغره ولا يستعظمه، فلا يجتهد فى تداركه وتلافيه، بل يظن انه يغفر له. ولما العبادات والاعمال فإنه يستعظمها ويمن على الله بفعلها، وينســـى نعمـــة الله عليـــه بـــالتوفيق والتمكيـــن فيها.(٦٩)

أما الغرور فهو سكون النفس إلى ما يوافق الهوى، ويميل إليـــه الطبع عن شبهة وخدعة من الشيطان، فمن اعتقد انه على خير أما فـــى العاجل أو فى الآجل عن شبهة فاسدة فهو مغرور. وأكثر الناس يظنون

بأنفسهم الخير وهم مخطئون فيه فـــأكثر النـــاس اذن مغـــرورون وان اختلفت اصناف غرورهم واختلفت درجاتهم، حتى كأن غرور بعضـــهم اظهر واشد من بعض.(٧٠)

من أجل هذا اراد داود الطائى تخليـــص النفـــس مـــن عجبـــها وغرورها وذلك بأن فرض على نفسه الصمت أو الصوم عن الكلام.

وهنا نتسأل مع استاذنا الدكتور النشار، هـــل يوجـــد فـــى هـــذا الموقف أثر مسيحى فقد كان الرهبان يفرضون على أنفســـهم الصمـــت لمدد طويلة؟

ويجيب قائلاً : ولا أجد فى تاريخ داود الطائى ما يثبـــت هـــذا.

كان الأمر كله منازعة نفسية وموقفا داخلياً حين نبهه استاذه الكبير أبو حنيفة إلى فكرة العمل.(٧١) والسؤال الآن ما هو المصدر الـــذى مـــن خلاله توصل داود الطائى إلى أن الصمت يعد علاجاً لتخليص النفـــس من عجبها وغرورها؟

حقيقة الأمر أننا نرى أن هذا المصدر انما يتمثـــل فـــى ثقافـــة الرجل الاسلامية إذ انه كان عالماً بالحديث والفقه، ففى كتاب الله عـــز وجل نجد ما يشير إلى أن فى الصمت السلامة والنجاة، وفى الخـــوض فى الكلام الخطر والحساب فى الآخرة. ويتضح ذلك فى قوله تعـــالى : "ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد"(٧٢)

كذلك نجد فى أقوال رسول الله ــ صلـــى الله عليـــه وســـلم ــ الكثير الذى يحض على الصمت، مثل قوله ــ صلى الله عليه وســـلم ــ "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت"(٧٣)

وعن صفوان بن سليم انه قال : قال رسـول الله ـ صلـى الله عليه وسلم ـ "ألا أخبركم بأيسر العبادة وأهونها على البدن، الصمـت وحسن الخلق"(٧٤)

بالإضافة إلى هذا نجد أن فى الصمت اقتداء بصحابة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد روى أن أبا بكر الصديق ـ رضـى الله عنه ـ كان يضع حصاه فى فمه يمنع بها نفسه عن الكلام، وكان يشير إلى لسانه ويقول : هذا الذى أوردنى الموارد. وقال عبد الله بن سعود: والله الذى لا إله إلا هو ما شئ أحوج إلى طول سجن من لسان.(٧٥)

وهكذا نصل إلى أن فتوة داود الطائى تتضح فى ثورتـه علـى الفقهاء، وزهده فى الدنيا. حتى قال عنه معروف الكرخى : لم أر أحداً كانت الدنيا أهون فى عينيه مما كانت فى عين داود الطائى، فلم تكـن الدنيا واهلها جميعاً لديه بمقدار جناح بعوضه وكان ينظر إلى الفقـراء بعين الاحترام، وان كانوا ملأى بالآفات.(٧٦)

بالإضافة إلى تهذيب النفس عن طريق الصمـت الـذى كـان يوصـى به مريديه. قال أبو ربيع الواسطى : قلـت لـداود الطـائى : أوصينى فقال صم عن الدنيا واجعل فطرك الموت وفر مـن النـاس، كفرارك من السبع.(٧٧)

مدرسة الشام:

قبل ان نعرض لسمات الفتوة فى مدرسة الشام، يجـــدر بنـــا ان نلقى الضوء على البيئة الشامية، تلك البيئة التى قدمت الحياة الدنيا على الآخرة.

وذلك نتيجة لسياسة معاوية بن أبى سفيان الذى حكمها من ســـنة ١٧هـــ أيام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وظل هذا الحكم ممتـــداً ـــ قرابه ـــ ثلاثة وأربعين سنة.(٧٨)

وعلى الرغم من أن معاوية حكم الشام فـــى عـــهد عمـــر بـــن الخطاب، إلا أنه لم ينهج سياسة عمر فى حكمة ولم يحاول أن يقتفى أثر خطى ابن الخطاب فى سياسته إذ كان حكمه ما هو إلا ملك دنيـــوى لا صلة له بعمر الذى ولاه. فكان يأكل الأطايب، ويلبس النواعم، ويجلس على الكراسى.

وقد لاحظ عمر ترفه وبضاضته، وتفننه فى مطعمـــه وراحتـــه فعلل له معاوية ذلك بأنه بأرضى الحمامات والريف(٧٩). بالإضافة إلى أنه قريب من الدولة الرومانية وان لم يظهر أمامهم بهذه الصـــورة ـــ صورة الملك الدنيوى التى توحى بالقوة والبأس فأنـــهم لـــن يـــهابوه أو يخشون بأسه.

وعلى الرغم من هذه الحياة الناعمة فى بيئة الشام إلا أن صوت الحق دائماً هو الأعلى، فها هو أبو ذر الغفارى، ينكر على معاوية هذه الحياة المترفة المنعمة فكان أهل الشام يجتمعون إليه ويســـمعون منـــه ويؤمنون له.

وكان أبو ذر يردد : بشر الاغنياء بمكاوى من نار تكوى بـــها جباهم وجنوبهم وظهورهم حتى ضاق منه معاوية. وخاف على أهـــل الشام من دعوته واقواله.

فكتب يشكو منه إلى عثمان، وكتب عثمان إليه أن أشخص إلـــى جندياً ــ أبى ذر ــ على أغلظ مركب واوعره فأرســـله معاويـــة إلـــى المدينة غير حفى به.(٨٠)

من هذا يتبين لنا أن الارهاصات الأولى للفتوة الصوفيـــة فـــى مدرسة الشام تمثلت فى شجاعة الرأى، هذه الشجاعة التى وضع بذورها أبو ذر الغفارى الذى قال الحق ولم يخشى فى الله لومة لائم.

كذلك رأى أبو الدرداء أهل دمشق ــ الشـــام ــ يتبـــارون فـــى الثراء ويتقلبون فى النعم، أى اقبلوا على الدنيا وتركوا العلم والعمـــل ــ إلا قليلاً ــ ويهجرونه وهو صاحب رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فنادى فيهم : يا أهل دمشق انتم الأخوان فى الدين والجيران فى الدار والانصار على الأعداء من يمنعكم من موتتى وانمـــا مؤونتـــى علـــى غيركم، مالى أرى علماؤكم يذهبون وأرى جهالكم لا يتعلمون واراكم قد اقبلتم على ما تكفل لكم به وتركتم ما أمرتم به إلا أن قوماً قد بنوا شديداً وحملوا كثيراً وأملوا بعيداً، فأصبح بنيانهم قبوراً واملهم غروراً...(٨١)

ومر أبو الدرداء برجل مذنب والناس تسبه. فغضب وقال لهم : أرايتم لو وجدتموه فى قليب. الم تكونوا مستخرجيه. قالوا : نعم قـــال فلا تسبوا أخاكم واحمدوا الله الذى عافاكم. فسألوه : ألا تبغضه؟ قـــال انما ابغض عمله فإذا تركه فهو أخى.(٨٢)

وهذا مقام صوفى حقيقى، كما يرى الاستاذ الدكتور النشار (٨٣) بالإضافة إلى أنه يدل على فتوة صوفية تتمثل فى الصفح عن الأخوان.

وهكذا نجد أن بيئة الشام كانت مترفة منعمـــــة، كـــان اهـــها يتبارون فى الثراء والنعم والاقبال على الدنيا وزخرفها.

وحقاً أن معاوية اشترى رؤساء القبائل، وغمرهم بالأموال والهدايا فذم البعض وضمائرهم، حتى عباوا الجيوش يحاربون فى سبيله، او فى سبيل اطماعه(٨٤). ولكن هذا الفساد لم يمنع أبداً صوت الحق من أن يدوى عالياً فى وجه الظلم. فرأينا الارهاصات الأولـــى للفتـــوة فـــى مدرسة الشام، تتمثل فى موقف بعض صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ وقد اتضحت هذه الفتوة غاية الوضوح فـــى مجاهدة النفس بالإضافة إلى الدعوة للزهد، والصفح عن الأخوان.

وجدير بالذكر فى هذا الصدد أم إبن جبير، فى رحلته ذكر أنه وجد فى دمشق حوالى سنة ٥٨١هـ جماعة من السنيين يعرفون بأهل الفتوة، ويعرفون كذلك بطائفة النبوية وكانوا حريصاً على الاتصاف بالفتوة وأمور الرجولة كلها، وكل من ألحقوه بين لخص ولا يرون ان يستعدى أحد منهم فى نازله تنزل به، ولـــه فـــى مواهب عجيبة، وإذا أقسم احدهم بالفتوة بر بقسمه، وهم الروافض أينما وجدوهم، وشأنهم عجيب فى الأخوان.

وهنا نجد أنفسنا أمام جماعة ظهرت فى دمشق أنفسهم بأهل الفتوة، ويعرفون كذلك بطائفة النبوية، و أنهم من أهل السنة وانهم كانوا حرباً على الشيعة، و منهم. ولا نعلم إن كان هؤلاء من الجماعة أ

وإذا كنا قد عرفنا ان فتيان الصوفية كان اهتمامهم الأكبر منصباً على الجوانب المعنوية من الفتوة، وانهم ذهبوا فى هذا الأمر إلى أبعـــد مدى. بينما وجدنا هذه الطائفة يغلب عليها الجانب المادى وان اشتركوا مع فتيان الصوفية فى بعض الجوانب المعنوية للفتوة.

فإننا نرى أن هذه الفرقة ـــ النبويـــة ـــ تميـــل إلـــى العيـــارين والشطار أكثر من ميلها إلى فتيان الصوفية.

ولما كان بحثنا ـــ فى هذه الفقرة ـــ منصباً على الفتوة الصوفية فى مدرسة الشام فإننا نكتفى بهذا الجزء عن الارهاصات الأولى للفتوة فى هذه المدرسة حتى يتسنى لنا أن نتعرف على بعض الفتيان، والتـــى تتمثل فيهم روح الفتوة الصوفية.

عمر بن عبد العزيز(ت ١٠١هـ)

من صلب بنى مروان ظهر " عمر بن عبد العزيز" فتـــى بنـــى أمية، بل فتى الإسلام فى عصره ذلك لأنه عاش فى زمـــن ســـاد فيـــه الفساد والفسق، وتفشى فيه الخداع والكذب والخيانة، فلا مبالغة إذا قلنا عن عمر بن عبد العزيز أنه فتى الاسلام فى عصره.

فقد كان وحيد زمانه فى عفته وعفافه، وفريد عصره فى صدقه وفضله، ودماثة خلقه، تولى خلافة المسلمين ســـنوات يســيرة فـــافتقر واغناهم وعاش حياة الزهد ليضرب المثل الأعلى والقـــدوة الصالحـــة للولاة والحكام، بالإضافة للرعية والمحكومين، حتى اصبح فى النـــاس علماً من اعلام الاسلام واماماً فى الورع والتقوى وعارفاً بالله جامعـــاً بين الحكم والحكمة، خاف الله فأمنته المخلوقات ورجا الله فلم يخف من أحد سواه حاسب نفسه حساباً عسيراً. وراقب ما يدخل إليها وما يخرج منها فكان نعم الخليفة الورع الصالح.(٨٦)

وهكذا نجد أنفسنا أمام شخصية تحلت بكثير من الخصال الحميدة والصفات الرشيدة، تلك الخصال والصفات التى تكون فـــى مجموعـــها صفات الفتوة كما عرفتها الصوفية. ولا غرابة فى هذا خاصة اننا أمام فتى مؤمن تربى فى مدرسة الاخلاق الاسلامية، فـــألزم نفســـه باتبـــاع أوامر الله، واجتناب ما نهى عنه سبحانه، واتخذ من حياة رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ الأسوة الحسنة، ومن حياة الصحابة رضوان الله عليهم القدوة الصالحة، ولم يفاضل بين أحد من الصحابة كما هو الشأن عند امراء بنى أمية. بل أنه أول خليفة أموى يبطل سب على بن أبـــى طالب على المنابر، فكان الأموى الوحيد الذى مدحـــه الشيعـــة بلســـان

الشريف الرضى منهم(٨٧) الذى مدحه بأشرف الألقاب واسماها فقـــال عنه "فتى" ولم يقل : أميراً وحاكماً : فقال :

يا ابن عبد العزيز لو بكت العيـــ

ن فتى من أمية لبكيتـــــــــك

أنت نزهتنا عن السب والقـــــذ

ف، فلو أمكن الجزاء جزيتـــــك

ولو انى رايت قبرك لا ستـــــــح

بيت من أن أرى وما حييتـــــــك(٨٨)

وإذا كان الزهد عند الصوفية هو أن تملك وتهجر، والبعد عـــن الدنيا، والنظر إليها بعين الزوال لتصغر فى العين فيســهل الاعــراض عنها.(٨٩) فإننا نجد أن هذا القول ينطبق تماماً على الخليفـــة الزاهــد عمر بن عبد العزيز الذى ملك فهجر خوفاً من أن ينشغل بمـــا أعطـــى عن العاطى سبحانه وتعالى.

فيروى عنه أنه لما ولى الخلافة خير جواريه وقال : قد نزل بى أمر شغلنى عنكن إلى يوم القيامة، وحتى يفرغ الناس من الحساب. فمن أحبت منكن ان اعتقها اعتقتها، ومن أحبت أن أمسكها على أن لا يكون منى إليها شئ امسكتها فبكين وارتفع بكاؤهن يأساً منه، وخير فاطمة ــ زوجه ــ بين أن تقيم عنده وبين أن تلحق بدار أبيـــها، فبكيـــت وعـــلا نحيبها.

وإذا ما عرفنا ان عمراً كان قبل خلافته يلبـــس أغلـــى الثيـــاب والينها فإنه بعد أن ولى الخلافة هجر ذلك وكان يخطب الناس بقميـــص مرقوع الجيب من يديه ومن خلفه فقال له رجل : يا أمير المؤمنيـــن أن

الله قد اعطاك، فلو لبست؟ فنكس رأسه ثم قال : افضل القصـــر عنـد الجدة، وأفضل العفو عند المقدرة.(٩٠)

وهنا نجد أنفسنا أمام فتى يخاف أن يتبع هوى نفسـه فيظلمـها، فيكثر فى طلب الحظوظ واللذات وينشغل بالدنيا، ومن ينشغـل بالدنيـا يحجب عن الآخرة ومن يهتم بالخلق يحجب عن الحق.

يقول مالك بن دينار: يقولون مالك بن دينار زاهد، انما الزاهـد عمر بن عبد العزيز انته الدنيا فتركها.(٩١)

ويقول عمر بن عبد العزيز : انما الزهد فـى الحـلال، وإمـا الحرام فنار تسعر.(٩٢) لقد زهد عمر بن عبد العزيز فى الحلال فخاف أن يقع فى الحرام وقدوته فى هذا قول أبى بكر الصديق : كنـا نـدع سبعين باباً من الحلال مخافة أن نقع فى باب من الحرام.(٩٣)

وإذا ما تحدثنا عن مظاهر الورع فى حياة عمر بن عبد العزيز نجد أنها كثيرة متعددة نقتبس منها بعض الأمثلة : فيذكر صاحب الحلية أن عمراً أرسل غلامه يوماً ليشوى له قطعة لحم، فأتى بـها مسـرعاً، فقال للغلام : أنك أسرعت... فقال الغلام : لقد شويتها فى نار المطبـخ (يقصد مطبخ المسلمين الذى يقدم فيه الغذاء للمحتاجين) فقال لغلامـه : يا بنى كل أنت اللحم فانك رزقتها ولم ارزقها(٩٤)

لقد رفض عمر لورعه أن يأكل طعاماً شوى لـه فـى موقـد المسلمين ولم يشو فى بيته مخافة أن يكون فيه شبهة الحرام.

وقيل أنه حمل إلى عمر بن عبد العزيز مسك من الغنائم فقبض على مشامه وقال : انما ينتفع من هذا بريحه وأنه أكره أن أجد ريحـه دون المسلمين.(٩٥)

لقد وصل عمر بهذا القول إلى ذروة الورع لأنه رفض أن ينتفع بأى شئ ولو كان هذا الشئ، رائحة المسك دون سائر المسلمين. والذى منعه من ذلك أن هذا المسك من الغنائم فللمسلمين جميعاً حق فيه فـــأبى عمر أن يشم وقبض على أنفه تورعاً ومخافة أن يكون فى ذلك شبهـــة الحرام لأنه استحل لنفسه شئ هو للمسلمين.

ولا يخفى على أحد ورعه عندمـــا كـــان ينظـــر فـــى حوائـــج المسلمين. فكانت تضاء له الشمعة ــ من بيت المال ــ فإذا فرغ مـــن حاجتهم اطفأها ثم اضاء سراجه ما هذا الورع، هذا الخوف الذى لا حد له... انه ليس الخوف من انسان كائناً من كان.... ان الخائف الورع هنا أمير المؤمنين.... فممن يخاف؟ أنه يخاف من ربه الذى يراه فى كـــل أمره، فى ظاهره وفى باطنه، لذلك خاف أن يكون هذا الزيت الذى ليس من ماله الخاص ــ ومن مال المسلمين ــ فيه شبهة الحرام.(٩٦)

ومن مظاهر إكرام الضيف فى حياة ابن عبد العزيز ما يحكيـــه لنا ابن جبوة فقال : سمرت ليله عند عمر بـــن عبـــد العزيـــز فـــإعتل المصباح فقمت لأصلحه..فأمرنى عمر بالجلوس ثم قام فأصلحه، ثـــم عاد فجلس..وقال : قمت وأنا عمر بن عبد العزيز... وجلست وأنا عمر بن عبد العزيز أن الرجل اللئيم هو الذى يستخدم ضيفه.(٩٧)

ويطول بنا المقام إذا استعرضنا مظاهر الفتوة ــ المعنوية ــ من تواضع ورحمة وعدل واحسان... فى حياة الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز انما نكتفى بهذا القدر لبيان فتوته، ومنه يتضح لنـــا أن مدرســـة الشام على الرغم ما احاط بها من فساد وانحلال إلا أنه ظهرت بعـــض النمـــاذج التى تحلت بالفتوة كانت هذه النماذج نبراسا للفتوة الصوفيـــة فى هذه المدرسة.

أبو سليمان الدارانى (ت ٢١٥هـ)

وكان فى الشام فتى آخر على طراز عمر بن عبد العزيز. هـو أبو سليمان الدارانى وهو : عبد الرحمن بن عطية، ويقال عبد الرحمن بن أحمد بن عطية. من أهل "داريا" قرية من قرى الشام (دمشق)(٩٨)

وإذا كان الفتى هو الواقف عند مراسم سيده.(٩٩) فإنه يدرك فى حقيقته أنه عبد يأتمر بأمر خالقه سبحانه وتعالى، وينتهى عما نهى عنه، ولكى يدرك الفتى هذه المنزلة عليه بالمجاهدة، والإخلاص فى العمل.

وقد أدرك أبو سليمان الدارانى حقيقة هذا الأمر لذلك ألزم نفسه بقيام الليل ساجداً لله تعالى يتلو كتابه امتثالاً لقول عز من قائل : "والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً".(١٠٠) وقوله تعالى :"تتجافى جنوبهم عـن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً".(١٠١)

ويذكر الدارانى أن أهل الليل على ثلاث طبقات : منهم إذا قـرأ متفكراً بكى ومنهم إذا تفكر صاح وراحته فى صياحه، ومنهم إذا قـرأ وتفكر بهت ولم يصح ولم يدرك سائله. أن الأمر أقوى من التفسـير، أنه يتكلم عن خطرات القلوب فى المراحل.(١٠٢)

يقول الدارانى : من أحسن فى نهاره كوفئ فـى ليلـه، ومـن أحسن فى ليله كوفئ فى نهاره، ومن صدق فى ترك شهوة ذهب الله بها من قلبه. والله تعالى أكرم من أن يعذب قلباً بشهوة تركت له.(١٠٣)

وهنا نجد الغاية التى ينشدها الدارانى من قيام الليل، هى نفـس الغاية التى يسعى إليها الفتيان، وهى الاخلاص بأعمال السـرائر، لأن من أخفى لله تعالى الاخلاص بأعمال السرائر، اخفى لهم الله من الجزاء

نفيس الذخائر. استناداً إلى قوله تعالى : "فلا تعلم نفس ما اخفى لهم من قرة أعين".(١٠٤)

وإذا كان الفتى عند الصوفية لا يهتم بالخلق حتى لا يحجب عن الحق، فيروى عن أحمد بن الحوارى أنه قال : قلت لأبـــى ســليمان : صليت صلاة فى خلوة فوجدت لها لذة فقال : أى شئ لذك فيها؟ قلت : حيث لم يرنى أحد فقال : انك لضعيـــف حيـــث خطـــر بقلبـــك ذكـــر الخلق.(١٠٥)

وإذا ما علمنا أن للفتوة مقام القوة، وان الفتوة ليس فيها شئ من الضعف.(١٠٦) فإنه يتضح لنا قول الدارانى لتلميذه أحمد بن الحوارى : أنك لضعيف أى لم تصل بعد إلى القوة (الفتوة). وإذا كان الضعيف هو الذى يخطر بقلبه ذكر الخلق فإن القوى (الفتى) لا يخطر بقلبه ذكر الخلق ولا يهتم بهم حتى لا يحجب عن الحق سبحانه وتعالى.

وإذا كان الفتى عند الصوفية هو الذى يؤدب نفســـه ويحاســـبها ويخالف هواها فإننا نجد الدارانى فى هذا الصدد يقول : ابلـــغ الأشيـــاء فيما بين الله وبين العبد المحاسبة... ويقول : أفضل الأعمـــال خـــلاف هوى النفس.(١٠٧)

وأبى سليمان الدارانى شأنه شأن سائر الصوفية وفتيانهم، عرف حقيقة الدنيا وانها زائفة فانية، وانها لو كانت تســاوى عنـــد الله جنـــاح بعوضة ما سقى الكافر فيها شربة ماء. لذلك خلع الدنيا من قلبه، واقبل بكليته إلى خالقه سبحانه يبتغى رضوانه. وفـــى هـــذا المعنـــى يقـــول الدارانى : إذا سكنت الدنيا فى قلب ترحلت منه الآخرة.(١٠٨) ويقـــول ايضاً : لكل شئ مهر،ومهر الجنة ترك الدنيا بما فيها.(١٠٩)

وهكذا نجد فى مدرسة الشام فتى آخر على طراز عمر بن عبد العزيز هو أبو سليمان الدارانى، وقد تمثلـــت فتوتـــه فـــى المجـاهدة والاخلاص فى العمل عن طريق قيام الليل. وعدم الاهتمام بالخلق حتى لا يحجب عن الحق.

ووصف الدارانى من يخطر بقلبه ذكر الخلق بأنه ضعيف أى لم يصل إلى القوة "الفتوة". هذا بالإضافة إلى بعض الخصال الحميدة التى تكون فى مجموعها الفتوة ـــ المعنوية ـــ عند الصوفيـــة ومنـــها تـــرك الدنيا، وابتغاء الآخرة، ومحاسبة النفس وتأديبها ومخالفة هواها.

مدرسة خراسان

قبل أن نخوض فى الفتوة الصوفية فى مدرسة خراسان، يحسن أن نقرر أن خراسان التى نعنيها هى المنطقه التى تستغرق مجموع مدن، بلخ، ونيسابور ومروالروز، وبيرود ونسا...وغيرها وتقع هذه المنطقة فى ملتقى أفغانستان وايران، أى فى الشمال الشرقى من ايران الحالية.(١١٠)

وجدير بالذكر أن خراسان قد إمتلأت بالمظالم الأموية، وإن الإسلام ذاته لم يمنع الامويين من جباية الجزية من الفرس، وقد ادرك الخليفة العادل "عمر بن عبد العزيز" عيب السياسة الأموية بصفة عامة، وخراسان بصفة خاصة فكتب لعامله على خراسان الذى اخبره بأن أهلها لا يصلحهم إلا السيف والعصا قائلاً : "بل كذبت، يصلحهم العدل والحق فابسطه بينهم".(١١١)

وكان من نتيجة هذا الظلم الأموى على الخراسانين، أن ظهرت الفتوة فيها إلا أن هذه الفتوة لم تتمثل فى مهاجمة الاغنياء وسلب أموالهم وتوزيع ثرواتهم على الفقراء، كما يفعل الشطار والعيارين. إنما تحلت فتوة خراسان بالإيثار والتضحية بالنفس فى سبيل العدل والخلق الكريم.

ولهذا فليس غريباً أن نسمع من عبد الله بن المبارك (ت١٨٠هـ) معنى الفتى بالقارئ . وكان من رأى عبد الله بن المبارك ان الفرق بين الفتوة والقراءة. أن القراءة يراد بها وجه الله تعالى، والفتوة يراد بها الناس وهم (١١٢) وليس معنى هذا أن الفتوة نوع من الرياء فى حين أن القراءة بعد ما تكون من ذلك. وانما يراد بالفتوة

ـ فى رأى ابن المبارك ـ الاحسان إلى الناس وبعث السرور فى نفوسهم بعدما شاع فى بيئتهم من تعاسة وألم وفاقة، فكان الفتيان الخراسانيون الأوائل عباداً قراء مخلصى الايمان.(١١٣)

وجدير بالذكر فى هذا الصدد أن الفتوة فى خراسان قد اقتصرت مثلها على الجانب المعنوى، أى أنها اهتمت أساساً بالصفات الخلقية.

وبناء عليه يمكن القول أن الفتوة الصوفية انما وجدت فى خراسان. ولو انصف الجنيد ما قال : الفتوة بالشام، واللسان بالعراق، والصدق بخراسان. بل قال : الفتوة والصدق بخراسان.(١١٤)

ومن الأمثلة الدالة على أن فتوة خراسان اهتمت اساساً بالصفات الخلقية ما يروية القشيرى، من أنه خرج انسان يدعى الفتوة من نيسابور إلى نسا فاستضافه رجل ومعه جماعة من الفتيان، فلما فرغوا من الطعام خرجت جارية تصب الماء على إيديهم، فانقبض النيسابورى عن غسل اليد وقال : ليس الفتوة أن تصب النسوان الماء على ايدى الرجال.

فقال واحد منهم : أنا منذ سنين ادخل هذه الدار لم اعلم أن امرأة تصب الماء على ايدينا أم رجلاً.(١١٥)

والسؤال الآن من هو الفتى فى هذه القصة، هل هو من لاحظ أن امرأة تصب الماء على ايدى الرجال، فرفض ذلك قائلاً: ليس من الفتوة ان تصب النسوان الماء على ايدى الرجال أم هو صاحبه الذى يدخل الدار منذ سنين وعينه لا تقع على من يصب الماء، ولا يعلم أن كانت امرأة أم رجلاً.

واننا نرى أن هذا الأخير أكمل فى الفتوة من صاحبه لأنه غض بصره، وترك فضول النظر الذى لا حاجة إليه، إذ من الفضول تمييز الفتى ما فى دار غيره من متاع وخادم...وغيرها.

وإذا ما اردنا أن نعرف ما هى الفتوة ــ فى خراسان ــ فلنستمع إلى أبى حفص النيسابورى حينما اجتمع مشايخ بغداد وسألوه عن الفتوة. فقال : تكلموا انتم فإن لكم العبارة واللسان. فقال الجنيد : الفتوة اسقاط الرؤية وترك النسبة. فقال : ابو حفص : ما احسن ما قلت ولكن الفتوة عندى اداء الانصاف وترك مطالبة الانصاف فقال الجنيد : قوموا يا أحابنا، فقد زاد أبو حفص على أدم وذريته.(١١٦)

وهذا اعتراف واقرار من الجنيد بأسبقية أبى حفص فى ميدان الفتوة، وهذا يؤيد ما ذهبنا إليه من أن الجنيد لو انصف لقال :"ان الفتوة والصدق بخراسان".

وإذا ما قارنا بين عبارتى أبى حفص النيسابورى والجنيد، تبين لنا الفرق بين وجهتى نظرهما فى هذه المسألة. فالجنيد يرى الفتوة فى اسقاط الرؤية: أى فى عدم النظر إلى الاعمال نظرة اعتبار وتقدير، وترك النسبة : أى اسقاط العلائق والروابط التى تربط الانسان بأى شئ أو أى موجود غير الله. وعلى ذلك فالفتوة عنده هى الزهد الكامل.

أما أبو حفص فيرى الفتوة فى اداء ما يراه الصوفى انصافاً وعدلاً، أى القيام بجميع الواجبات الشرعية والاجتماعية بدون أن يطالب القائم بها بأنصاف من جانب الشرع أو من جانب المجتمع : أى أن الفتوة عنده هى التضحية الخالصة (١١٧).

وتأكيداً لذلك يذكر السلمى أن أبا حفص النيسابورى لما أراد الخروج من بغداد شيعه من بها من المشايخ والفتيان، فلما ارادوا أن يرجعوا قال له بعضهم : دلنا على الفتوة ما هى؟ فقال الفتوة تؤخذ استعمالاً ومعاملة لا نطقاً فتعجبوا من كلامه. وسئل أبو حفص : هل للفتى من علامة ؟ قال : نعم من يرى الفتيان ولا يستحى منهم فى شمائله، وافعاله، فهو فتى.(١١٨)

مما سبق يتضح لنا أن الفتوة انما هى نظام أو اسلوب حياة يحياها الفتى الصوفى ويعيشها وليس أقوال نظرية يتحدث عنها ويشرحها، وان هذه الحياة يجب ان يتصف صاحبها بحسن الخلق. وفى هذا الصدد يقول محمد بن الفضل البلخى (ت٣١٩هـ) : الفتوة حفظ السر مع الله على الموافقة، وحفظ الظاهر مع الخلق بحسن العشرة واستعمال الخلق.(١١٩)

وتأكيداً على أن الفتوة ما هى إلا اسلوب حياة، وليست مجرد اقوال نظرية، ما كان من حمدون القصار (ت٢٧١هـ) الذى يذكرنا ـ فى فتوته ـ بعمر بن عبد العزيز الذى كان يطفئ شمعة بيت مال المسلمين إذا انشغل بعمل يتصل بشخصه فسار حمدون القصار فى الشوط إلى نهايته فأطفأ شمعة صديق له مات : فقالوا له : فى مثل هذا الوقت يزاد فى السراج الدهن؟ فقال لهم : ان هذا الوقت كان الدهن له، ومن هذا الوقت صار الدهن للورثة.(١٢٠)

وليست هذه مجرد اقوال متفرقة نجمعها من أمهات الكتب لندلل بها على أن الفتوة والصدق بخراسان،وانما نجد هذه الفتوة واضحة جلية عند كثير من رجال هذه المدرسة.

الفضيل بن عياض (ت١٨٧هـ)

اختلف الباحثون قديماً وحديثاً حول المدرسة التى ينتمـــى إليـــها الفضيل بن عياض فالبعض يعتبره من مدرسة خراسان، والبعض الآخر يعتبره من مدرسة مكة، ويدرجه الدكتور الشيبى فى مدرسة الكوفة.

وقد اتى هذ الاختلاف نتيجة اختلاف الناس فى أصل الفضيل بن عياض، فبينما يذهب السلمى إلى أن الفضيل بن عياض بن مسعود بـــن بشر التميمى ثم اليربوعى خراسانى من ناحية مرو من قرية يقال لـــها فندين.(١٢١)

يذهب القشيرى إلى أن أبا على الفضيل بن عياض خراسانى من ناحية مرو، وانه ولد بسمرقند، ونشأ بأبيورد، ومات بمكة فى المحـــرم سنة سبع وثمانين ومائة.(١٢٢) ويحسم هذا الأمر ابنه أبو عبيـــدة بـــن الفضيل بن عياض فيقول : أبى فضيل بن عياض ابن مسعود بن بشـــر يكنى بأبى على، من بنى تميم، من بنى يربوع، من أنفسهم ولد بسمرقند ونشأ بأبيورد والاصل من الكوفة.(١٢٣)

واود أن أصل من هذا إلى أن الرجل كان عربياً،ولكنـــه عـــاش باكورة حياته فى خراسان ــ فى بيئتها وجوها ــ وقدم الكوفة، ثم انتقل إلى مكة ــ مجاوراً ــ حتى مات بها. وعلى هذا فإننا نتفق فى الرأى مع من يذهب إلى أن الفضيل من مدرسة خراسان، وذلك لأن ســـمات هذه المدرسة تتبثق فيه.(١٢٤)

وعن سبب تزهد الفضيل يذكر القشيرى أنه كان شاطراً يقطـــع الطريق بين ابيورد وسرخس. وكان سبب توبته أنه عشـــق جاريـــة، فبينما هو يرتقى الجدران إليها سمع تالياً يتلو قول الله تعالى: "ألم يـــأن

للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله"(١٢٥) فقال : يـــار ب قـــد آن، فرجع، فآواه الليل إلى خربه، فإذا فيها رفقة فقال بعضـــهم : نرتحـــل، وقال قوم حتى نصبح فإن فضيلاً على الطريق يقطـــع علينـــا. فتـــاب الفضيل وامنهم، وجاور الحرم حتى مات.(١٢٦)

ويذكر الهجويرى أن الفضيل بن عياض كان فى بدايـــة أمـــره عياراً، يقطع الطريق بين مرو، وباورد (ابيورد) وكان يميل كل الميـــل إلى الصلاح، وفى طبعه همة وفتوة بحيث إذا كان فى القافلة امرأة لـــم يكن يحوم حولها ولا يأخذ بضاعة من رجل ذى رأس مال قليل وكـــان يترك لكل رجل شيئاً بنسبة رأس ماله. إلى أن جاء وقت خرج فيه تاجر من مرو، فقالوا له : خذ معك حارساً لأن الفضيل على الطريق فقال : سمعت أنه رجل يخشى الله وذو بصيرة فلا خوف. وصحـــب التـــاجر معه قارئاً، واركبه جملاً ليتلو القرآن ليلاً ونهاراً، إلى أن بلغت القافلـــة مكاناً كان الفضيل يكمن فيه.

واتفق أن قرأ القارئ قوله تعالى :" ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله" .فبدت رقة فى قلب الفضيل، واظهرت العناية سلطان ألطافها لروحه فتاب عن ذلك العمل.(١٢٧)

. مما سبق نصل إلى أن الفضيل كان فى بدايـــة حياتـــه عيـــاراً شاطراً يقطع الطريق على القوافل إلا أنه كان فى طبعه همـــة وفتـــوة. وهذا الأمر أقرب إلى الصعلكة منه إلى الفتوة. حتى إذا ما تاب عـــن هذا الفعل كان على رأس فتيان الزهاد والصوفية.

فيعتبره ابن العمار، شيخ الفتيان، ويورد له حديثاً عن الرســـول فى الفتوة. قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ "ليأتى على الناس

زمان تعدم فيه الفتوة، وتنقضي فيه المروءة وتضيـــق فيــه الاخــلاق، ويستغني الرجل بالرجل،والنساء بالنساء فإذا كان ذلك فانتظروا العذاب صباحاً ومساء".(١٢٨)

ومن اصدق الموافق التى تدل على فتوة الفضيل بن عياض، ما رواه الفضيل بن الربيع (حاجب الرشيد) قال : ذهبت إلى مكـــة مــع هارون الرشيد، فلما حججنا قال لى هارون : اهنا رجل من رجـــال الله فنزوره؟ فصحبته إلى الفضيل بن عياض، وكان يقيم فى غرفـــة يتلــو القرآن... وعندما تمت المقابلة بين أمير المؤمنين ــ هــارون الرشيــد والفضيل بن عياض قال له الرشيد : عظنى قال يا أمير المؤمنيــن قــد كان أبوك عم المصطفى ــ صلوات الله عليه ــ فطلب إليه أن اجعلنى اميراً على قوم، قال صلى الله عليه وسلم "يا عم، بك نفسك" يعنـــى لأن تكون لحظة فى طاعة الله خير من طاعة الخلق لــك ألــف عــام، لأن الإمارة يوم القيامة ندامة. قال له الرشيــد : زد مــن عظتــى. فقــال الفضيل ابن عياض : لما نصب عمر بن عبد العزيز للخلافة اســتدعى سالماً بن عبد الله ورجاء بن حيوة، ومحمد بن كعب القرظى رحمهم الله ــ وقال : لقد ابتليت بهذه البلية فما تدبيرى؟ فإنى ارى هذا بلاء مــهما يظنه الناس نعمة.

فقال واحد منهم : إذا اردت أن يكون لك الفوز والنجاة غداً يوم القيامة، فأعتبر شيوخ المسلمين كابيك وشبابــهم كــأخوتك، واطفالــهم كأبنائك.... وحينئذ عاملهم كما تعامل أباك واخاك وولدك فى دارك لأن جميع ديار الإسلام بيتك وأهلها عيالك، فزر أباك، وأكرم أخاك، واحسن إلى ولدك.

ثم قال الفضيل : يا أمير المؤمنين، أنى أخشى علـــى وجـــهك الجميل أن يبتلى بنار جهنم فاخشى الله تعالى، وأد حقه خيراً من هذا.

وقال له هارون بعد ذلك : اعليك دين؟ قال نعم دين الله علـــى، وهو طاعته، فإذا قضيته نجيتنى من الويل. فقال هارون : أتكلم عـــن دينك للخلق.

فقال : الحمد والثناء والشكر لله جل جلاله إذ لدى منه نعم كثيرة وليس لى منه شكوى حتى اشكوه إلى عباده... وعندئذ وضع هـــارون أمامه صره ذهب وقال له : اصرف هذا فى وجه من الوجوه.

فقال الفضيل : يا أمير المؤمنين أن عظتى هذه لم تفدك قط ومن هنا اخذت فى الجور وبدأت الظلم. فقال هارون : أى ظلم فعلت قـــال الفضيل : أنا أدعوك إلى النجاة وأنت توقعنى فى الهلاك، أفلا يكون هذا ظلماً؟ فبكى هارون وخرج من عنده وقال : يا فضيل بـــن ربيـــع، أن الملك هو الفضيل.(١٢٩)

لقد أثرنا أن نذكر هذه الرواية على الرغم من طولها كما هـــى، وكما ذكرها صاحب كشف المحجوب، ذلك لأنها دليل على فتوة الفضيل وعلى منزلة الدنيا عند رجال الله ــ الفتيان ــ أمثال الفضيل، كما أنـــها دليلا على صولته فى الدنيا وأهلها وحقارة زينتها فـــى قلبـــه، وتركـــه التواضع لأهل الدنيا مهما كانت منزلتهم، حتى ولو كان أمير المؤمنيـــن ــ من أجل الدنيا إذ ان التواضع الحق انما يكون للخالق سبحانه وتعالى من أجل الفوز بالنجاة فى الآخرة.

ومما لا شك فيه أن التأمل الذاتى فى حياة الفضيل بن عيـــاض وفى كلماته ليبين بوضوح أن الرجل عاش عيشة إيثار ومروءة وسخاء.

ويتضح ذلك فى قوله "لم يدرك عندنا من ادرك بكثرة صيام ولا صلاة، وانما أدرك بسخاء الأنفس وسلامة الصدر، والنصح للأمة".(١٣٠)

ويقول ايضاً : "لو ان الدنيا بحذافيرها عرضت على ولا أحاسب بها لكنت اتقذرها كما يتقذر أحدكم الجيفـــة إذا مـــر بـــها ان تصيـــب ثوبه".(١٣١)

من أجل هذا زهد الفضيل فى الدنيا حتى أنه جعل الرغبة فيـــها مفتاح كل شر إذ يقول : "اجعل الشر كله فى بيـــت، وأجعـــل مفتاحـــه الرغبة فى الدنيا وأجعل الخير كله فى بيت، وجعل مفتاحه الزهد فـــى الدنيا".

والفضيل بن عياض شأنه شأن فتيان الصوفيـــة يؤثـــر اخفـــاء الاعمال، والبعد عن النفاق والرياء. فيقول : "خير العمل اخفاه, وامنعه من الشيطان، ابعده من الرياء".(١٣٢)

ولهذا أثر الفضيل البعد عن الدنيا وزخرفها قائلاً : طوبى لمـــن استوحش من الناس وانس بربه، وبكى على خطيئته.(١٣٣)

أحمد بن خضرويه (ت ٢٤٠هـ)

يقول عنه السلمى : هو أحمد بن خضرويه البلخى، كنيته أبـــو حامد، وهو من كبار مشايخ خراسان. صحب أبـــا تـــراب النخشبـــى وحاتما الأصم، ورحل إلى أبى يزيد البسطامى. وهو مـــن مذكـــورى مشايخ خراسان بالفتوة وتوفى سنة أربعين ومائتين.(١٣٤)

ويذكر القشيرى أن أحمد بن خضروية كان من كبـــار مشـــايخ خراسان، وكان كبيراً فى الفتوة. وقال أبو حفص : ما رأيـــت أحـــدا أكبر همة ولا أصدق حالاً من أحمد بن خضروية. وكان أبـــو يزيـــد يقول : استاذنا أحمد.(١٣٥)

وهكذا نجد أنه اتفقت الاراء ــ من جانب اصحاب الطبقـــات ــ على ان أحمد بن خضروية من كبار مشايخ خراسان، وانه كان كبـــيراً فى الفتوة. وسوف نحاول من خلال عرض أقواله وافعاله ان نتعـــرف على بعض جوانب فتوته.

قال رجل لأحمد بن خضروية : اوصينى فقال : أمـــت نفســـك حتى يحييها.(١٣٦) وهنا تجدر الإشارة إلى أن المقصود بالنفس فى هذه الوصية، انما هى النفس الشهوانية التى تأمر صاحبها بالسوء والفحشاء.

فنفس الأدمى إذا راضها بترك الشهوات، وقطعها عن الملـــذات حتى تذل له وتتقمع، فلا تتحكم فيه بشهوة ولا تطالبه برغبة وانما تكون سلسة منقادة للقلب والعقل، مستقيمة فى سيرها على حد ما أمرت بـــه دون زيادة أو نقص.

أما إذا لم يؤدب العبد نفسه، ولم يعودها على رفض الشـــهوات المطلقة لها حتى تذل وتسكن لم يملكها عند ذكر ما يعرض لـــها، ولـــم يقدر على تسكينها.

وهنا يصبح عرضة عند جهاده لنفسه لأن يغلب أو يغلب ولذلك يوجد العبد مرة طائعاً، ومرة عاصياً في شـــهوة واحـــدة، وهـــذا هـــو التخليط، وهو ناشئ من بقاء الشهوة حية فى النفس فتتحكم كلما مكنتـــها الفرصة، لذا ينبغى العمل على إماتة هذه الشهوة.(١٣٧)

وعلى هذا يجب أن نفهم أن موت النفس ــ فـــى وصيـــة ابـــن خضروية ــ لا يعنى ان الانسان يصبح ولا نفس له، انما يعنى تـــأديب النفس الشهوانية الأمارة بالسوء أى أنه بدلاً مـــن أن تكـــون الشـــهوة مسيطرة ومتحكمة فى مشاعر الإنسان وتفكيره، تصبح ذلولـــة منقـــادة لقلبه وعقله، بدلا من أن تكون متجهة اتجاهاً دنيوياً حراً، تصبح موجهة توجيها دينيا مقيدا.

وإذا كان الجود والكرم سمة ــ هامة ــ من ســـمات الفتيـــان. فيذكر الهجويرى أنه عندما جاء يحي بن معاذ الرازى من الـــرى إلـــى نيسابور، وقصد بلخ، اراد أحمد بن خضروية ان يدعوه، فشاور فاطمة ــ زوجه ــ فيما ينبغى لدعوة يحي بن معاذ. فقالت : يلزم كثير مـــن البقر والخراف والحوائج والتوابل، وكثير من الشمع والعطر.. وكل من هذا يلزم أيضاً ذبح عشرين حماراً. فسألها أحمد : مـــا معنـــى ذبـــح الحمير؟ قال : حين يكون كريم ضيفاً ببيت كريم أما يجب أن تعـــرف كلاب الحى ذلك.؟(١٣٨)

كذلك يروى أن أحمد بن خضروية استقرض من رجل مائة ألف درهم، فقال له الرجل : أليس انتم الزهاد فى الدنيا؟ مـــا تصنـــع بـــهذه الدراهم؟ قال : اشترى بها لقمة فاضعها فى فم مؤمـــن لا اجـــترئ أن أسأل ثوابه من الله تعالى. قال الرجل : لم؟ قال : لأن الدنيـــا كلـــها لا تزيد عند الله جناح بعوضة، وما مائة ألف درهم فى الدنيا، من جنـــاح بعوضة؟ لو أخذتها، فطلبت بها شيئاً ما الذى تعطى بها؟ والدنيا كلها لها هذا القدر.(١٣٩)

وهنا نجد أنفسنا أمام فتى من أهل الآخرة، فى مجادلة مع انسان من أهل الدنيا يوضح الفتى فى هذا الموقف أن المال لا قيمة له ان لـــم يوسع به على اخواننا فى الإيمان ولا ننتظر ثواباً ولا شكوراً عن هـــذا العمل. ذلك لأن الدنيا وما فيها لا تساوى عند الله جناح بعوضة. فمـــا قيمة المال، إذا لم ينفقه الفتى على اخوانه فى الإيمان وهو فى حاجـــة إليه.

اضف إلى هذا أن موقف أحمد بن خضروية فى هـــذا الصـــدد يوضح أن الفتى قد يقترض حتى يوسع على اخوانه فى الإيمان. على العكس من العيار والشاطر الذى قد يلجأ إلى السرقة وقطـــع الطريـــق ويسلب الاغنياء أموالهم بحجة توزيعها على الفقراء والمحتاجين ويذكر الدكتور الشيبى ــنقلاً عن حلية الأولياء ــ أن أحمد بن خضروية قـــد اضاف دليلاً آخر إلى ما كان الفتيان يتصفون به من تضحيـــة وانكـــار ذات بمجيئه بزوجه إلى ابى يزيد البسطامى ليزوجها اياه.(١٤٠)

إلا أننا نجد أن ما يذكره للدكتور الشيبى نقلاً عن صاحب الحلية لا يتفق مع اخلاق الفتيان كما أنه لا يتفق مع ما يرويه الهجويرى الذى

يذكر : أن أحمد بن خضرويه عندما قصد زيارة أبو زيـــد البســطامى رافقته فاطمة ـــ زوجه ـــ ولما أقبلت على ابى يزيد رفعت البرقع عن وجهها وكانت تتحدث معه بجرأة فتعجب أحمد مـــن ذلـك، واســتولت الغيرة على قلبه، فقال : ياقاطمة أى جراءة تلك التى كانت لك مع أبى يزيد؟

فقالت : لأنك محرم طبيعتى وهو محرم طريقتى. والدليل على هذا أنه فى غنى عن صحبتى وأنت محتاج إلى. وكانت دائماً جريئـــة مع أبى يزيد، حتى وقعت عينه يوماً على يدها فوجدها مخضوبة بالحناء فقال : يا فاطمة لم الخضاب بالحناء؟ فقالت : يا أبا يزيد لقد كنت أتبسط معك طالما لم تكن رأيت يدى وحنائى، والآن وقد وقعت عينيك علـــى يدى فقد صارت صحبتنا حراماً.(١٤١)

بالإضافة إلى هذا فقد قال أبو يزيد عن فاطمـــة : مـــن أراد أن ينظر إلى رجل من الرجال مخبوء تحت لباس النسوان فلينظـــر إلـــى فاطمة.(١٤٢)

وإذا كان الفتى من كانت أعماله سراً بينه وبين خالقه، ولا يجب أن يطلع عليها أحد سوى الحق تبارك وتعالى فقـــد أكـــد أحمـــد بـــن خضروية على هذا المعنى فى قوله : بلغنى أنه استأذن بعض الأغنيـــاء على الزهاد فأذن له فرأه فى رمضان ـــ يأكل خبزاً يابساً بملح فرجـــع إلى منزله، وبعث إليه ألف دينار ـــ فرده،وقال : ان هذا جـــزاء مـــن أفشى سره إلى مثلك.

لهذا عندما سئل أحمد بن خضروية عن أى الأعمـــال أفضـــل، قال: رعاية السر عن الالتفات إلى شئ سوى الله تعالى.(١٤٣)

معنى هذا أن السر هو ما لا يجوز أن يعلمه غير الله، أو يطلـــع عليه غيره لأنه سبحانه وتعالى انفرد به دون الخلق. ولـــهذا قـــالوا : صدور الأحرار قبور الاســـرار وقـــالوا: لـــو عـــرف زرى ســـرى لطرحته.(١٤٤)

أبو تراب النخشبى(ت٢٤٥هـ)

لقد أثرنا فى هذا الجزء من البحث أن نستعرض أراء وأقـــوال أبو تراب النخشبى ذلك لأننا وجدنا أن كتب الطبقات قد أجمعت على أن أبا تراب النخشبى من جلة مشايخ خراسان، ومن المذكوريـن بـالفتوة. يقول عنه السلمى :

أبو تراب النخشبى،واسمه عسكر بن حصين، ويقال : عسكر بن محمد بن حصين وهو من جلة مشايخ خراسان، والمذكوريـن بـالعلم، والفتوة، والتوكل، والزهد والورع.(١٤٥) ويقول عنه الشعرانى : هـو من أجلة مشايخ خراسان وكبارهم المشهورين بالعلم والفتوة والزهـد، والتوكل، والورع.(١٤٦)

بالإضافة إلى هذا فإننا سنجد ــ عند الحديث عن الملامتية ــ أن كثيرا من أراء أبى تراب النخشبى كان لها أثراً واضحاً، وصداً واسـعا عند كثير من الملامتية، وخاصة عند تلميذه حمدون القصار، لاسيما فى مسائل التوكل، والنهى عن لبـس المرقعـة وفـى معنـى الصـدق، والاخلاص(١٤٧) وغير ذلك من المعانى التى تدخـل ضمـن فتـوة الصوفية.

واذا اعتبرنا التوكل من السمات التى يتحلى بها الصوفية عامـة وفتيانهم خاصة، فنريد أن نعرف ما هو التوكل عند النخشبى.؟

قال أبو تراب النخشبى : التوكل طمأنينة القلب إلـى الله عـز وجل.(١٤٨)

وسئل أبو تراب عن التوكل فقال : التوكل، طرح البـــدن فـــى العبودية،وتعليق القلب بالربوبية، والطمأنينة إلى الكفاية، فـــإن أعطـــى شكر، وان منع صبر راضياً موافقاً للقدر.(١٤٩)

وجدير بالذكر فى هذا الصدد أن التوكل مقام شريف، وقد أمـــر الله تعالى بالتوكل وجعله من صفـــات المؤمنيـــن، وذلـــك فـــى قولـــه تعالى:"وعلى الله فليتوكل المؤمنون".(١٥٠)

وقال تعالى : " ومن يتوكل على الله فهو حسبه".(١٥١)

ومن ذلك نصل إلى أن التوكل الذى قصده النخشبى، هو انتهاء القلب بالكلية عن ملاحظة الحول والقوة، وسائر الاسباب الظاهرة، لأنه فى هذه الحالة يفنى العبد عن التدبير ولا يجد له حولاً ولا قوة إلا بالله، ولا يشعر إلا بالقدرة الالهية والارادة الربانية.(١٥٢)

فإذا ما اطمئن القلب إلى الله، انقطع العبد إلى الله عـــز وجـــل، وكفاة مولاه كل مؤنه ورزقه من حيث لا يحتسب، ومن انقطـــع إلـــى الدنيا وكله الله إليها.

وإذا كان الفتى الصوفى يرى أن الفقر سر الله عنده فإذا ظـــهر عليه فقره منه فإنه فى هذه الحالة يكون غير أمين على الاسرار التـــى اودعها الله عنده.

لذلك قال أبو تراب النخشبى : الفقير قوته ما وجد،ولباســـه مـــا ستر، ومسكنه حيث نزل(١٥٣) ويفسر الهجويرى هذا المعنـــى للفقـــر قائلاً : وقد بقى أهل العلم جميعاً فى بـــلاء هـــذه الثلاثـــة ـ القـــوت، واللباس، والمسكن ـ لأنهم يتكلفون وهذا من جهة المعاملة ولكن مـــن وجهة التحقيق فغذاء الفقير الوجد، ولباسه التقوى، ومسكنه الغيب(١٥٤)

لأن الله تعالى يقول "وان لو استقاموا على الطريقـــة لاســـقيناهم مـــاء غدقا"؟(١٥٥) وقال عز من قائل : "وريشا ولباس التقوى"(١٥٦)

وعلى هذا يمكن القول أن الفقر ليـــس معنـــاه ــ عنـــد فتيـــان الصوفية ــ قلة المال، بل الفقر هو الحاجة، والحاجـــة لا تكـــون إلا لله تعالى. بمعنى أن الفتى ــ وإن كان غنيا فإنه يشعر رغم غناه وثروتـــه بحاجته وبعجزه وبفقره إلى الله سبحانه وتعالى، فإذا احتاج إلى غـــيره، سبحانه، لم يعد فقيراً، فشرط الفقر، اذن هو حاجة العبد إلى الله تعـــالى على الدوام، لأنه ليس هناك غنى إلا الله تعالى. وقد أكـــد أبـــو تـــراب النخشبى على هذا فى قوله : " حقيقة الغنى، أن تستغنى عمن هو مثلك وحقيقة الفقر، ألا تفتقر إلى من هو مثلك.(١٥٧)

وفى هذا القول يتضح لنا أن الغنى هو الاستغناء عـــن النـــاس، والفقر هو ألا يحتاج العبد إلى من هو مثله من الخلق، إنما حاجة العبـــد إلى خالقه ومولاه أما إذا كان الفقر يعنى قلة المال، فهنا يجـــب علـــى الفقير أن يكون قانعاً، منقطع الطمع عن الخلق غير ملتفت إلى ما فـــى أيديهم، ولا يمكنه ذلك إلا بأن يقنع بقدر الضرورة من المطعم والملبس والمسكـــن، فيكون قوته ــ كما قال النخشبى ــ ما وجد ولباســـه مـــا ستر، ومسكنه حيث نزل فإذا ما كان الفقير قانعاً، ومنقطع الطمع عـــن الخلق غير ملتفت إلى ما فى أيديهم فيكون التفاته، وإقباله إلـــى خالقـــه سبحانه.

وقد أكد النخشبى على هذا بقوله : القناعة أخذ القـــوت مـــن الله عز وجل(١٥٨) بالإضافة إلى هذا فقد نهى أبو تراب النخشبى أصحابه

عن اظهار الفقر بلبس المرقع من الثياب قائلاً : من لبس منكم مرقعـــة فقد سأل.(١٥٩)

وقد أكد النخشبى فى هذا القول على معنيين الأول : ستر الفقر، لأنه سر الله عند العبد، ولا يجب على العبد أن يبوح بسر مولاه.

الثانى : أن العبد لا يسأل إلا الله تعالى، وذلك لأنه محتاج دوماً إلى خالقه سبحانه ولا يتأتى ذلك إلا بحفظ الهم حيث قـــال النخشبـــى : احفظ همك، فإنه مقدمة الاشياء فمن صح له همه صح له ما بعد ذلـــك من افعاله واحواله.(١٦٠)

وهنا تجدر الاشارة إلى أن هم العبد هو سره، وسره هو همـــه، فلا فرق بينهما.(١٦١) فإذا ما حفظ العبد همه ــ أى سره ــ تجرد من جميع الأشغال، وتفرد بمراقبة ذى الجلال فلا تعارضه خواطر قاطعـــة ولا عوارض مانعة عن التوبة والاقبال والقرب وهـــو بذلـك بمثابـة المناجى لله، والمحدث فى الله، والطائع فى طريق الله.(١٦٢)

هوامش
الفصل الرابع

(١) د. على سامى النشار : نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام جـ ٣ ص ١٠٥

(٢) د. كامل مصطفى الشيبى : الصلة بين التصوف والتشيع جـ ١ ص ٣٠٨

(٣) سيف بن عمر الضبى الأسدى : الفتنة ووقعة الجمل ص ١٢٢، ١٢٣

(٤) سيف بن عمر الضبى الاسدى : الفتنة ووقعة الجمل ص ١٣٠

(٥) المرجع السابق ص ١٣٠

(٦) د. على سامى النشار : نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام جـ ٣ ص ١٠٦

(٧) المرجع السابق ص ١٠٧

(٨) ابن الجوزى : صفة الصفوة جـ ٢ ص ١٤٩

(٩) الشعرانى : الطبقات الكبرى جـ ١ ص ٣٠

(١٠) المرجع السابق : جـ ١ ص ٢٩

(١١) سورة البقرة : الأيتان ١٥٦، ١٥٧

(١٢) سورة المدثر : الآية ٤٢

(١٣) سورة التوبة : الآية ١٠٢

(١٤) أبو نعيم الاصبهانى : حلية الأولياء جـ ٢ ص ١٩٨.

(١٥) القشيرى : الرسالة ص ٦٨، ٦٩.

(١٦) الشعرانى : الطبقات الكبرى جـ ١ ص ٢٩

(١٧)د. على سامى النشار : نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام جـ٢ ص ١٢٤

(١٨) الغزالى : احياء علوم الدين جـ ٣ ص ٣٧٠

(١٩) المرجع السابق ص ٣٧٤

(٢٠) د. على سامى النشار : نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام جـ ٣ ص ١٢٨

(٢١) الهجويرى : كشف المحجوب ص ٢٩٤

(٢٢) د. حسن الشرقاوى : أصول التصوف الإسلامى ص ٢٨١

(٢٣) أبو نعيم الاصبهانى : حليه الأولياء جـ ٢ ص ٢١٣١، ١٣٢

(٢٤) أبو نعيم الاصبهانى : حلية الأولياء : جـ٢ ص ١٣٣٣، ١٣٤

(٢٥) المرجع السابق : ص ١٣٧، ١٣٨

(٢٦) الهجويرى : كشف المحجوب ص ٢٩٤

(٢٧) الشعرانى : الطبقات الكبرى جـ ١ ص ٢٥

(٢٨) الشعرانى : الطبقات الكبرى جـ ١ ص ٢٥

(٢٩) المرجع السابق ص ٢٦

(٣٠) ابن الجوزى : صفة الصفوة جـ ٣ ص ٥٧

(٣١) د. على سامى النشار : نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام جـ ٣ ص ١٣٧

(٣٢) سورة الحشر : الآية ١٨

(٣٣) الغزالى : مكاشفة القلوب ص ٣٢١، ٣٢٢

(٣٤) ابن الجوزى : صفة الصفوة جـ ٣ ص ١٥٦

(٣٥) أبو نعيم الاصبهانى : حلية الأولياء جـ ٢ ص ١٣٣

(٣٦) د. على سامى النشار : نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام جـ ٣ ص ١٦٢

(٣٧) أبو نهيم الاصبهانى : حلية الأولياء جـ٢ ص ٣٤٥ ـ ٣٤٧

(٣٨) السلمى : رسالة الملامتية ص ١١٧

(٣٩) السلمى : رسالة الملامتية ص ١٢٢

(٤٠) المرجع السابق : ١١٣

(٤١) د. أبو العلا عفيفى : الملامتية والصوفية وأهل الفتوة ص ٦٤

(٤٢) أبو النعيم الاصبهانى : حلية الأولياء جـ ٢ ص ٣٤٩

(٤٣) الهجويرى : كشف المحجوب ص ٣٠١

(٤٤) د. على سامى النشار : نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام جـ٣ ص ٢١٧

(٤٥) د. كامل مصطفى الشيبى : الصلة بين التصوف والتشيع جـ ١ ص ٣٠٣

(٤٦) الشعرانى : الطبقات الكبرى جـ ١ ص٣٧

(٤٧) الشعرانى : الطبقات الكبرى جـ١ ص ٣٥

(٤٨) د. كامل مصطفى الشيبى : الصلة بين التصوف والتشيع جـ ص ٣٠٣

(٤٩) د. أبو العلا عفيفى : الملامتية والصوفية وأهل الفتوة ص ٢٨

(٥٠) عمر الدسوقى : الفتوة عند العرب ص ٢٤٠

(٥١) د. على سامى النشار : نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام جـ٣ ص ٢٣٩

(٥٢) أبو نعيم الاصبهانى : حلية الأولياء جـ ٦ ص ٣٥٧

(٥٣) الشعرانى : الطبقات الكبرى جـ ١ ص ٤٠

(٥٤) الاصبهانى : حلية الأولياء جـ ٦ ص ٣٨٧

(٥٥) المرجع السابق : ص ٢٦٣

(٥٦) الهجويرى : كشف المحجوب ص ٣٠٣

(٥٧) أبو نعيم الاصبهانى : حلية الأولياء جـ ٦ ص ٣٨٢

(٥٨) د. حسن الشرقاوى : الحكومة الباطنية ص ٢٤٠

(٥٩) الشعرانى : الطبقات الكبرى جـ ١ ص ٤٢

(٦٠) د. على سامى النشار : نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام جـ٣ ص ٢٤٢

(٦١) الشعرانى : الطبقات الكبرى جـ١ ص ٤١

(٦٢) المرجع السابق : ص ٤٢

(٦٣) د. أبو العلا عفيفى : الملامتية والصوفية وأهل الفتوة ص ٦٢

(٦٤) الهجويرى : كشف المحجوب ص ٣٢١

(٦٥) القشيرى : الرسالة ص ١٣

(٦٦) ابن الجوزى : صفة الصفوة جـ ٣ ص ٧٤

(٦٧) القشيرى : الرسالة ص ١٣

(٦٨) القشيرى : الرسالة ص ١٣

(٦٩) الغزالى : احياء علوم الدين جـ ٣ ص ٣٧٠

(٧٠) المرجع السابق : ص ٣٧٩

(٧١) د. على سامى النشار : نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام جـ ٣ ص ٢٤٨، ٢٤٩

(٧٢) سورة ق : الآية ١٨

(٧٣) الغزالى : الاحياء جـ ٣ ص ١١٠

(٧٤) المرجع السابق : ص ١١١

(٧٥) المرجع السابق : ص ١١١

(٧٦) الهجويرى : كشف المحجوب ص ٣٢١

(٧٧) القشيرى : الرسالة ص ١٤

(٧٨) تاريخ الطبرى : جـ ٣ ص ٢٠٣

(٧٩) الذهبى : سير أعلام النبلاء جـ٣ ص ٨٩

(٨٠) د. طه حسين : الفتنة الكبرى جـ ١ ص ١٦٤

(٨١) ابن الجوزى : صفة الصفوة جـ ١ ص ٢٦٢

(٨٢) الشعرانى : الطبقات الكبرى جـ ١ ص ٢١

(٨٣) د. على سامى النشار : نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام جـ ٣ ص ٢٩١

(٨٤) المرجع السابق : ص ٢٨٥

(٨٥) رحلة ابن جبير : تحقيق د. حسين نصار ص ١٦٩

(٨٦) د. حسن الشرقاوى : أصول التصوف الاسلامى ص ١٧٢

(٨٧) د. كامل مصطفى الشيبى : الصلة بين التصوف والتشيع جـ ١ص ٣٤٠

(٨٨) المرجع السابق : ص ٣٤٠، ديوان الشريف الرضى ص ١٦٩، ١٧٠

(٨٩) د. حسن الشرقاوى : ألفاظ الصوفية ومعانيها ص ١٩٢

(٩٠) الشعرانى : الطبقات الكبرى جـ ١ ٢٩

(٩١) الاصبهانى : حلية الأولياء جـ ٥ ص ٦٢٨

(٩٢) الشعرانى : الطبقات الكبرى جـ ١ ص ٢٩

(٩٣) القشيرى : الرسالة ص ٥٨

(٩٤)الاصبهانى : حلية الأولياء جـ ٥ ص ٣٢٤

(٩٥) القشيرى : الرسالة ص ٥٩

(٩٦) د. حسن الشرقاوى : أصول التصوف الاسلامى ص ١٧٦

(٩٧) المرجع السابق ص ١٩٤٠

(٩٨) السلمى : : طبقات الصوفية ص ٧٥ تحقيق نور الدين شربية

(٩٩) ابن عربى : الفتوحات المكية السفر الرابع ف ٤٣ ص ٥٨

(١٠٠) سورة الفرقان : الآية ٦٤

(١٠١) سورة السجدة : الآية ١٦

(١٠٢) د. على سامى النشار : نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام جـ ٣ ص ٣٠٩

(١٠٣) القشيرى : الرسالة : الآية ١٧

(١٠٤) سورة السجدة : الآية ١٧

(١٠٥) السلمى : طبقات الصوفية ص ٧٩

(١٠٦) ابن عربى : الفتوحات السفر الرابع ف ٣٦ ــ ٣٨ ص ٥٤،٥٣

(١٠٧) السلمى : طبقات الصوفية ص ٨٠، ٨١

(١٠٨) المرجع السابق : ص ٧٧

(١٠٩) المرجع السابق : ٨١

(١١٠) د. كامل مصطفى الشيبى : الصلة بين التصوف والتشيع جـ١ ص ٣٤٥

(١١١) المناوى : الكواكب الدرية فى تراجم السادة الصوفية جـ١ ص ١٤٣

(١١٢) أبو طالب المكى : قوت القلوب جـ٢ ص ١٧٢

(١١٣) د. الشيبى : الصلة بين التصوف والتشيع جـ١ ص ٥٣٥

(١١٤) د. أبو العلا عفيفى : الملامتية والصوفية وأهل الفتوة ص ٢٩

(١١٥) القشيرى : الرسالة ص ١١٤

(١١٦) السلمى : طبقات الصوفية ص ١١٧، ١١٨

(١١٧) د. أبو العلا عفيفى : الملامتية والصوفية وأهل الفتوة ص ٣٧

(١١٨) السلمى : طبقات الصوفية ص ١١٨

(١١٩) المرجع السابق : ص ٢١٦

(١٢٠) القشيرى : الرسالة ص ٢٠

(١٢١) السلمى : طبقات الصوفية ص ٦

(١٢٢) القشيرى : الرسالة ص ٩

(١٢٣) السلمى : طبقات الصوفية ص ٨

(١٢٤) د. النشار : نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام جـ٣ ص ٣٩٣

(١٢٥) سورة الحديد : الآية ١٦

(١٢٦) القشيرى : الرسالة ص ٩

(١٢٧) الهجويرى : كشف المحجوب ص ٣٠٨

(١٢٨) ابن العمار : الفتوة ص ١٣٣، ١٣٤

(١٢٩) الهجويرى : كشف المحجوب ص ٣١٠، ٣١١

(١٣٠) السلمى : طبقات الصوفية ص ١٠

(١٣١) القشيرى : الرسالة ص ١٠

(١٣٢) السلمى : طبقات الصوفية ص ١٣

(١٣٣) المرجع السابق : ص ١٤

(١٣٤) السلمى : طبقات الصوفية ص ١٠٣

(١٣٥) القشيرى : الرسالة ص ١٨

(١٣٦) السلمى : طبقات الصوفية ص ١٠٥

(١٣٧) د. عبد الفتاح بركه : الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية جـ٢ ص ١٩٨ ــ ١٩٩

(١٣٨) الهجويرى : كشف المحجوب ص ٣٣٣

(١٣٩) السلمى : طبقات الصوفية ص ١٠٤

(١٤٠) د. الشيبى : الصلة بين التصوف والتشيع جـ١ ص ٥٣٦

(١٤١) الهجويرى : كشف المحجوب ص ٣٣٢

(١٤٢) المرجع السابق : ص ٣٣٣

(١٤٣) السلمى : طبقات الصوفية ص ١٠٦

(١٤٤) القشيرى : الرسالة ص ٤٩

(١٤٥) السلمى : طبقات الصوفية ص ٧

(١٤٦) الشعرانى : الطبقات الكبرى جـ ١ ص ٧١

(١٤٧) د. أبو العلا عفيفى : الملامتية والصوفية وأهل الفتوة ص ٣٦

(١٤٨) السلمى : طبقات الصوفية ص ١٥٠

(١٤٩) الطوسى : اللمع ص ٧٨

(١٥٠) سورة المائدة : الآية ١١

(١٥١) سورة الطلاق : الآية ٣

(١٥٢) د. حسن الشرقاوى : ألفاظ الصوفية ومعانيها ص ١١٣

(١٥٣) السلمى : طبقات الصوفية ص ١٤٩

(١٥٤) الهجويرى : كشف المحجوب ص ٢٣٤

(١٥٥) سورة الجن : الآية ١٦

(١٥٦) سورة الأعراف : الآية ٢٦

(١٥٧) السلمى : طبقات الصوفية ص ١٥٠

(١٥٨) السلمى : طبقات الصوفية ص ١٥١

(١٥٩) القشيرى : الرسالة ص ١٨

(١٦٠) السلمى : طبقات الصوفية ص ١٥١

(١٦١) الطوسى : اللمع ص ٤٢٥

(١٦٢) د. حسن الشرقاوى : ألفاظ الصوفية ومعانيها ص ١١٣

الفصل الخامس
بين الفتوة الإسلامية والفروسية الغربية

تعريف الفروسية الغربية ونشأتها

قد يرى البعض أن الحديث عن الفروسية الغربية قد يخرج بنـــا عن موضوع البحث، إلا أن هذه الجزئية لابد منها لاستكمال عنـــاصر موضوع البحث خاصة بعد أن تتبعنا الفتوة وعرفنا أن جذورها ممتـــدة إلى ما قبل الإسلام وعندما جاء الإســـلام اســـتطاع أن يـــهذب الفتـــوة الجاهلية، كما أنه أشاد بالخصال الحميدة والصفات الرشيدة التى يجـــب أن يتحلى بها الفتيان معبراً عن هذه الصفات "بمكارم الأخلاق".

ووجدنا أن لفظ فتى قد ورد فى كتاب الله عز وجل فى أكثر من موضع، كما أنه جاء وصفاً لبعض الأنبياء.

وعندما ظهرت المدارس الصوفية استطاعت أن تصبغ الفتـــوة بصبغتها حتى اصبحت صفات الفتوة جزءاً من تعـــاليم الصوفيـــة. وان شيوخ الصوفية قد استعملوا كلمة "الفتوة" وأكثروا منها فى احاديثهم.

واتضح لنا من خلال البحث أن هناك خلطاً بيـــن لفـــظ الفتـــوة ومعناها وبعض الألفاظ الأخرى ومدلولاتها وخاصـــة لفـــظ عيـــار أو شاطر.

وانتهينا إلى أن الملامتية قد فسروا الملامة على أنها نوع مـــن الفتوة أو الرجولة واطلقوا على انفسهم اسم الفتيان أو الرجال.

بعد هذا نجد لزاماً علينا أن نتطرق إلى بحث الصلة بين الفتـــوة والفروسية وقد حفزنى إلى ذلك ما رأيته ــ ورأه غيرى من قبل ــ من

أوجه الشبه العديدة بين الفتوة العربية والفروسية الغربيـــة. وان فتيـــان العرب من المسلمين وفرسان أوروبا قد تلاقوا فى أكثر من ميدان.

ومما لا ريب فيه أن البحث فى هذا الموضوع يتطلب الاجابـــة على كثير من التساؤلات منها على سبيل المثال : هل ثمة صلـــة بيـــن الفتوة العربية والفروسية الغربية؟ وإذا كنا قد ذكرنا أن الفتوة العربيـــة تقوم على جانب مادى وآخر معنوى وانهما بمثابة وجهى العملة، فـــهل الفروسية الغربية كذلك أم أنها أخذت جانب دون الآخر؟!

وإذا كنا قد عرفنا الفتوة العربية نشأتها وتطورها، فما هو أصل الفروسية الغربية ونشأتها وتطورها؟

عرفت الفروسية الغربية بأنها نظام عسكرى اقطـــاعى خـــاص بالنبلاء وظهر فى العهد الاقطاعى. وثمة نوع أخر ظهر أبان الحروب الصليبية، يجمع بين الدين والحرب، ثم نوع ثالث ظـــهر بعـــد انتـــهاء الحروب الصليبية يختلف فى اهدافه وغاياته عن النظامين، وإن لم يعمر طويلا.(١)

ومن هذا يتضح لنا أن الفروسية الغربية مرت فى مراحل ثلاث

المرحلة الأولى

لقد أدت الحروب المستمرة بين امراء الإقطاع بعضهم مع بعض إلى وجود نظام عسكرى اقطاعى. إذ كان لابد للأمير ــ الاقطاعى ــ من جند مدربين يحمونه واسرته ويحافظون على املاكه، ويردون عنـــه غارات منافسيه، واضطر الامراء أول الأمـــر إلـــى اســـتخدام جنـــود مرتزقة، انحدرت الجندية على ايديهم إلى وحشيـــة فعمـــد هـــؤلاء ــ

الأمراء ــ إلى قوانين ترفع من مستواهم الخلقـــى، واهمـــها، حـــرص الفارس على شرف الفروســـية، ويتمثـــل فـــى الاخـــلاص والطاعـــة والشجاعة.

لقد كانت أول واجبات الفارس في العهد الاقطاعى هو أن يحمى سيده وكان يعد اعداداً خاصاً كي يكون فارساً، فينتزع وهو فى السادسة من عمره من بين احضان النساء، ويرسل إلى حاشية أحد الأمـــراء أو حاشية الملك ليتلقى تعاليم الفروسية. ويبتدئ من المراتب الدنيا، فيقـــوم أول الأمر بأعمال منزلية، ويراقب النبلاء فى حركاتهم، وأدابهم وشتى مناحى سلوكهم... بعد ذلك يصحب سيده تابعاً له فى الصيد وفى ميدان القتال، وفى المباريات الخاصة، وقد يشترك معه فى كل هذا ويساعده. حتى إذا ظهرت مواهبه وتم استعداده وصار فى سن تؤهله لأن يكـــون فارساً، اقيم له احتفال يشهده غيره من الفرسان.(٢)

وكانت حفلة التلقيب بسيطة فى أول الأول، ولكنها أصبحت فيما بعد دينية إذ كان على الشاب أن يقضى ليلة الحفلة يتعبد فـــى الكنيســـة وفى الصباح يحضر الصلاة ثم يتقدم أحد الفرســـان ويضربـــه أثنـــاء الركوع على رقبته ضربة شديدة بعرض السيف ويقول له : قم فـــأنت فارس. ثم يقسم أن ينصر الدين ويحترم الكنيسة، ويدافع عنها ويقـــاتل الوثنين والكفرة ويأخذ بيد الضعفاء ويحترم المرأة.

غير أنه نشأ عن هذا النظام طبقة ذات ميول ارستقراطية فكـــان الفرسان يكرهون العامة ويحتقرونهم، وقلما كانوا يجردون سيفاً لإغاثة بائس ملهوف، وأدى ذلك إلى إغفال حقوق الضعفاء والتشيع للمرأة إلى حد الجنون.

فلم تكن عواطف الفروسية أو بـــالأحرى المثـــل العليـــا التـــى يتشدقون بها دارجة إلا بين أعضاء الطائفة ــ طائفة النبلاء ــ كما أنها لا توسع بأية حال لتشمل اشخاصا أدنى منزلة.(٣)

المرحلة الثانية

عند ما شن الغرب حملاته المعروفة على الشرق باسم الحروب الصليبية، كان هؤلاء النبلاء ــ فرسان العهد الاقطاعى ــ هم عماد تلك الحملات يخرجون من بلادهم، ومعهم جنود المدربون علـــى دفعـــات لغزو الشرق. وكان من الطبيعى أن تبارك الكنيسة هذا العمل.

وإلى جانب هؤلاء الفرسان ظهرت اثناء الحروب الصليبيـــة ــ نظم الفرسان والرهبان تلك النظم التى جمعت بين الدين والحرب، وكان الغرض من هذه النظم حماية حجاج بين المقدس والسهر علـــى راحـــة الجرحى ومساعدة الفقراء... إلى غير ذلك من أعمال البر والإحسان.

وكانت أولى الجماعات التى اتخذت هذا النمـــط هـــى جماعـــة الداوية، وكان اللقلب الرسمى لها هو

"فرسان المسيح" Milites Christi

كما عرفوا أيضا "بفرسان المعبد" Milites Templi

وعلى الرغم من أن جماعة القديس يوحنا اللذين عرفوا بفرسان الاسبتارية The Hospitallers ، وكانت أسبق من حيث النشأة إلا أن تحولها نحو الطابع العسكرى كان بطيئا.(٤)

وقد وجدت أفكار هذه الجماعات القبول فى الغرب الأوروبـــى فتنافس الجميع فى منحها الامتيازات والعطايا فانتشرت من الأراضـــى المقدسة إلى أوروبا حتى صارت قوة هائلة.

وكان لاستقلالها وتبعيتها المباشرة للبابوية أثره على تطورهـــا وانتشارها السريع دون ايه عقبات تعوق طريقها، وظهر دورهـــا فـــى الدفاع عن الكيان الصليبى ليس فى المملكة فحســـب بـل فـــى بقيـــة الامارات.

وبمرور الوقت ضعف الامراء والنبـــلاء (فرســان الاقطـــاع) واصبحت هذه الجماعات هى القوة الوحيـدة القـادرة علـى مواجهـة الهجمات الاسلامية التى اشتدت ضراوتها كما كان لـــها اهميتـها فـــى الربط بين الصليبين فى الاراضى المقدسة والغرب الاوروبى.(٥)

وإلى جانب الجماعتين السابقتين ظـــهرت جماعـــة "الفرســـان التيوتون" وهى طائفة عسكرية دينية ألمانية تأسس عام ١١٩٠ بمدينة عكا المقدسة على نمط فرسان الهيكل (المعبد) والمستشفى (الاسبتارية).(٦)

وكان لهذه الجماعة شهرة واسعة بسبب انتشارها الواسع والصفة الدولية التى اتسمت بها ودورها فى نشر المسيحية على شـــاطئ بحـــر البلطيق، هذا إلى جانب ما امتلكته من ثروات، وذلك المعيـــن الـــذى لا ينضب من الرجال الذين كرسوا انفسهم لخدمة أهدافها ــ وخاصة فـــى المراحل الأولى من نشأتها ــ وكان لذلك كله أثره فى جعلها فوق رأس تلك المملكة الصليبية، بل وفوق رجال الكنيسة اللاتينية نفسها التى كانوا ينتسبون إليها اسما فقط.(٧)

وجدير بالذكر أن الفروسية الغربية كانت فى أوجها فـــى ذلـــك العهد (أثناء الحروب الصليبية) ولكنها انتهت عندما استرد المســـلمين عكا سنة ٦٩١هـــ ــ ١٢٩١م من يد الصليبيـــن علـــى يـــد الســـلطان الأشرف خليل بن قلاوون.(٨)

المرحلة الثالثة

وفى هذا الطور من أطوار الفروسية الغربية نجد أنها تحولـــت إلى فروسية ضالة لا هدف لها ولا نظام ولا رابطة. وخاصة بعـــد أن رجع الفرسان الذين قاتلوا فى الشرق، وتطور أوروبا وابتداء نهضتـــها الحديثة، فأخذ هؤلاء الفرسان يجوبون البلاد بحثا عن المغامرات نادبين أنفسهم لأداء الخدمات ومساعدة الضعفاء والأخذ بيد المنكوبين وباحثين قبل كل شئ عن الحب ولا سيما حب النساء الثريـــات مـــن زوجـــات الاشراف.(٩) ونلاحظ أن أهم خصائص الفروسية فى تلـــك المرحلـــة، الحب، واحترام المرأة، والرغبة فى المغامرات، والسخاء والمرح وقت الخطر...

وهنا تجدر الاشارة إلى أن ما تتشدق بـــه الفروســية الغربيـــة بالنسبة للحب العذرى، واحترام المرأة انما هو مجـــرد تســلية أدبيـــة ظهرت فى أحاديث الطبقات الارستقراطية.

بينما الواقع يكذبه باستمرار، فقد صبت اللعنات من جانب الدين على الحب بكل مظاهره ونواحيه بوصفه الخطيئة التى يتم بها تدمـــير العالم.

والحق أن الأدب فى العصور الوسطى يظهر أقل القليـــل مـــن الشفقة الحقيقية على المرأة، والقليل من الرحمة لضعفـــها والأخطـــار والآلام التى يدخرها لها الحب واتخذت الشفقة شكلا مجمدا أو خياليا فى القصص العاطفية للفارس الذى ينقذ فتاته العذراء.(١٠)

ولعلنا فى هذا العرض ــ السريع ــ نكـــون قـــد اســـتطعنا أن نوضح كيف تطورت الفروسية الغربية على مر الأيام مـــن فروســـية

عسكرية نشأت فى ظل العهد الاقطاعى، وتعتمد على القـــوة وحدهـــا، وليس فيها من سمو الروح ودماثة الخلق شيئاً. أو بالأحرى فروســـية تأخذ بالجانب المادى فقط دون أن تهتم بالجانب المعنوى.

ثم فروسية خاضعة لتعاليم الكنيسة، مملوءة بالتعصب الدينى ليس فيها شئ من سماحة العقل واتساع افقه. إذ أن الحملات الصليبية كانت بمثابة محاولة ناجحة من الكنيسة للاستحواذ على الجيــوش الاقطاعيـــة واستعمالها فى اغراضها. وتكشف وثائق القرن الحادى عشر فى الغرب عن زيادة كبيرة فى ادعية النصر، وتقع فى القــرن نفســه علــى أول سجلات لمباركة السيف. وشيئاً فشيئاً اصبح منتظراً مــن الفــارس أن يعيش بمقتضى معايير الكنيسة الدينية.(١١)

وبعد انتهاء الحروب الصليبية ظهرت فروسية حديثة فيها كثير من صفات الانسانية ومثلها العليا، وان جعلت أهم خصائصها : الحــب واحترام المرأة والرغبة فى المغامرات.

أثر العرب فى الفروسية الغربية

لا نستطيع أن نشكك فى أن الفروسية الغربية نبتت فى أوروبـــا ولا نغالى مع الغلاة فندعى أنها عربية الأصل لحما ودما. فذلك أمـــر يخالف الواقع. وهذا إذا قصدنا بالفروسية ذلك النظام العسكرى القـــائم على القوة ــ المادية ــ الحربية وحدها، والذى يتطلب تدريبات شاقـــة على فنون القتال، واحتمال الصعاب لأن مثل هذا النظام تتطلبه ظروف كثير من الأمم ــ منذ فجر التاريخ ــ التى تلتحم مع سواها فى ميادين القتال، إما مغيرة تتطلب الغزو والسيطرة، وإما مدافعـــة عـــن نفســـها تتطلب الحرية والحياة الكريمة.

وإذا سلمنا ــ جدلا ــ بأن أصل الفروسية الغربية ــ العسكرية ــ راجعا إلى ما تتطلبه ظروف الدول الأوروبية بدأ بالعهد الإقطاعي، وانهم على مر الأيام وضعوا لها نظاما خاصا وطقوسا معينـــة لتمـــيز الفرسان عمن سواهم، وهنا يحق لنا أن نتســـاءل مـــن الـــذى وضـــع للفروسية الغربية كل تلك التقاليد السامية؟ من الذى وضع المثل العليـــا للفروسية من التمسك بالكلمة، والوفاء بالعهد، والاخـــلاص، والطاعـــة وحماية الضعيف... إلى غير ذلك من الخصال؟

وهنا يمكن لنا أن نقرر أن الفروسية الغربية قد افادت من التقاليد العريقة للفتوة العربية وأن ذلك أمرا لا شك فيه ولا جدال ،وقد اجمـــع على ذلك نفر من خيرة الباحثين الأوروبين.

إذ يقول السير باسيل ليدل هارت فى كتابه "لماذا لا نتعلـــم مـــن التاريخ": والحقيقة هى ان الحرب قد تطورت تدريجيا واكتســـبت بعـــدا

إذا كان مفهوم الفرسان يعنى : جنود مدربين على القتال على ظهور الخيل فإن هذا التنظيم عرفه قدماء المصرين كما عرفه الاشوريون والفرس (قبل الميلاد).

انسانياً ازداد مع مرور الوقت وانقضـــاء الزمــن... وادت اخلاقيــات وقوانين الفروسية فى العصور الوسطى دوراً بارزاً فى هذا التطـــور.

ويعود الفضل الأكبر فى نشوء هذه الظاهرة إلى أصل عربى، ومصدر عربى. وينبغى أن نعترف أن العــرب كــانوا أسـرع واســبق مــن الأوروبين فى ارساء الحرب على القيم الاخلاقية والمبادئ الانســـانية، وعنهم نقلناها، ومنهم تعلمناها، وبهم عرفناها".(١٢)

وما اشبه هذه العبارة فى عدلها وانصفاها، بالعبارة المأثورة التى قالها المفكر الفرنسى "جوستاف لوبون" لم ير التاريخ فاتحاً أعــدل ولا أرحم من العرب(١٣)

وفى هذا الصدد ــ أيضاً ــ يقول كافين رايلى : "وبنهاية القرن الحادى عشر (الميلادى) كان المجتمع الاسلامى قد اصبح اشد استقراراً وتحضراً من أوروبا. واخرج فلاسفة ورياضين وفلكين واطباء وفنانين بنفس الحماس الذى كانت أوروبا تخرج بــه الجنــود. ونقـل خيالــة الصحراء إلى اسبانيا تقنية زراعية جعلت الأرض تزدهر على نحو لم نر مثله من قبل. واصبح نسل الخيالة اساتذة طب فى أولـــى كليــات الطب فى أوروبا. وعلم فلاسفتهم الغرب افلاطون وارســطو وعلــم تجــارهم وبحارتهم الاوروبين الرياضـــة ومســك الدفــاتر والســفر بالبحر... بالاختصار نجد أن الحضارة الاسلامية التى دمرها الصليبيون فى بيت المقدس كانت أرقى واجنح للسلم من غزاتها".(١٤)

ويستطرد كافين رايلى قائلاً : ..."ولا شك أن الفرنجة المسيحين الذين حكموا القدس، ادركوا أن المسلمين أشد منهم تسامحا بكثر. لقــد كانوا يعرفون أن المسيحين قد شغلوا منــاصب عاليــة فــى بلاطــات

المسلمين فى الشرق الأوسط ووجدوا مسيحين سوريين يعملون اطبـــاء وعلماء عند الاطباء المسلمين ورددوا الحكايات عن كرم المسلمين حتى فى المعركة".(١٥)

من هذا المنطلق نرى أن تأثير العرب فى أوروبا جاء إما عـــن طريق الأندلس أو طريق الحملات الصليبية. ويبدو ان تقاليد الفروسية الغربية مأخذوة عن عرب الاندلس لطول احتكاكهم. إذ سيطر العـــرب على الاندلس قرابة ثمانية قرون ، لم تخمد فيها نار الحرب، وقد تألب على العرب أمم شتى من أوروبا كلها، شهدوا صدق بلائهم فى الحرب وكرم قلوبهم وحسن معاملتهم، ووفائهم بعهودهم... حتى صارت هـــذه الصفات الكريمة والخصال الحميدة أمثلة عليا يحتذ بها فرسان الغـــرب ويتغنون بها.

أ .أثر عرب الأندلس

كل من يدرس تاريخ الحضارة فى العصر الوسيط يســـلم بـــأن الاندلس كانت موطنا للقاء طويل بين حضارتين حضارة إسلامية عربية من جانب وحضارة مسيحية لاتينية أوروبية من جانب آخر.

ويسلمون أن هذا اللقاء كانت له أثاره التى يمكن رصدهـــا فـــى حياة اسبانيا المسيحية حتى العصر الحاضر، وفى حياة أوروبا الغربيـــة فى آخر العصور الوسطى وفى عصر النهضة.

وقد كتب الباحثون الاسبان فى تأثر أسبانيا بالحضارة الاسلامية كتبا وأبحاثا عديدة لعل أشهرها ـ لقرب العد به ـ ما كتبـــه البـــاحث

تم فتح الأندلس حوالى سنة ٧١٠م وانتهى حكمهم بسقوط غرناطة سنة ١٤٩٢م

الاسبانى (Americo Casteo) فى هذا السبيل وكذلك كتب الباحثون الأوربيون عن تأثير الحضارة الاسلامية فى الغرب الأوروبى وسجلوا ما ترجم إلى اللاتينية من مؤلفات غربية، وما دخل عن طريق اسبانيا العربية (الأندلس) إلى ذلك الغرب من أثار فى فروع العلم المختلفة وفى نظم الحياة المادية والاجتماعية والفنية.(١٦)

مما سبق يتضح لنا أن الحضارة الاسلامية كانت مزدهرة ومتقدمة فى العصور الوسطى، كما أن هذه الحضارة قد اسهمت بدور فعال فى نهضة أوروبا التى كانت متأخرة فى ذلك الوقت.

ذلك ما يحدثنا عنه تاريخ العصور الوسطى الذى تميز باتحاف الشرق للغرب بثرواته العلمية التى ظلت تتدفق على أوروبا، وخاصة عن طريق الأندلس حتى القرن الثالث عشر الميلادى. ولم يقتصر الأمر على فروع العلم المختلفة، وانما امتد هذا الأثر ليشمل نظم الحياة المادية والاجتماعية والفنية.

وقبل أن نعرض لأثر عرب الاندلس على الفروسية الغربية، تجدر الإشارة إلى حالة الشعب فى شمال افريقيا وحالته فى اسبانيا.

فقد كانت منطقة شمال أفريقيا ــ بعد الفتح الإسلامى ــ تنعم بعدل المسلمين العرب وتسامحهم، بينما كانت أسبانيا تئن من ظلم القوط وعسفهم إذ كان الأشراف والأثرياء معفيين من الضرائب الفادحة التى كان يقوم بها الطبقة الوسطى وحدها حتى صارت إلى الخراب والدمار فقضت على النشاط الصناعى وخلت البلاد من الصناعات ووقفت حركة التجارة.

وقد كانت البلاد منقسمة إلى ضياع واسعة يقيم فيـــها ملاكـــها القصور الفخمة، يصرفون فيها أوقاتهم في اللهو والمجـــون والملـــذات الدنيئة. بينما يقوم لهم بالعمل في ضياعهم الأرقاء والأجراء الذين كانوا يسامون سوء العذاب وكانوا في الدرك الأسفل من الذل والهوان وفساد الأحوال.(١٧)

وهكذا يتبين لنا كيف كان الأهالى البائسون والأرقاء المرهقـــون ينتظرون بفارغ الصبر ذلك اليوم الذى يتخلصون فيه من نقمة الحكـــام الفاسدين وقد أتى ذلك اليوم بعد أن لجأ يوليان إلى موسى بـــن نصـــير وطلب إليه أن يخلص اسبانيا من الظلم الذى تعيش فيه.*

وبعد ان تم فتح الأندلس عمل الحكام المسلمين على نشر العدل بين الطبقات المختلفة غير مفرقين بين الاجناس والعقائد.

وذلك راجع إلى ما يتحلون به من خصال حميدة وصفات رشيدة كالشجاعة والشهامة وعزة النفس، والعفو عند المقدرة، وإكرام الضيف، ومساعد الضعفاء.... إلى غير ذلك من مكارم الأخلاق، تشـــهد بذلـــك وقائع ونوادر كثيرة نذكر منها على سبيل المثـــال مـــا رواه مؤرخـــى الاسبان من أنه فى سنة ٨٩٠هـــ أراد ملك اشتورية (أذفونس الكبـــير) أن ينتدب مؤدباً لابنه وولى عهده فاستدعى اثنين من مســـلمى قرطبـــة حرصاً على تهذيبه، إذ لم يجد من المسيحين حينئذ من هو كفء لـــهذه المهمة.(١٨)

---

* الذى دفع يوليان إلى هذا الطلب غضبه من أحد الأشراف لاعتدائه على عرض ابنته فلورنده التى كانت تتربى فى البلاط الملكى.

وجدير بالذكر أن الروايات والقصص ذاخرة بأخبار الفرسان فى الغرب، ومن خلالها نستطيع أن نلمس مدى تأثير التقاليد العربية علـــى الفروسية الغربية.

واننا نعلم أن هذه الروايات هى المصدر الوحيد الذى ندرس فيه عادات النبلاء وانها وضعت قوانين وانظمة الحـــروب. ومثـــلاً عليـــا يحتذيها الفرسان، وانها كانت دروسا فى البطولة وحسن المعاملة وطرق الحياة.

وقد أتى فى الفصل العشرين من رواية تربـــــان (Turpin) التـــى سبقت كل روايات الفروسية أن شرلمان قد تلقـــــى الأمـــر بالفروســـية وتشرب تعاليمها من الأمير العربى الذى كـــان يحكـــم (كولينـــو) فـــى مقاطعة (بروفانس)(١٩)

وقد حرص أصحاب الروايات على إبراز الجوانـــب المعنويـــة والخصال الحميدة فى حياة الفرسان إلى جانب القوى الماديـــة والحيـــاة العسكرية ونجد ذلك فى ترجمة حياة "جان لومينجر" الملقب بالمارشـــال "بوكيكو" اذ كتب أحد المعجبين به منذ عام ١٤٠٩م ترجمته، جمع فيها الحياة العسكرية الشاقة لقائد، ورجل سياسة، إلى جانب صورة للفارس التقى المقتصد.

وتتسم تقوى بوكيكو بمسحة دينية، فإنه يستيقظ مبكـــراً ويظـــل مصلياً متعبداً ثلاث ساعات ومهما يبلغ من انشغاله أو اســـتعجاله فإنـــه يصغى راكعاً إلى قداسين يومياً...ويرتدى السواد يوم الجمعة ويـــروح يحج أيام الأحاد والأعياد سعياً على قدميه ويتحاور فى المسائل المقدسة أو تتلى عليه حياة أحد القديسين أو حكاية عن أحد الأبطـــال الشجعـــان

القدماء من الرومان وغيرهم... وهو يعيش عيش الكفـــاف والاتــزان، ويقل من الكلام وإذا تكلم كان حديثه عن الله والقديسين إو عن الفروسية والفضيلة.

وبينما هو فى جنوة ذات يوم ــ بوصفــه وصيــاً علــى ملــك فرنسا ــ رد بأدب بالغ على سيدتين تحييانه. فقال الياور : مولاى من هاتين المرأتين اللتين انحنيت لهما هذا الانحناء الشديد؟ فقال : لا أدرى يا هوجنان!! فقال له عند ذلك : مولاى انهما بغيان. فقال بغيـــان يــا هوجنان لقد أفضل أن اقدم تحياتى لعشر بغايا من أن اضـــن بالتحيــة لأمرأة محترمة واحدة.(٢٠)

وإذا كانت هذه الروايات تعد بمثابة مرآة تعكس الحيـــاة لطبقــة الفرسان فإنها كذلك توضح لنا القوى المعنوية من تقوى وتقشف ووفاء بالعهد ومساعدة للضعيف... إلى آخر هذه الخصال التى كانت ترسم بها الصورة المثالية للفارس ولكن يبدو أن الصورة المثالية للفارس شـــئ، والحقيقة الواقعية شئ آخر مخالف للصورة. فبوكيكو الحقيقى لم يشابه هذه الصورة ــ التى رسمت له ــ مطلقاً وهو شئ لم يكن ليتوقعه أحد، فإنه لم يخل من عنف ولا من بخـــل، وهــى عيــوب شــاعت بيــن طبقته.(٢١)

ويبدو لنا هذا التناقض بين الصورة والحقيقة للفروسية الغربيـــة مرجعها أن هذه القوى المعنوية، أو بالأحرى هــذه الصــورة المثاليــة للفارس، والتى تتشدق بها الروايات الغربية، إنما اضفت على الفـــارس صفات مكتسبة حاولوا أن يتعلموها ويكتسوبها من العرب.

فى حين أن العرب لم يكونوا فى حاجة لمن يلقنهم معنى الفتوة، سواء المادية أو المعنوية، إذ وجدت فيهم بالفطرة والوراثة، وجاء الدين والجهاد فى سبيل الله فمكنها من قلوبهم، وثبتها فى طباعهم.

وقد ضرب العرب كل مثل شريف لهؤلاء الفرسان سواء فـــى الشجاعة أو الكرم، وحسن المعاملة، فى أى مكان حلوا بـــه وفـــى أى زمان كانوا فيه.

فها هو عبد الرحمن الثالث (ت٩٦١هـ) يكرم عـــدوه اللـدود (سناس أمير ليون) حين طلب منه أن يأتى إلى قرطبة ليستشير الأطباء العرب، فيؤمنه ويقدم له الهدايا ويزيد فى اكرامه حتى يبرأ من مرضه.

فأين هذا مما فعله ملك قشتاله (بيير القاسى) فى ســنة ١٣٦٠ م حين دعا أمير غرناطة (أبا سعيد) إلى قصره، فلبى دعوته، ولمـــا رأى بيده خاتما ثمينا راقه، حسده ثم قتله ليستولى على الخاتم.(٢٢)

مثال آخر يدل على النبل والكرم، وعـــدم التعـــرض للضعفـــاء والنساء بأذى، فقد ذهب الفونس الثامن ملك قشتالة لمحـــاصرة مدينهـــة (أوريغا) العربية، فرأى أمير قرطبة أن يرسل إلى المدينة المحـــاصرة مددا، بيد أن قائد هذا المدد لم يشأ أن يشتبك فى قتال خـــارج المدينـــة يكون جيشه فيها الأقل من حيث العدد والعدة، أمام عـــدد كبـــير قـــوى العدة. ورأى أن يحتال لابعاد جيش العـــدو عـــن المدينـــة بمهاجمـــة (طليطلة) حيث كانت تقيم ملكة قشتالة، فلعل زوجها إذا ســـمع بذلـــك يترك (أوريغا).

وأخذ القائد العربى فى مهاجمـــة طليطلـــة وحصارهـــا، ورأت الملكة ــ وقد عصرها الهم والحزن ــ ألا ملجأ إلا فى الخلـــق العربـــى

النبيل تستمد منه النصر، فارسلت إلى القائد العربى تقول : اننى امرأة، وليس من شيم الفرسان قتال النساء فإذا اردت قتالا فعليك بزوجى فإنه ينتظرك على أبواب (أوريغا). فهزت هذه الكلمات مشاعر القائد العربى، وكلها ثقة بشرف وعده، عالمه أنه لن يمسها الأذى ــ فحياها الجيش العربى كله فى الوقت الذى دخل فيه زوجها مدينة أوربغا العربية واستولى عليها.(٢٣)

فأى مثل فى الكرم والتحية، وحسن المعاملة، والنخوة، واحترام المرأة ضربه هذا القائد العربى لفرسان الغرب فى عصره، وما بعد عصره.

ب ـ أثر الحروب الصليبية

لم يكن تأثير عرب المشرق ابان الحروب الصليبية على اخلاق فرسان أوروبا أقل من عرب الأندلس والمغرب. ففى أى مكان تلاقى فيه العرب مع الغربيين اظهروا تفوقهم الخلقى، وانـــهم أكــثر مدنيــة واعلى كعبا فى الحضارة من اعدائهم فبهروهم بـــهذه المثــل العليــا، وحاولوا جهدهم أن يقتدوا بهم.

ومما يظهر الفرق بين أخلاق الفرســـان الغربييـن، والفتيـان المسلمين ما تروية كتب التاريخ عن تصرفات الفرسان الصليبين حيــن تم لهم فتح بيت المقدس سنة ١٠٩٩م. فبعد أن سقطت المدينة وقعــت المذبحة، إذ ذبح كل المسلمين ــ رجالا ونساءا وأطفــال ، فيمــا عــدا الحاكم وحرسه اللذين تمكنا من افتداء أنفسهم بالمال، وتم اصطحابـــهم إلى خارج المدينة. وفى معبد سليمان وحوله خاضت الجياد فى الـــدم حتى الركب بل وحتى اللجام، أما بالنسبة ليهود القدس فحين اجتمعـــوا فى معبدهم الرئيسى اضرمت فيهم النيران وحرقوا جميعا أحياء.(٢٤)

وتقدر المصادر الأوروبية أن حوالى عشرة ألاف مسلم ذبحـــوا فى اعقاب الإستيلاء الأول على القدس، أما المصادر الاسلامية فتقـــدر عدد من قتلوا بمائة ألف قتيل.(٢٥)

وأيا كان العدد، فقد تمكن فتيان المسلمين من استعادة القدس سنة ١١٨٧م بقيادة السلطان صلاح الدين الأيوبى. وشتان بيــن مـــا فعلـــه الصليبيون فى عام ١٠٩٩م وبين ما فعله صلاح الدين بعد ذلك التاريخ بثمانية وثمانين عاما إذ سمح للصليبين بالخروج ــ من القدس ــ بعـــد دفع عشرة دينارات للرجل وخمسة للمرأة ودينار للطفل، واعطيت لـــهم

مهلة قدرها أربعون يوما للسداد ومن احضر قطيعته بنفسه نجا وإلا وقع اسيرا. كما أنه سمح لأى أسيرمسيحى بالبقاء فى المدينة بشـــرط دفـــع الجزية.(٢٦)

وجدير بالذكر أن الصليبين بعد خروجهم من القدس أنقسموا إلى ثلاث مجموعات : مجموعة الداوية وأخرى الاسبتارية، وثالثة باليـــان دى ايلين وقد أمر صلاح الدين أن يكونوا فى حراسة المســلمين حتـــى اوصلوهم إلى صور، لكى لا يتعرضوا لـــهجمات اللصـــوص وقطـــاع الطرق الذين يكمنون فى هذا الطريق.(٢٧)

ويظهر أن اخلاق صلاح الدين وحياته وما انطوت عليـــه مـــن بطولة فائقة وشجاعة نادرة وسماحة لاحد لها مع الأعداء قبل الاصدقاء، هذه الاخلاق التى تعبر تعبيرا صادقا عن الفتوة العربية بأدق معانيها قد احدثت فى اذهان المسيحيين فى عصره تأثيرا سحريا خاصا، حتـــى أن نفرا من الفرسان المسيحين قد بلغ من قوة اعجابهم به، وانجذابهم إليـــه ان هجروا دينهم المسيحى وهجروا قومهم وانضموا إلى المسلمين.(٢٨)

وكيف لا يعجب هؤلاء الصليبيون بصلاح الدين، وقد كان نبيلا فى كل تصرفاته مع اعدائه، فها هو ذا ريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا يصاب فى المعركة أمام صلاح الدين، فيسرع إليه صلاح الدين ويداويه بنفسه، ولم يزل يعنى به حتى شفى من اصابته. وظل صـــلاح الديـــن يرسل له ما يحتاجه من الثلج لتبريد اشربته، والفاكهة وخاصة الكمثرى والخوخ حيث كان ريتشـــارد يفضلـــهما عـــن غيرهمـــا مـــن أنـــواع الفاكهة.(٢٩)

وها هو نور الدين يضرب مثلا آخر فى النبل والشجاعة الفائقة، ففى سنة ١١٦٣م حين مات (بودوا) لم يشأ أن يستغل وفاته فى مهاجمة عسقلان،وقال : أنه عمل غير انسانى أن نزعج قوما محزونين على أميرهم ولن يشرف مجدى الحربى أن اهجم على قوم غير مستعدين للدفاع.(٣٠)

وقد أشاد كثير من مؤرخى الغرب بهذه الخصال الحميدة التى تحلى بها فتيان المسلمين فحكى (أوليفروس المدرسى) عن السلطان الملك الكامل الذى هزم جيشا من جيوش الصليبين ثم اعطى الناجين منهم الطعام.

· اشاد أوليفروس بهذا الموقف قائلا : من يمكن أن يشك فى أن مثل هذا العمل الطيب والصداقة والاريحية من عند الله؟

أن الرجال الذين قتلنا أباءهم وأبناءهم وبناتهم واخوتهم واخواتهم وقضوا نحبهم يتعذبون، والذين استولينا على اراضيهم، والذين سقناهم عرايا من بيوتهم اعطونا من طعامهم وابقوا على حياتنا عندما كنا نتضور جوعا، وغمرونا بعطفهم حتى ونحن تحت رحمتهم.(٣١)

وهناك بعض المسيحين ــ مثل أرنولد اف لوبيك ــ ادركوا أن الفكرة الاسلامية عن الاخوة أكثر تسامحا من النظرة المسيحية إلى اليهود والمسلمين بوصفهم اعداء المسيح. وقال ارنولد الكلمات التالية على لسان أحد المسلمين : "فلئن اختلفت عقائدنا فإن خالقنا ةاحد، وأبانا واحد، يجب أن نتآخى، لا بسبب عقيدتنا ولكن لأننا كلنا بشر، فلنتذكر إذن أبانا المشترك ولنطعم اخوتنا".(٣٢)

ويمثل لنا تاريخ الحروب الصليبية الثانية حادثة علـــى جـــانب عظيم من الأهمية إذ توضح هذه الحادثة البون الشاســـع بيـــن اخـــلاق الفتيان المسلمين وما تحلت به من رحمة ووفاء، وشفقة وعطف علـــى الضعفاء والمحتاجين.

وهذه الحادثة رواها (أودو الدويلى) أحد رهبان القديس ديونيـــس (Denis) وكان فى صحبة لويس السابع ــ خلال هذه الحرب ــ وكتـــب فى وصفها ما نصه :

بينما كان الصليبيون يحاولون شق طريقهم برا عن طريق أسيا الصغرى إلى بيت المقدس، منوا بهزيمة منكرة على ايـــدى الاتـــراك المسلمين فى ممرات (فريجيا) الجبلية سنة ١١٤٨م، ولم يبلغوا مدينـــة (اتاليا) الساحلية ألا بشق الأنفس، وقد نجح الذين استطاعوا أن يرضـــوا المطالب الفادحة التى كان يفرضها عليهم تجار الاغريق فـــى الابحـــار إلى انطاكية.

وتخلف المرضى والجرحى وعامة الحجاج تحت رحمة الخونة من حلفائهم الاغريق الذين اخذوا مبلغ خمسمائة (مارك) من لويس على شريطة أن يمدوا الحجاج بقوة من الحرس، وان يعتنوا بالمرضى حتى يصبحوا من القوة بحيث يستطيعون الحاق بزملائهم، بيـــد أن الجيـــش الصليبى لم يكد يغادر المكان، حتى وشى الاغريـــق بـــهؤلاء الحجـــاج العزل إلى الاتراك، واخذوا يرقبون فى صمت ما يعانيه هؤلاء التعسين من المجاعة والمرض، والجراح الدامية، ولما حـــاولت جماعـــة مـــن

---

* الحرب الصليبية الثانية (١١٤٧ – ١١٤٩م) بقيادة لويس السابع ملك فرنسا وكنراد الثالث امبراطور المانيا، وقد وجهوا حملتهم هذه على دمشق، فلم ينجحوا فى الاستيلاء عليها وانتهت بالفشل التام، وتمكن نور الدين محمود من الاستيلاء على دمشق.

الحجاج أن تلوذ بالفرار حين شاهدوا الاتراك قادمين هجم عليهم الترك ليتابعوا انتصاراتهم، ولكنهم رأوهم فى حالة من الشقاء تذيب القلوب وتستدر العطف، فكفوا عن هجومهم، وطفقوا يواسون المرضى ويغيثون الفقير، ويطعمون الجائع الذى اشرف على الهلاك، وبذلوا لهم جميعا العطايا فى كرم وسخاء.

فكان ألبون شاسعا بين المعاملة الرحيمة التى لقيها الحجاج علىايدى المسلمين وبين ماعانوه من قسوة اخوانهم فى المسيحية من الأغريق الذين فرضوا عليهم السخرة واذاقوهم العذاب ألوانا، وابتزوا منهم ما ترك لهم من متاع قليل، حتى ان كثيرا من هؤلاء التعسين دخلوا فى دين منقذيهم بمحض ارادتهم. لقد جفوا اخوانهم فى الدين الذين كانوا قساه عليهم، ووجدوا الأمان بين احضان المسلمين الذين كانوا رحماء بهم.(٣٣)

وإذا لم يكن صلاح الدين عربيا، وإذا لم يكن الاتراك عربا فإنهم جميعا مسلمون قد اهتدوا بهدى هذا الدين الحنيف وانتت واخلاقهم فى معاملة الأعداء خاصة إذا ما كانوا من المرضى أو الشيوخ والمحتاجين والضعفاء تنفيذا لتعاليم كتاب الله عز وجل، وسنة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذى أتى لكى يتمم مكارم الاخلاق.

ومما يثير الدهشة أن يكون هذا مسلك فتيان المسلمين مع الأسرى الضعفاء بينما ريتشارد قلب الأسد يذبح أسرى المسلمين الذين وقعوا بين يديه فى موقعة عكا سنة ١١٩١م، على الرغم من المعاهدة التى نص فيها على منحهم الحرية والحياة.(٣٤)

ويخيل إلينا أن هذه الأخلاق الغربية التى اتسمت بالغدر والخيانة لم تتهذب كثيرا إذ ظلت طباعهم الحربية الجافة على ما هى عليه من قسوة وعنف وخيانة... واصدق مثال على ذلك ما فعلوه بعد سقوط دمياط سنة(١٢١٩ / ٦١٦هـ) ، فعندما دخلت القوات الصليبية المدينة عاثوا فسادا وانتشرت السرقات،وكعادتهم هاجموا النساء والأهالى فى المدينة على الرغم من استسلامها لهم بل وحولوا مسجدها إلى كنيسة لاتينية.(٣٥)

اين تلك الاخلاق التى تسول لصاحبها قتل الأسرى الضعفاء ومهاجمة النساء والأطفال الذين لا يملكون حولا ولا قوة، هذه الاخلاق التى اتسمت بنقض العهد والغدر، والخيانة... اين تلك الاخلاق من الاخلاق النبيلة والمثل العليا التى تعبر عن الفتوة الكاملة والتى يظهرها المسلمون؟

وقد عبر المقريزى عن هذه الأخلاق النبيلة، حينما يصف معاملة سلاطين المماليك لأسرى الصليبين والمغول قائلا : ... "وإذا انتهت الموقعة الحربية ووضعت الحرب أوزارها حصيت الغنائم والأسرى وكل من كان أمير يستولى على غنيمته عدا الأسلحة فإنها كانت كلها تئول إلى السلطان، وليس للجنود أو لقوادهم أن يأخذوا شيئا منها إلا بإذنه، أما الأسرى فكانوا من نصيب السلطان، الذى كان يأخذ منهم ما يشاء لنفسه، ويأمر بتوزيع ما بيقى من النساء والغلمان على الأمراء أما الرجال، فقد كان السلطان لا يتصرف فى أمرهم بشئ إلا بعد معرفة اقدارهم ومراتبهم، ومكانتهم بين ذويهم، فمن كان منهم ذا

مقام خاص طلبت منه الفدية واخلى سبيله،أما من كان منهم من العامـــة ولا ينتظر منه فدية فكان يرسل إلى امكنة خاصة بالأسرى.(٣٦)

والآن بعد هذه المقارنه بين اخلاق الفتيان المسلمين والفرســـان الغربيين نجد سؤالا يطرح نفسه، هل تعلم الفرســـان الصليبيـــن مـــن احتكاكهم بالعرب فى المعاملات وفى ميادين القتال كيف يهذبون مـــن طباعهم الحربية الجافة وكيف يكونوا أوفياء بالوعد والعهود.؟

حقيقة الأمر أن الشواهد التاريخية ــ التى بين ايدينا ــ تخـــالف ذلك وخاصة بعد أن تعرفنا على موقف الجيوش الصليبية من المسلمين عند فتح بين المقدس سنة ١٠٩٩م، وموقف ريتشارد قلب الأســـد مـــن أسرى عكا سنة ١١٩١ م ووجدنا أن موقف لويس التاســـع وجيوشـــه الصلـــيبية بعد سقوط دمياط فى ايديهم ســـنة ١٢١٩م، لـــم يتغـــير أو يختلف فى كثير أو قليل عن موقف سابقيه فهذه المواقف كلها مع مـــا فيها من غدر وخيانه ومذابح للأسرى والأهالى من الشيـــوخ والنســـاء والاطفال، الذين لا يملكون لأنفسهم حولا ولا قـــوة تجعلنـــا نجـــزم أن فرسان الصليبين لم يتعلموا شيئا من احتكاكهم بفتيان المسلمين ــ العرب ــ إذ ظلت طباعهم الحربية الجافة على ما هى عليه من خشونة وقسوة. ولم تعرف شيئا عن العفو والرحمـــة أو حمايـــة الضعيـــف ومســـاعدة المحتاج... أو أى خصلة من تلك الخصال الحميدة التى وجدناها عنـــد فتيان المسلمين.

لقد ظل الفرسان الصليبين على ما هم عليه من خشونة وقســـوة وعنف وعدم إلتزام بالوعد أو وفاء بالعهد، منـــذ أن بـــدأت الحـــروب الصليبية وحتى نهايتها.

ويحدثنا التاريخ فى هذا الصدد ــ نقض الوعد وخيانة العــهد ــ عن مراسلات متبادلة بين السلطان الظاهر بيــبرس، ومقــدم فرســان الاسبتارية لتحديد مسئولية خرق لهدنة عقدت بينهم ســنة ٦٦١هـــ / ١٢٦٣م. إذ حاول فرسان الاسبتارية تحميل المسلمين مسئولية خــرق الهدنة فكتب السلطان بيبرس إليهم : ان شرط الهدنة التى كانت بيننا لا تجدد بناء وقد شرع بين الاسبتارية فى بناء أسواء... وهذا من بعض ما ينقض العهد...(٣٧)

فرد الاسبتارية على السلطان : أنا لم نبــن هــذه الأســوار إلا للحماية من الصعاليك ومن اللتار...

فكان جواب السلطان بيبرس : أمــا تجديــد الأســوار لحفــظ المسلمين فالبلاد لا تحفظ بالأسوار، ولا تحفظ الرعية بالخنادق وانمــا تحفظ بأحد أمرين، أما بالسيوف والعزائم، واما بإحسان الجيرة، وكــف الأذى... وأما التتار، وما جعلنا حصوننا ولا خيولنــا، ولا خنادقنــا إلا سيوفنا ولا أسوارنا إلا رجالنا.(٣٨)

لقد حدد السلطان بيبرس فى هذا الرد الأمور التى تحفــظ بــها البلاد وتمثلت هذه الأمور فى الفتوة بشقيها المادى والمعنوى.

فتحفظ البلاد بالفتوة المادية عن طريق السلاح والعزيمة، إلــى جانب الفتوة المعنوية المتمثلة فى حسن الجوار وكف الأذى.

حقا لقد اظهرت لنا تلك المعارك الدامية التى دارت قديما بيــن الغرب المتعصب والاسلام السمح، الفرق الواضح والبون الشاسع بيــن اخلاق الفتيان المسلمين، واخلاق الفرسان الغربيين.

ولقد صدق (ستانلى لين بول) حينما قال : "لقد اجمع الذين كتبوا عن الحروب الصليبية أن فضائل المدنية : العظمة والسماحة، والعفو، والفروسية الحقيقية والتهذيب الدمث، كانت كلها فـــى جـــانب العـــرب المسلمين أبان هذا القتال المرير".(٣٩)

الفروسية الغربية فى الميزان

من كل ما تقدم نستطيع أن نجمل تاريخ الفروسية الغربية فيما يلى :

١ ــ فروسية عسكرية،نشأت فى ظل العهد الاقطاعى، إذ أدت الحروب المستمرة بين أمراء الاقطاع بعضهم مع بعض إلى وجود نظام عسكرى اقطاعى أو بالأحرى فروسية عسكرية تعتمد على القوة وحدها، وليس فيها من سمو الروح ودماثة الخلق، والخصال الكريمة شيئا.

٢ ــ قدر لنظام الفروسية، فى العصور الوسطى ــ أيام ازدهاره الأول ــ أن يمتزج بالرهبانية. وتولدت عن هذا الاتحاد، الهيئات العسكرية الدينية لفرسان الهيكل (المعبد) أو الداوية، وفرسان القديس يوحنا أو الاسبتارية، والفرسان التيوتون. وكان لهذه الانظمة دور بارز إبان الحروب الصليبية.

٣ ــ بعد إنتهاء الحروب الصليبية ظهرت فروسية أخرى تتشدق بالصفات الإنسانية والمثل العليا، وان جعلت أهم خصائصها الحب، واحترام المرأة والرغبة فى المغامرات، حتى اصبحت الفروسية فى هذه الحقبة مرادفة لأداب المجاملة.

والسؤال الآن : إذا كانت الفروسية الغربية قد برعت بشكل أو بآخر فى الجانب المادى للفتوة، فهل استطاعت أن تتحلى بالجانب المعنوى، الذى يتمثل فى السماحة، والعفو عند المقدرة، والوفاء بالعهد، والمحافظة والإلتزام بالوعد وحماية الضعيف... خاصة بعد احتكاكهم بالعرب فى المعاملات وفى ميادين القتال؟

حقيقة الأمر أن فرسان الغرب لم يصلوا إلى مـــا وصـــل إليـــه العرب فى هذا المضمار لأن هذه الصفات كانت طبيعية لـــدى العِـــرب متأصلة فى نفوسهم، وجرت عليها تقاليدهم وورثوها عن أبائـــهم.(٤٠) وحث عليها دينهم الحنيف، فتضاعفت عوامل عدة على تمكينـــها فـــى قلوبهم وطباعهم فلا يتكلفونها أو يستطيعون الانحراف عنـــهما وعلـــى العكـــس من ذلك الفرسان الغرب فكثيراً ما غلبتهم طباعـــهم وطغـــى عليهم تعصبهم.

بالإضافة إلى أن هيئات الفروسية الغربية لم تكن تـــهدف إلـــى ارساء القيم الخلقية، والخصال الحميدة، بقدر ما كـــانت تـــهدف إلـــى المناصب السياسية والمصالح الاقتصادية والاقطاعية، حتى ان هيئـــات الفروسية الدينية كانت هى الأخرى تتصارع من أجل هذا الهدف.

ويؤكد على ذلك قول يوهان هويزنجا : "ومنـــذ وقـــت مبكـــر، اتخذت الهيئات الكبرى الأولى للفرسان الرهبان، وهى هيئات : الهيكل (الداوية) والقديس يوحنا (الاسبتارية) والفرسان التيوتون، وهـــى التـــى تولدت عن التداخل المتبادل بين الفكرات الديرية والاقطاعيـــة، طـــابع النظم السياسية والاقتصادية الكبرى. فلم يعـــد هدفـــها وهمـــها الأول ممارسة الفروسية إذ قللت اهميتهم السياسية والاقتصادية بشكل أو بآخر من ذلك الهدف، كما قللت من تطلعاتهم الروحية".(٤١)

وعلى الرغم من حرص جميع الجهات والهيئات، المحافظة على بقاء التقاليد الفروسية، والتغنى بالمثل العليا التى تتحلى بـــها الفروســـية الغربية ــ فإن الواقع يكذبها على الدوام، ويضطرها أن تتوارى لاجئـــة إلى مجالات الأدب والأحاديث. فلم يكن فى المستطاع العمـــل علـــى

تشجيع المثل الأعلى للحياة البطولية الممتازة (الفروسية) إلا داخل حدود طائفة النبلاء فلم تكن عواطف الفروسية دارجة إلا بين اعضاء الطائفة ــ وحدهم ــ كما أنها لا توسع لتشمل اشخاصا أدنى منزلة.

وكان البلاط البرجندى* المشبع تماما بالتحزب للفروسية، والذى يأبى التسامح إزاء أهون خرق للقواعد فى نزال يبلغ أقصى درجات التطرف بين النبلاء يستمتع تماما بالشراسة الجامعة التى تتجلى فى مبارزة قانونية بين أبناء المدينة وليس فيها قانون للشرف ينبغى رعايته.

وقد حدث أن جرت مبارزة بين اثنين من أهل المدينة ببلدتهما (فالانسيين فى ١٤٥٥) ورغب الدوق العجوز فيليب فى مشاهدة ذلك المشهد النادر مهما كلفه ذلك.

ويصف شاستللان ذلك المشهد قائلا : "ونزل الخصمان إلى الحلبة فدخل أولا جاكوتان بلوفيية، المدعى وتبعه ما هوه. وقد قصى شعر رأسيهما قصيرا، وخيط على كل منهما من الرأس إلى القدم ثوب من جلد الماعز من قطعة واحدة، وقد شحب وجهاهما جدا. وبعد أن قدما التحية إلى الدوق... جلسا ينتظران اشارة البدأ.... ويبدأ ما هوه، وهو رجل قليل الجسم، المنازلة بقذف الرمل بحرف ترسه فى وجه جاكوتان وسرعان ما يسقط على الأرض تحت ضربات جاكوتان القوية... إذ يلقى بنفسه عليه، ويملأ عينيه وفمه بالرمل، ويدخل ابهامه فى حجر عينيه ليحمله على اخلاء أصبع عض عليه ما هوه بأسنانه...

---

* مقاطعة برجنديا، احدى المقاطعات الفرنسية، التى انشأت فيها دولة شبه مستقلة عن المملكة الفرنسية.

* دوق برجنديا، فيليب (الطيب) تولى الحكم فى الفترة من ١٤١٩ إلى ١٤٦٧م

ويلوى جاكوتان ذراعى خصمه... ويقفز على ظهره محاولا كسره.... وعبثا ما يصرخ ما هوه طالبا الرحمة ويطلب الاعتراف.

فيصيح عاليا : مولاى دوق برجنديا، أنى أحسنت البـــلاء فـــى خدمتك فأنقذ حياتى... إلا أن الدوق يأمر أن يسحب الرجل ــ المحتضر إلى خارج الحلبة حيث تولى الجلاد شنقه".(٤٢)

لقد أثرنا سرد هذه الواقعة ــ كاملة ــ لأنها أتت من كاتب لـــه ميول فروسية بحكم ولاءه إلى البلاط البرجندى المتشـــدق بالفروســية ومثلها العليا فوجدنا أن روايته للمبارزة خالية من أى عبرة خلقيـــة أو مغزى للحادثة وما هى إلا وصف دقيق لغرائز القسوة والعنف.

كما أن هذه القصة أوضحت ــ لنا ــ أن معانى الرحمة والعفو والتسامح ما هى إلا كلمات لا مدلول لها ولا معنى فى فروسية البـــلاط البرجندى.

إذ لم يبد الدق ــ الملقب بالطيب ــ أدنى شفقة أو رحمة علـــى الرجل المحتضر الذى يطلب منه السماح والعفو، مذكرا أيـــاه بطـــول خدمته له وحسن بلاءه فى الحروب، إلا أن هذه الأمور جميعها لم تشفع للرجل وسحب من الحلبة ليتولى الجلاد شنقه كما تسحب الشاة للذبح.

ويخيل إلينا أن الفروسية الغربية، وما تتغنى به من مثـــل عليـــا ومبادئ انسانية لم تكن يوما واقعا حقيقيا، إنما هى من نسج خيال الادباء والشعراء إذ كان الجشع والمصالح الذاتية والقسوة والعنف سمات غالبة على الحيـــاة فى العصور الوسطى ــ فى الغـــرب ــ وكـــانت هـــذه السمات أكبر كثيرا من الفروسية نفسها.

وعلى الرغم من أن كثيرا مـــن المؤلفيـــن، وكتـــاب العصـــور الوسطى ـــ وغيرها يستلهمون مؤلفاتهم بتصريحات طنانة عن انتوائهم تمجيد الشجاعة والفضائل الكريمة التى يتحلى بها الفرســـان، وتســـجيل المآثر النبيلة والفتوح وأعمال البطولة ومفاخر الحرب والسلاح... فإنهم إذا ما اقدموا فيما بعد اثناء الكتابة تسوا ذلك المثل الأعلـــى والفضـــائل الكريمة بدرجات تتفاوت.

وتذكر فى هذا الصدد "فرواسار" وهو نفســـه مؤلـــف لملحمـــة فروسية سوبر رومانتيكية (أى رومانسية متطرفة) Super - Romantic وهى "مليادور" Meliador فإنه يروى مالا يحص من الخيانات والقساوات، دون أن ينتبه إلى ما حدث من تناقضات بين تصوراتـــه ومفاهيمـــه العامـــة ومحتويات ما سرد.(٤٣)

ولا يفوتنا أن ننهى هذا الجزء من البحث دون أن نشير إلى مـــا تتباهى به الفروسية الغربية فى العصور الوسطى، بأنها تميزت بالحب واحترام المرأة إذ تدعى الفروسية الغربية انها اســـتطاعت أن تحـــول الحب الساذج الخشن إلى احترام عميق للمرأة بعيدا عن المادة.

حتى ان البعض يرى أن الحب فى نظـــر فرســـان العصـــور الوسطى فضيلة، بل منبع كل الفضائل، ولهذا صار جميـــع الفرســـان فضلاء، لأنهم يحبون أو يتظاهرون بأنهم يحبون، وصار الحب نظامـــا تعليميا، وعرف الحب بأنه أصل كل نشاط، وكل فضيلة خلقية وكـــل مجد.(٤٤)

لقد كانت احاديث الحب هى الشغل الشاغل فى حيـــاة النبـــلاء، حتى ان الإفتاء فى شئون الحب اتخذ حيزا ضخما فى أحاديث القصور مما رفعه إلى مستوى أحد الاشكال الأدبية.

وكان الناس يسلون انفسهم فى بلاط الحكام اثناء تناول الطعـــام بقص الحكايات وتوجيه الاسئلة المتعلقة بشئون الحب، ويطالب الشعراء ــ بوجه خاص ــ بالإسهام فى ذلك كله.

وفى هذا الصدد يذكر يوهان هويزنجا : ان جماعة من السيدات والنبلاء اخذوا يطالبون الشاعر (جيـــوم ده مـــاشوه) أن يجيـــب عـــن مجموعة من الاسئلة حول تاريخ الحب ومخاطره منها : أيـــها الســيد العاشق، أى الأمرين تفضل : أن تقول الناس قاله السوء عن حبيبتك ثم تجدها طيبة قويمة، أم أن تحسن سيرتها على أفواهم ثم ينكشف لك أنها سيئة الطوية؟!

فيجب ما شوه : سيدتى، انى افضل أن تحســن ســيرتها علـــى افواههم وان اجدها سيئة الطوية.(٤٥)

وقد لا نصدم أو نندهش إذا ما أتت هذه الاجابـــة علـــى لســـان شاعر، ولكننا نصدم ونندهش إذا كان صاحب هذه الاجابة ــ ماشوه ــ راعيا لأحدى الكنائس والمفروض فيه أن تكون أقواله وأفعاله تتفق مع مكانته الدينية والاجتماعية.

إلا أن الحقيقة كانت خلاف ذلك إذ ان ماشوه كان على علاقـــة بفتاة صغيرة، وانتهت هذه العلاقة بأن الفتاة لم ترفض له شيئا طلبـــه، فهى تمنحه شرفها باسم الحب ولا شئ غير الحب.

من هذا يتضح لنا أن الحديث عن الحب العذرى، البعيـــد عـــن المادة والحديث عن احترام المرأة لم يكن إلا مسلاه يتسلى بها مجتمـــع راق؛ فلم تستطع الفروسية الغربية يوما ما أن تتمسك بالتقوى والفضيلة وسائر الخصال الحميدة التى كانت سائدة فى فتوة العرب المسلمين.

---

* ذكر ماشوه هذه القصة ــ تفصيلا ــ فى كتابه (Voir Dit) وفيه يمزج عنصر الدين والحب مع نوع ساذج من إنعدام الحياء.

فمصدر الفكرة الفروسية انماهو الكبرياء، إذ يكمن مجد الامراء والنبلاء فى كبريائهم وفى قيامهم بالأعمال المحفوفة بعظيـم المخـاطر وتلتقى جميع القوى الرئيسية فى نقطة صغيرة تسمى الكبرياء.(٤٦)

واخيرا فإننا نرى ان متطلبات الكمال الخلقى كانت ثقيلة الوطأة على الفارس، فإن هذه الفروسية الغربية التى تحظى بأطيب الثناء لـم تكن مستطيعة إخفاء ما طلعت عليه من زيف أصيل، مهما كانت وجهة النظر التى ننظر إليها منها.

فإنها كانت مفارقة تاريخية مضحكة، وكانت قطعة من التلفيـق المتكلف وجدت فى بلاط الامراء والنبلاء بعد أن فقدت قيمتها فى ميدان الحرب والدين، أوجدها الرواة والشعراء فجاءت القصـائد والروايـات خالية من أى منفعة إجتماعية أو قيمة أخلاقية بل كل ما فيـها كبريـاء متغطرس، وغرور باطل، وخطيئة آثمة.

هوامش
الفصل الخامس

(١) عمر الدسوقى : الفتوة عند العرب ص ٢٦٠

(٢) عمر الدسوقى : الفتوة عند العرب ص ٢٦١

(٣) يوهان هويزنجا : اضمحلال العصور الوسطى ص ١٠١

(٤) د. حسن عبد الوهاب حسن : تاريخ جماعة الفرسان التيوتون فى الأراضى المقدسة ص ٥٨، ٥٩

(٥) المرجع السابق : ص ٥٩، ٦٠

(٦) الموسوعة الثقافية مادة ف ص ٢١٧ كتاب الشعب

(٧) J. Richard, The Latin Kingdom of Jewsalem P.199.

(٨) أبو الفدا : المختصر فى اخبار البشر جـ٤ ص ٢٥، ٢٦

(٩) عمر الدسوقى : الفتوة عند العرب ص ٢٦٣

(١٠) يوهان هويزنجا : اضمحلال العصور الوسطى ص ١٢٥، ١٢٦

(١١) كافين رايلى : الغرب والعالم، تاريخ الحضارة من خلال موضوعات القسم الأول ص ١٩٥

(١٢) Sir Basil Liddell Hart. Why Don't we Learn From History? P.P 73 - 74

(١٣) جوستاف لوبون : حضارة العرب ص ٦٠٥

(١٤) كافين رايلى : الغرب والعالم ص ١٩٨، ١٩٩

(١٥) المرجع السابق ص ١٩٩

(١٦) د. عبد العزيز الأهوانى : اللقاء الحضارى فى الأندلس (ضمن بحوث فى تاريخ الحضارة الاسلامية ص ١١٣

(١٧) على ابراهيم النحراوى وعثمان صالح الدجوى : تاريخ أوروبا والشرق فى القرون الوسطى ص ٦٥.

(١٨) الأمير شكيب ارسلان : تاريخ غزوات العرب ص ٢٤٢

(١٩) الأمير شكيب ارسلان : تاريخ غزوات العرب ص ٢٤٣

(٢٠) يوهان هويزنجا : اضمحلال العصور الوسطى ص ٧٥، ٧٦

(٢١) يوهان هويزنجا : اضمحلال العصور الوسطى ص ٧٦

(٢٢) جوستاف لوبون : حضارة العرب ص ٣٨٧

(٢٣) عمر الدسوقى : الفتوة عند العرب ص ٢٧٥

(٢٤) كافين رايلى : الغرب والعالم ص ١٩٧، ١٩٨

(٢٥) المرجع السابق : ص ١٩٩

(٢٦) د. حسن عبد الوهاب حسين : تاريخ جماعة الفرسان التيوتون ص ٧٦، ٧٧

(٢٧) د. حسن عبد الوهاب حسين : تاريخ جماعة الفرسان التيوتون ص ٧٨

(٢٨) عمر الدسوقي : الفتوة عند العرب ص ٢٧٨

(٢٩) د. عمر كمال توفيق : الدبلوماسية الاسلامية ص ١٨١

(٣٠) عمر الدسوقى : الفتوة عند العرب ص ٢٧٩

(٣١) كافين رايلى : الغرب والعالم ص ١٩٩، ٢٠٠

(٣٢) المرجع السابق ص ٢٠

(٣٣) Arnold - Sir. T.W. The Preaching of Islam - Ch. 3.

(٣٤) عمر الدسوقى : الفتوة عند العرب ص ٢٨٢

(٣٥) د. حسن عبد الوهاب حسين : تاريخ الفرسان التيوتون ص ١٦٨

(٣٦) المقريزى : الخطط جـ٢ ص ٣٠١ وما بعدها.

(٣٧) د. عمر كمال توفيق : الدبلوماسية الاسلامية ص ١٥٩

(٣٨) المرجع السابق ص ١٥٩، ١٦١

(٣٩) Stanly Lane - Pool - Saladin andy the Ball of the Kingdom of Jewsalem.

P.307.

(٤٠) عمر الدسوقى : الفتوة عند العرب ص ٢٨٣، ٢٨٤

(٤١) يوهان هويزنجا : اضمحلال العصور الوسطى ص ٨٧، ٨٨

(٤٢) يوهان هويزنجا : اضمحلال العصور الوسطى ص ١٠١، ١٠٢

(٤٣) يوهان هويزنجا : اضمحلال العصور الوسطى ص ٦٨، ٧٠

(٤٤) عمر الدسوقى : الفتوة عند العرب ص ٢٨٦

(٤٥) يوهان هويزنجا : اضمحلال العصور الوسطى ص ١٢١

(٤٦) يوهان هويزنجا : اضمحلال العصور الوسطى ص ٧١

الخاتمة

والآن بعد أن عرضنا للفتوة فى المفهوم الإسلامى، نجد أنه من الضرورى نحدد أهم النتائج التى يمكن أن نصل إليها، فنجـــد أول مـــا يقابلنا فى هذا الصدد أن المجتمع العربى قبل الإسلام كان كثيرا ما يشيد بالفتيان ويرفع من شأنهم ويضعهم فى مكان الصدارة والرياسة. إلا أن مفهوم الفتوة فى تلك الأونة كان يختلف باختلاف القبائل، بل لا نغـــالى إذا قلنـــا أن مفهوم الفتوة قبل الإسلام يختلف بإختلاف نظرة كل شخص إلى فتوته.

وإذا نحن خطونا خطوة فى التاريخ ، وقاربنا الإســـلام وجدنـــا نوعا من الفتوة الشريفة كان من أهم سماتها إغاثـــة الملـــهوف ونجـــدة المظلوم... ويتضح ذلك فيما عرف "بحلف الفضول" فلما جاء الإســـلام وجدنا أن لفظة الفتى التى ذكرت فى القرآن الكريم فى أكثر من موضع وبأكثر من معنى، كما أتت وصفا لبعض أنبياء الله مثل إبراهيم ويوسف ــ عليهما السلام ــ كذلك وصف الحق سبحانه وتعالى أهـــل الكـــهف بأنهم فتية، وذلك فى قوله تعالى : "نحن نقص عليك نبأهم بالحق إنـــهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى" . "سورة الكهف : الآية ١٣"

وهنا نجد أن الحق تبارك وتعالى جعل الإيمان به سبحانه ســـمة أساسية من سمات الفتوة.

أما عن موقف الإسلام من سمات الفتوة التى عرفت فى المجتمع الجاهلى فنجد أنه جاء منظما لهذه السمات فألغى بعضها ونهى عنـــها،

وهذب السمات والصفات الحميدة وجعل غايتها مرضاة الله عز وجـــل. فإذا قلنا ــ مثلا ــ ان الشجاعة فى المجتمع الجاهلى كانت تهدف إلـــى المجد الفردى والقبلى، فجاء الإسلام موجها لها إلى خدمة الأمة جمعاء وإلى الدفاع عن مبدأ شريف ودين كريم، فأصبحت جهادا فـــى ســبيل إعلاء كلمة الحق فى وجه طواغيت الكفر والإلحاد.

وجدير بالذكر فى هذا الصدد أن سمات الفتـــوة كمـــا عرفـــها الإسلام إنما هى مكارم الأخلاق، متمثلة فى الإيمان والكـــرم والوفـــاء، والعفة، والأمانة، والرحمة، والعفو، والزهد....

وقد اتضح لنا أن هذه التعاليم السامية قد تجسدت فى شخصيـــة رسول الله صلى الله عليه وسلم فأجتمعت فيه سمات الفتـــوة بشقيـــها المادية والمعنوية، فاقتدى به الصحابة الذين كـــانوا نمـــاذج فـــذة فـــى الأخلاق الكريمة بهرت الفرس وزلزلت عروشهم فدانت لهم ديارهم.

ومن خلال التساؤلات التى طرحناها ــ من قبـــل ــ لمعرفـــة سمات الفتوة عند الصوفية، انتهينا إلى أن مصدر الفتوة عندهم انما هو كتاب الله عز وجل، وسنة رسوله الكريم الـــذى يحـــث علـــى مكـــارم الأخلاق. إضافة إلى ما وجدوه فى حياة الصحابة الذين كـــانت الدنيـــا بزينتها وزخرفها أهون على أحدهم من تراب قدميه.

ومن هذا المنطلق وجدنا أن أخص سمات الفتوة عند الصوفية ما عبر عنه الشيخ الأكبر "محى الدين بن عربى" فى قولـــه :"الفتـــى هـــو الواقف عند مراسم سيده."بالإضافة إلى بعض السمات الأخـــرى التـــى عرفت عن فتيان الصوفية وأهمها : الإيثار، وكف الأذى، والصفح عن الأخوان، والزهد، والصبر، ومحاسبة النفس ومخالفتها وتأديبها...

وإذا كان هناك من يربط بين الفروسية الغربية والفتوة الإسلامية وجدنا أنه من الضرورى أن نقيم دراسة مقارنة بينهما حتى تتجلى الحقيقة، وانتهينا فى هذا الصدد إلى أن الفروسية الغربية وان كانت قد برعت ـ بشكل أو بآخر ـ فى الجانب المادى للفتوة المتمثل فى المعارك وساحات القتال، فانها لم تستطع أن تتحلى بالجانب المعنوى للفتوة من السماحة، والعفو عند المقدرة والوفاء بالعهد، والإلتزام بالوعد، وحماية الضعيف....

يشهد بذلك تاريخ الحروب الصليبية سواء عند فتح بيت المقدس، أو موقف ريتشارد قلب الأسد من أسرى عكا.... فقد ظلت طباعهم الحربية الجافة على ما هى عليه من خشونة وقسوة وعنف منذ أن بدأت تلك الحروب وحتى نهايتها، ولم تعرف شيئا عن العفو أو الرحمة... أو أى سمة من تلك السمات التى وجدناها عند فتيان المسلمين.

وأخيرا ما أحوجنا فى تلك الآونة من التحلى بسمات الفتوة (المادية والمعنوية) حتى نكون أقوياء فى غير عنف ورحماء فى غير ضعف.

من أهم المراجع العربية

١. ابن أبى الحديد : شرح نهج البلاغة ــ تحقيق محمد أبـــو الفضـــل طـــ. مصر ١٩٦٠ ــ ١٩٦٤

٢. ابن جبير : الرحلة تحقيق د. حسين نصار القاهرة ١٩٥٥

٣.ابن الجوزى : صفة الصفوة حيدر آباد ١٣٥٥هـ

٤.ابن الجوزى : تلبيس ابليس القاهرة ١٣٤٠هـ

٥.ابن خلدون : المقدمة دار التحرير للطباعة والنشر ــ القاهرة ١٩٦٦

٦.ابن القيم الجوزية : مدارج السالكين، بين إياك نعبد وإيـــاك نســـتعين دار الحديث. د.ت.

٧.ابن القيم الجوزية : الفروسية دار التراث العربى ــ القاهرة ــ د.ت

٨.ابن عربى : الفتوحات المكية تحقيق د. عثمان يحيى الهيئة المصرية العامة للكتاب ــ القاهرة ــ د.ت

٩.ابن عربى : فصوص الحكم تحقيق د. أبو العلا عفيفى دار الكتـــاب العربى بيروت ١٩٨٠

١٠.ابن كثير : البداية والنهاية مطبعة السعادة ــ القاهرة ــ د.ت

١١.ابن المعمار : الفتوة تحقيق مصطفى جواد وزملائه بغداد ١٩٦٠

١٢.ابن هشام : السيرة النبوية تحقيق طه عبد الرؤوف ســـعد مكتبـــة الكليات الأزهرية ــ القاهرة ــ د.ت.

١٣.أبو سعيد الخراز : كتاب الصدق تحقيق د. عبد الحليم محمـــود دار المعارف ــ القاهرة ــ ١٩٨٥

١٤. ابو طالب المكى : قوت القلوب فى معاملة المحبـــوب ووصـــف طريق المريد إلى مقام التوحيد ــ القاهرة ــ ١٩٣٣
١٥. د. أبو العلا عفيفى : الملامتية والصوفية وأهل الفتـــوة القـــاهرة ١٩٤٥
١٦. د. أبو العلا عفيفى : التصوف الثورة الروحية فى الإسلام دار ــ القاهرة ــ ١٩٦٣
١٧.أبو الفرج الأصفهانى : الأغانى الهيئة المصرية العامة للكتـــاب ــ القاهرة ــ د.ت
١٨.أحمد أمين : الصعلكة والفتوة فى الإسلام دار المعارف ــ القاهرة ١٩٨٦
١٩.د. أحمد محمد الحوفى : من أخلاق النبى دار نهضـــة مصـــر ــ القاهرة ١٩٧٩
٢٠. د. توفيق الطويل : فى تراثنا العربى والإسلامى عـــالم الفكـــر ــ الكويت العدد٨٧
٢١. تيشنر فرانز : الفتوة والخليفة الناصر (فصل من كتاب : المنتقـــى من دراسات المستشرقين) جمع وترجمة وتعليق د. صلاح الدين المنجد القاهرة ١٩٥٥
٢٢.الجرجانى : التعريفات البابى الحلبى ــ القاهرة ١٩٣٨
٢٣.الجيلانى : الغنية لطالبى طريق الحق البابى الحلبـــى ــ القـــاهرة ١٩٥٦
٢٤.جوستاف لوبون : حضارة العرب ترجمة عـــادل زعيـــتر البـــابى الحلبى ــ القاهرة ١٩٦٩

٢٥.د. حسن عبد الوهاب حسين : تاريخ جماعة الفرسان التيوتون فـــى الأراضى المقدسة. دار المعرفة الجامعية ــ اسكندرية ١٩٨٩

٢٦. د. حسن الشرقاوى : الفاظ الصوفية ومعانيها دار الكتب الجامعية ــ اسكندرية ١٩٧٥

٢٧.د. حسن الشرقاوى : الشريعة والحقيقة الهيئة المصريـــة العامـة للكتاب ١٩٧٦

٢٨.الحلاج : الطواسين تحقيق ما سينيون باريس ١٩١٣

٢٩.خالد محمد خالد : رجال حول الرسول بيروت ١٩٧٤

٣٠.دى بور : تاريخ الفلسفة فى الإسلام ترجمة د. عبد الهادى أبو ريدة القاهرة ١٩٥٤.

٣١.د. زكى مبارك : التصوف الإسلامى فى الأدب والأخلاق طـــ . أولى القاهرة ١٩٣٨

٣٢.السلمى : طبقات الصوفية ــ تحقيق نور الدين شريبـــة ــ مكتبـة الخانجى القاهرة ١٩٨٦

٣٣.سيف بن عمر الضبى الأســدى : الفتنـــة ووقعـــة الجمـــل ــ دار النفائس. بيروت ١٩٧٧

٣٤.الشعرانى : الطبقات الكبرى دار الفكر العربى القاهرة بدون تاريخ

٣٥.شكيب أرسلان : تاريخ غزوات العرب طـــ ــ القاهرة ــ بـــدون تاريخ

٣٦.د.طه حسين : الفتنة الكبرى دار المعارف ــ القاهرة ١٩٧٦

٣٧.د.طه حسين : على وبنوه دار المعارف ــ القاهرة ١٩٧٦

٣٨.د.طه حسن : الشيخان دار المعارف ــ القاهرة ١٩٧٨

٣٩.الطوسى : اللمع تحقيق د. عبد الحليم محمود ، وطه عبـــد البـــاقى سرور ــ القاهرة ١٩٦٠.
٤٠.عباس محمود العقاد : عبقرية عمـــر طـــ ــ دار المعـــارف ــ القاهرة ــ ١٩٦٨
٤١.د. عبد الحليم حنفى : شعر الضعاليك ــ الهيئة المصريـــة العامـــة الكتاب ــ القاهرة ــ ١٩٨٧
٤٢.د. عبد الستار السيد متولى : أدب الزهد فى العصـــر العباســـى ــ الهيئة المصرية العامة للكتاب ــ القاهرة ١٩٨٤.
٤٣.د. عبد العزيز الأهوانى : اللقاء الحضارى فى الأندلـــس (ضمـــن بحوث فى تاريخ الحضارة الإسلامية) ــ مؤسسة شبـــاب الجامعـــة ــ اسكندرية ١٩٨٣
٤٤.د. على سامى النشار : نشأة الفكر الفلسفى فـــى الإســـلام ــ دار المعارف بمصر القاهرة ١٩٧٨
٤٥.عمر الدسوقى : الفتوة عند العرب ــ مكتبـــة نهضـــة مصـــر ــ القاهرة ــ ١٩٦٦
٤٦.د. عمر كمال توفيق : الدبلوماسية الإسلامية ــ مؤسســـة شبـــاب الجامعة ــ اسكندرية ١٩٨٦.
٤٧.الغزالى : احياء علوم الدين المكتبة التجاريـــة الكـــبرى ــ بـــدون تاريخ.
٤٨.القاشانى : اصطلاحات الصوفية ــ تحقيق د. محمد كمال ابراهيـــم جعفر ــ الهيئة المصرية العامة للكتاب ــ القاهرة ١٩٨١
٤٩.القشيرى : الرسالة البابى الحلبى ــ القاهرة ١٩٥٩

٥٠.القشيرى : لطائف الإشارات دار الكتاب العربى ـ القاهرة بـــدون تاريخ.
٥١.كافين رايلى : الغرب والعالم ـــ ترجمة د.عبـــد الوهـــاب محمـــد المسيرى. د.هدى عبد السميع حجازى ـ عـــالم المعرفـــة ـ الكويـــت العدد ٩٠
٥٢.د. كامل مصطفى الشيبى : الصلة بين التصـــوف والتشيـــع ـ دار الأندلس بيروت ١٩٨٢
٥٣.المحاسبى : الرعاية لحقوق الله تحقيق د. عبد الحليم محمـــــود دار المعارف ـــ القاهرة ١٩٨٤
٥٤.المحاسبى : المسائل فى الزهد ـــ تحقيق مصطفى عبد القادر عطا ـــ مكتبة التراث الإسلامى ـ القاهرة ١٩٨٦
٥٥.د. محمد أحمد عبد المولى : العيارون والشطـــــار، البغـــادة فـــى التاريخ العباسى مؤسسة شباب الجامعة ـــ اسكندرية ١٩٨٧
٥٦. د. محمد جلال أبو الفتوح شـــــرف : دراســـات فـــى التصـــوف الإسلامى ـــ دار الفكر الجامعى ـــ اسكندرية ١٩٨٦
٥٧.د. محمد رجب النجار : حكايات الشطار والعيارين فـــى الـــتراث العربى عالم المعرفة ـــ الكويت العدد ٤٥
٥٨.د. محمد على أبو ريان : تاريخ الفكر الفلسفى فى الإســـلام ـ دار الجامعات المصرية ـــ اسكندرية ١٩٧٣
٥٩.د. محمد محمد الكومى : المروءة فى الشعر الجاهلى ـــ القاهرة ـــ ١٩٨٣

٦٠. مصطفى عبد الرازق : تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ـ ـ القاهرة ١٩٤٤

٦١.نيكلسون : فى التصوف الإسلامى ـ ترجمة د. أبو العلا عفيفى القاهرة ـ ١٩٤٧

٦٢.الهجويرى : كشف المحجوب ـ دراسة وترجمة وتعليق د. اسعاد عبد الهادى قنديل ـ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ـ القاهرة ١٩٧٤.

٦٣.يوهان هويزنجا : اضمحلال العصور الوسطى ـ ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ـ ١٩٧٢

٦٤. يوهان هويزنجا أعلام وأفكار ـ نظرات فى التاريخ الثقافى ـ ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ١٩٧٢

المراجع الأجنبية

1- Arnold - sir - T.W: The Preaching of Islam.

2 - Sir. Basi Liddell Hart : why don't we Learn From History? George Allen and Unwin. London. 1971.

3 - Stanley Lane. Poool: Saladin and the Fall of the Kingdome of Jerusalem.

4 - J.Richard : The latin kingdome of Jerusalem Trans from french by J.Shirly 2 vols. Amstrdam, 1979.

الفهرس

الموضوع رقم الصفحة

الفصل الأول

الفتوة قبل الإسلام ٩

مفهوم الفتوة قبل الإسلام ٩

القوى المادية للفتوة ١٧

القوى المعنوية للفتوة ٣٣

الفصل الثانى

الفتوة فى الإسلام ٥٥

الفتوة فى كتاب الله ٥٥

سيد الفتيان ٦٢

أولاً : القوى المادية للفتوة..... ٦٥

ثانيا : القوى المعنوية للفتوة..... ٧٩

الفصل الثالث

من فتيان المسلمين ١١٣

أبو بكر الصديق ١١٤

عمر بن الخطاب ١١٩

عثمان بن عفان ١٢٤

على بن أبى طالب ١٢٨

حمزة بن عبد المطلب ١٣٤

خالد بن الوليد ١٣٦

أبو ذر الغفارى ١٣٩

سلمان الفارسى ١٤١

الفصل الرابع

الفتوة فى المدارس الصوفية ١٥١

مدرسة البصرة ١٥٢

مدرسة الكوفة ١٦٧

مدرسة الشام ١٧٨

مدرسة خراسان ١٨٩

الفصل الخامس

بين الفتوة الإسلامية والفروسية الغربية ٢١٥

تعريف الفروسية الغربية ونشأتها ٢١٥

أثر العرب فى الفروسية الغربية ٢٢٢

الفروسية الغربية فى الميزان ٢٤٠

الخاتمة والنتائج ٢٥١

أهم المراجع ٢٥٥

فهرس الموضوعات ٢٦٣